المسكوت عنه في تاريخ مصر
عمر بن الخطاب وعلاقته بمصر

إبراهيم الزيني

المسكوت عنه

في تاريخ مصر

بين عمرو وعمر

تأليف

إبراهيم الزيني

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

الفهرس

المسكوت عنه في تاريخ مصر بين عمرو وعمر.......... ١
تقديم ٤
العقل.. الحرية.. والهوية القاتلة....................... ١٨
هل نحن متخلفون..؟ ٣٠
اقترابه من مجتمع العرب............................. ٣٨
نقترب أكثر.. ٤١
ما معنى الصحة النفسية ٤٥
الصحة النفسية للمجتمع.............................. ٤٧
مجتمع صحابة رسول ا ٤٩
دراسة مقارنة بين المجتمعات.......................... ٥٥
الزراعية والمجتمعات الرعوية.......................... ٥٥
الحضارة السومرية ٥٩
الرعاة ـ مخزونهم الثقافي وهويتهم...................... ٧١
خصائص مجتمع الندرة................................. ٧٦
علاقة الدين بالقيم..................................... ٩٣
عصمة الصحابة.. ٩٨

لماذا عمر أولاً ١٠٤
حال مصر عند دخول العرب........................١١٢
أقام الظلم ليشتهر بالعدل!! ١٢٤
حوار الظلم بين أمير المؤمنين وعمرو بن العاص......١٣٣
إيمان عمر بن الخطاب بالخرافات: ١٥٩
الجندي المطيع..١٦٤
الهروب في أحد ١٨٢
أحادي التفكير ١٨٨
سلطان غشوم خير من فتنة تروم ١٩٦
زوجات عمر بن الخطاب...........................٢٠٣

تقديم

الحاجة لهذا الكتاب:

تمر مصر بمرحلة هي الأسوأ في تاريخها، منذ بدء الخليقة وحتى الآن فهي قد وصلت إلى التخلف والانحطـاط على كل المستويات المادية والفكرية التي تصنع الحضارة.

وفي كتابي السابق " مصر بـين العقـل والعقـال " وضحت أسباب هذا التخلف وعزوته إلى سـيطرة مخـزون ثقافة حزام الرعي على الثقافـة المصـرية التـي أنتجهـا المصريون القدماء بدعوى أنها ثقافة إسـلامية وهـي فـي حقيقتها ثقافة بدوية حملها العرب معهم في احتلالهم لمصـر مما جعل المصريون يفقدون هـويتهم بالتـدريج ويخلعـون جلبابهم ليرتدوا جلباب ثقافة بدوية، ولما كان من المسـتحيل على أي شعب من الشعوب أن يقيم حضارة حقيقيـة وهـو يعيش في جلباب ثقافة أخرى..!! فقد أصدرت كتابي السابق لأنبه أصحاب القرار الاستراتيجي والسياسي لتـدارك هـذا الأمر وإعادة وضع الأمور موضع الجـد وقـدمت خطابـا مصريا جديدا لإعادة بناء الهوية المصـرية علـى معـايير

مصرية خالصة بعيدة عـن الثقافـات الأخـرى التـي أدت لانحطاطها وتخلفها.

ولكن..!! ومنذ صدور هذا الكتاب وحتى الآن رأينـا أن الحكومة في واد والشعب في واد آخر وكلاهما لا يعمل.. فالحكومة مشغولة بالسيطرة على أدوات الحكم وتنظيم أدواته السياسية والاقتصادية والإعلاميـة فـي عمـل الموازنـات السياسية والمصالحات والمسكنات التي تضمن لهـا مقاليـد الأمور.

أما الشعب فهو لا يعمل أيضا في أي اتجـاه وإنمـا أصبح كالقطيع من الأغنام الذي يوجهه صاحبة إلى أمـاكن الكلأ والعشب أحيانا، وأحيانا يمنعه عن المـاء لمزيـد مـن التربية والتعليم وهو في هذا وذاك لا حول له ولا قوة.

أما الجهة الوحيدة التي تعمل في مصر فهم رجـال الدين الإسلامي حيث وجدوا الساحة خالية والجمهـور فـي حالة من اللاوعي بظروفه وظروف مجتمعـه وانسـحب أو يكاد من المشاركة الفعلية في أن يكون فاعلاً أو مؤثرا فيه.

فماذا هم فاعلون!!؟

وماذا نحن فاعلون؟

ماذا هم فاعلون!!

لقد فعل الفكر الديني في مصر كل ما يريـد نحـو تغييب العقل المصري مما أدى إلى انسحابه، وأصـبح هـذا العقل المنسحب غير قادر على الخلق والابتكـار والإنتـاج والعمل الخلاق، ولقد استغل رجال الدين ـ بقصد ـ ضعف الأداء الحكومي وتدهور الأوضاع الاقتصادية لنشر فكـرهم لإكمال سيطرتهم على الشارع المصـري بكاملـه تمهيـدا لاستخدامهم بعد ذلك فى السيطرة السياسية على مصر كلهـا وتحقيق مشروعهم بالعودة إلى القرن الأول الهجـري حـين حقق المشروع الإسلامي نجاحاته الأولى.

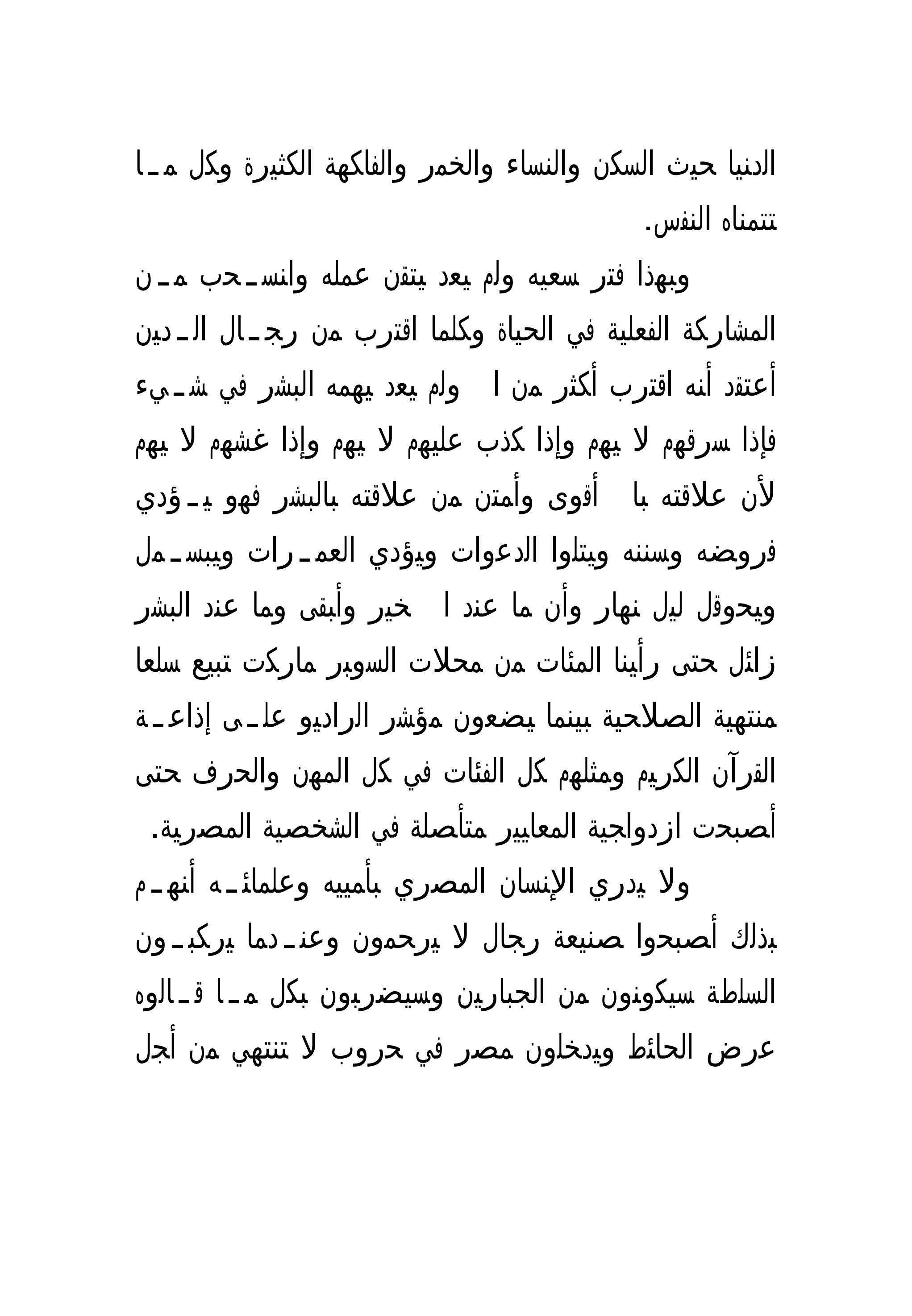
ولقد استطاعت الثقافة الدينية الموجودة على السـاحة الآن أن تؤثر تأثيرا إيجابيا نحو تحقيق هذا الهدف بل وبعـد أن تمت لها السيطرة على الفئـة المسـتهدفة مـن الأميـين والبسطاء والحرفيين والفلاحين. انتقلت إلى الطبقـة المثقفـة العليا فطالت العلماء في تخصصات الطب والهندسة والعلوم والمحاميين وغيرهم.

وأنا اسمع يوميا العجب من رجال اعتقد أنهم اعتنقوا القوانين العلمية وآمنوا بها مثل أساتذة الطب والهندسية والكيمياء والفيزياء يرفضون الصلاة أمام صورة فرعونية ويتحدثون في الدين كما تتحدث الخادمة أو بائع الخضار الذي لا يجيد القراءة أو الكتابة.

بل لم يكتف رجال الدين بذلك بل جعلوا ا سبحانه وتعالى يمسك عصا غليظة أو كرباجا ليؤدب به كل من يخرج على ما يقوله شيوخ هذا الزمان فغيروا وظيفة ا ووظيفة أنبيائه وجعلوا ا ومن تبعه من الأنبياء والرسل سوط عذاب وأداة تعذيب تنشر الخوف والفزع في قلوب من لا يعلمون.

أما فقهاء الدين ورجاله فهم الحارسون على الدين والحافظون لقيم الخير والعارفون لطريق الجنة والقادرون وحدهم على جعل الأنبياء شفعاء لمن يحبون ولمن يتبع نصائحهم الغالية.

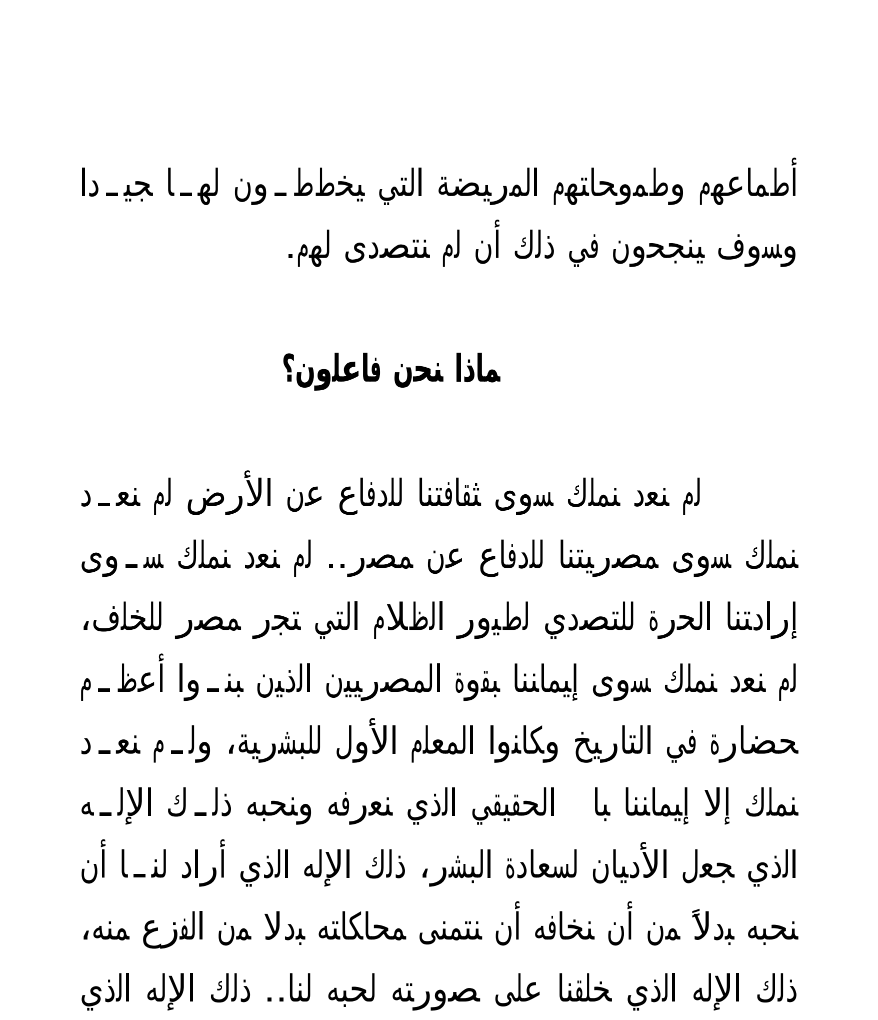
حتى أصبح الإنسان المصري مهموم القلب والعقل ينتظر الموت ليدخل الجنة فيحقق ما لم يستطيع تحقيقه في



الدنيا حيث السكن والنساء والخمر والفاكهة الكثيرة وكل مـا تتمناه النفس.

وبهذا فتر سعيه ولم يعد يتقن عمله وانسـحب مـن المشاركة الفعلية في الحياة وكلما اقترب من رجـال الـدين أعتقد أنه اقترب أكثر من ا ولم يعد يهمه البشر في شـيء فإذا سرقهم لا يهم وإذا كذب عليهم لا يهم وإذا غشهم لا يهم لأن علاقته با أقوى وأمتن من علاقته بالبشر فهو يـؤدي فروضه وسننه ويتلوا الدعوات ويؤدي العمـرات ويبسـمل ويحوقل ليل نهار وأن ما عند ا خير وأبقى وما عند البشر زائل حتى رأينا المئات من محلات السوبر ماركت تبيع سلعا منتهية الصلاحية بينما يضعون مؤشر الراديو علـى إذاعـة القرآن الكريم ومثلهم كل الفئات في كل المهن والحرف حتى أصبحت ازدواجية المعايير متأصلة في الشخصية المصرية.

ولا يدري الإنسان المصري بأمييه وعلمائـه أنهـم بذلك أصبحوا صنيعة رجال لا يرحمون وعنـدما يركبـون السلطة سيكونون من الجبارين وسيضربون بكل مـا قـالوه عرض الحائط ويدخلون مصر في حروب لا تنتهي من أجل



أطماعهم وطموحاتهم المريضة التي يخططون لها جيدا وسوف ينجحون في ذلك أن لم نتصدى لهم.

ماذا نحن فاعلون؟

لم نعد نملك سوى ثقافتنا للدفاع عن الأرض لم نعد نملك سوى مصريتنا للدفاع عن مصر.. لم نعد نملك سوى إرادتنا الحرة للتصدي لطيور الظلام التي تجر مصر للخلف، لم نعد نملك سوى إيماننا بقوة المصريين الذين بنوا أعظم حضارة في التاريخ وكانوا المعلم الأول للبشرية، ولم نعد نملك إلا إيماننا با الحقيقي الذي نعرفه ونحبه ذلك الإله الذي جعل الأديان لسعادة البشر، ذلك الإله الذي أراد لنا أن نحبه بدلاً من أن نخافه أن نتمنى محاكاته بدلا من الفزع منه، ذلك الإله الذي خلقنا على صورته لحبه لنا.. ذلك الإله الذي يعرف أننا نخطئ ونصيب ويقبل أخطائنا لأنه يعلم أنه لم يخلقنا ملائكة.. ذلك الإله الذي جاءت صفاته في كل الكتب السماوية مقترنة بالحب والمغفرة والتسامح.. ذلك الإله الذي رفض أن يكون له رجال أو فقهاء أو أدعياء للدفاع عنه.

لذلك فنحن نملك الكثير نملك الثقافة، ونملك الإرادة، ونملك الإيمان بمصر، وبالمصريين ونملك فوق كل هذا حب ا للصادقين المخلصين من أمثالنا الذين لا يزيفون التـاريخ ولا يرتدون ثوب النفاق لتحقيق أهداف سلطوية ولا يخـافون رجالاً أدعو أنهم رجالاً للدين وفقهاء له.

وفي الصحيحين عن النبي صلى ا عليـه وسـلم " خيار ائمتكم الذين تحبونهم ويحبـونكم وتصـلون علـيهم ويصلون عليكم.. وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنوهم ويلعنونكم " وذلك فلأنهم يبغضوننا فنحن نبغضـهم ولأنهم يكرهوننا فنحن نكرههم لأن رجال الدين الذين يخيفون الناس ويرهبونهم بعذاب ا وجبروته ليسوا من الـدين فـي شيء كما قال رسول ا صلى ا عليه وسلم.

لقد مارس رجال الدين نوعا من السيطرة على عقول المصريين بإتباع أساليب ليست من الدين في شـيء نـذكر منها:

(١) خلق الأساطير حول صحابة رسول ا والتـابعين وتابع التابعين حتى ارتفعوا بهم إلى درجة الملائكة

الذين لا يخطئون ـ وجعلوهم المثل الأعلى الذي لا يمكن الوصول إليه أو تحقيقه.

(٢) أغلقوا باب الاجتهاد في علوم الدين وإذا سمحوا بـه فإنما يرتبط ذلك بحدود ذكـر المجتهـدين الأوائـل وذكر الاختلاف بينهم بشرط أن يتفق المجتهد مـع واحد منهم.

(٣) حاربوا العلوم التي تصنع الحضارة ادعوا أنها علوم شيطانية (الإمام الغزالي) وأن العلم الحقيقي هـو العلم الديني.

(٤) أهدروا كل قيمة للعقل حتى نقلوا وظيفته إلى القلب الذي هو مصدر الإحساس والإحساس مكان العقيدة وجعلوا استفتاء القلب خير من أعمال العقل ويقـول الشيخ الشعراوي: (إنما خلق العقل ليعقل الأشياء لا ليفكر فيها، وأنه إذا فكر يكون بذلك قد خرج عـن حدود والتكليف الذي كلفه ا به).

ويقول الذهبي في السير ٤/ ٤٧٢ " إذا رأيت المتكلم يقول دعنا من الكتاب والأحاديث وهات العقل فاعلم أنه أبـو جهل، وإذا رأيت السالك التوحيدي يقول: دعنا من النقل ومن

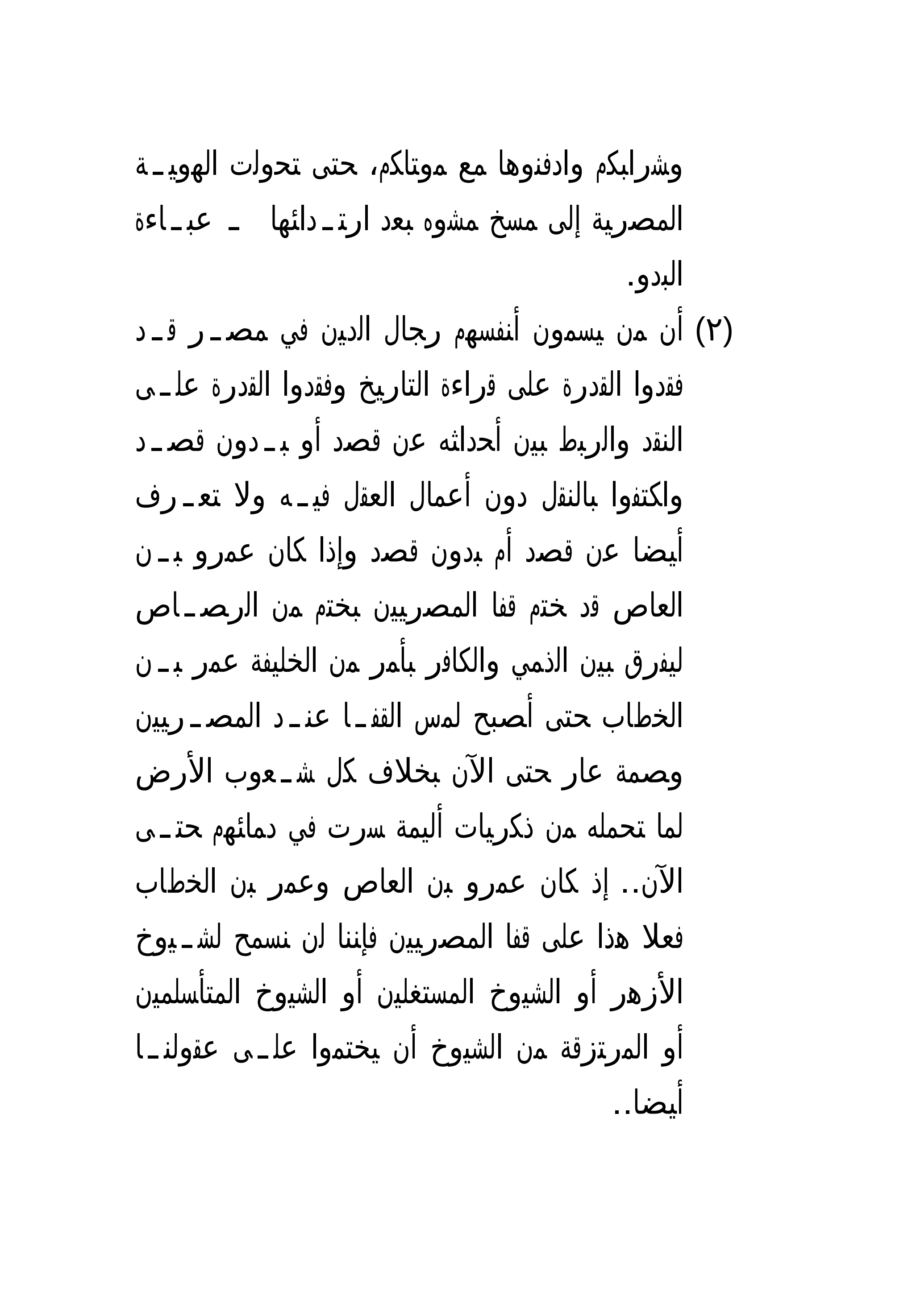
العقل وهات الذوق والوجد فاعلم إنه إبليس قد ظهر بصورة بشر أو قد حل فيه، فإن حببت فاهرب وإلا فاصرعه وأبرك على صدره واقرأ عليه آية الكرسي واخنقه " فالفقيـه هنـا يرفض العقل وكذلك يرفض الزهد.

(٥) وفي العواصم من القواصـم ص (٦٨) " امـتلأ التاريخ الإسلامي بالأكاذيب ولن تتجـدد للمسـلمين نهضة إلا إذا عرفوا سلفهم على حقيقته. ولن يعرفوا سلفهم على حقيقته إلا بتطهير التاريخ الإسلامي مما ألصق به ".

(٦) يقول شيخ الإسلام بن تميمة " وفي الجملة فإذا قيـل أن عثمان ضرب بن مسعود أو عمارا فهذا لا يقدح في أحد منهم. فأنا نشهد أن الثلاثة في الجنة، وأنهم أكابر أولياء ا المتقين، وأن ولي ا قد يصدر عنه ما يستحق عليه العقوبة الشرعية، فكيف بـالتعزيز، فقد ضرب عمر بن الخطاب أبي كعـب لمـا رأى الناس يمشون خلفه وقال: " هذا ذله للتـابع وفتنـة للمتبوع ".

هذا وغيره من متناقضات التاريخ والفكر الإسـلامي قد أدى بالضرورة إلى قيامنا بهذا الكتاب ونحن لا نريد بذلك دحض التناقض أو الدفاع عنه، ولا نريـد محاربـة فقهـاء الإسلام أو النيل منهم. ولكن همنا كله ينصب على الآتي: ـ

(١) هدفنا في المقام الأول مصر أولاً وثانيا وثالثًا إلـى آخر الأعداد ذلك أننا أدركنا أن التخاف والانحطاط أصاب المصريين بدءا من دخول العـرب مصـر ومعهم ثقافتهم البدوية ثقافة حزام الرعي، وهنا يجب أن نفصل بين المقدس وتفسيره والثقافة المصـاحبة له، بمعنى أن القرآن مقدس وموحي به لكن الثقافـة المصاحبة له هي بشرية في المقـام الأول كمـا أن الرجال الذين تولوا نشر هذه الثقافة هم مـن البـدو حملوا معهم مخزونهم الثقافي من عـادات وتقاليـد وعرف وفنون وأدب وحرفة، كذلك حملـوا معهـم هويتهم ووضعوا كل ذلك داخل وعاء ديني وقـالوا للمصريين العجم حسب تسميتهم لنا ـ والعجم تطلق على البهائم ـ هذا وذاك هـو الثقافـة الإسـلامية فانهلوا منها أيها المصريين وامزجوهـا بطعـامكم



وشرابكم وادفنوها مع موتاكم، حتى تحولت الهوية المصرية إلى مسخ مشوه بعد ارتدائها - عباءة البدو.

(٢) أن من يسمون أنفسهم رجال الدين في مصر قد فقدوا القدرة على قراءة التاريخ وفقدوا القدرة على النقد والربط بين أحداثه عن قصد أو بدون قصد واكتفوا بالنقل دون أعمال العقل فيه ولا تعرف أيضا عن قصد أم بدون قصد وإذا كان عمرو بن العاص قد ختم قفا المصريين بختم من الرصاص ليفرق بين الذمي والكافر بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب حتى أصبح لمس القفا عند المصريين وصمة عار حتى الآن بخلاف كل شعوب الأرض لما تحمله من ذكريات أليمة سرت في دمائهم حتى الآن.. إذ كان عمرو بن العاص وعمر بن الخطاب فعلا هذا على قفا المصريين فإننا لن نسمح لشيوخ الأزهر أو الشيوخ المستغلين أو الشيوخ المتأسلمين أو المرتزقة من الشيوخ أن يختموا على عقولنا أيضا..

(٣) لقد خلق هذا الجو الخانق عدم الإحساس بالمواطنة عند المصريين، فأصبح الوطن يأتي في مرتبة متدنية وأصبح الدين هو الوطن وهذا مخالف للطبيعة البشرية التي خلقت من تراب، ونحن إذا نظرنا إلى المجتمع المصري حيث يتكون من مسلمين ومسيحيين ومن رجال ونساء والنساء منه هم نصف السكان نرى أن فقهاء الإسلام حرموا المرأة نصف المجتمع من إنسانيتها وحولوها إلى أنثى، ولم يكتفوا بذلك بل حولوا الأنثى إلى جسد ولم يكتفوا بذلك!! بل وضعوا ثلاثة أرباع الثقافة الإسلامية بين فخذي المرأة فأصبحت المرأة هي مشكلة هذا المجتمع ومشكلة الدين ومشكلة الحرام والحلال، فحرموا على المرأة الشعور المواطنة الحقيقية حتى أصبحت نتيجة لهذا العنف الديني الذي تحول إلى عرف لا تشعر بالمواطنة الحقيقية مثلها مثل الرجل وإذا أضفنا نصف المجتمع إلى المسيحيين والبهائيين والشيعة والأقليات الصغيرة سوف نجد أن ٧٠ % من المصريين لا يشعرون

بالمواطنة الحقيقة ونستطيع أن ندرك خطورة هـذا الأمر إذ أردنا أن نرصد حركة التقدم في أي مجتمع من المجتمعات.

(٤) إتقان العمل والارتقاء به وتطويره والابتكار فيه هو من أسس التقدم الحضاري للشعب المصـري قبـل الغزو العربي، وعندما جاء فيثاغورث مصـر مـع علماء اليونان وجد فيثاغوث عمال البناء يمارسـون عملهم بالرياضة والتفاضل والتكامل فنقل نظريتـه منهم واعترف بذلك، حتـى سـقراط قـال كلمتـه المعروفة.. " عجبت!! الأطفال المصريون يحلـون مسائل التفاضل والتكامل المعروفـة.. " عجبـت!! الأطفال المصريون يحلون مسائل التفاضل والتكامل على الرمل بينما الأطفال في أثينا يلعبون البلي " إن كراهية العمل عند المصريين الآن أصبحت سمة من سماتهم بسبب غلبة الفكر الديني الذي يؤكد في كـل لحظة أن الرزق بيد ا ، ويا عبدي لن تخرق الجبال طولا، وأن السعي للرزق هو سعي خبيث، ورزقكم

في السماء وما تتوعدون، والتكالب على الحياة ابتعاد
عن الآخرة إلى آخر المقولات.

العقل.. الحرية.. والهوية القاتلة

إن العقل الذي لا ينتقد هو العقل الـذي قـد مـات. وتناقض العقل ليس ضعفًا فيه، لأن التناقض وإدراك التناقض أسلوبان عقليان. فالعقل ناقض ومنقوضا هو كـل المعرفـة. ومن هنا تنبع أهمية العقل لأنه ينتج الفكر وهذا الفكر بالتالي هو الذي يوجه حوافز الإنسان بالإيجاب أو بالسـلب، فـإذا كانت إيجابية صنع حضارته وإذا كانت سلبية صنع تخلفه.

هذه المقدمة ضرورية لفك الإشكالية القائمة بين الدين من ناحية وبين العقل في المقابل، لأن الأديان دائما تنتصـر في المعارك التي تتجنبها، فهـي لا تُحـارب بالعقـل، ولا تُحارب العقل، أي لا تدخل مع العقل في معارك حرة ولهـذا ظلت الأديان دائما منتصرة.

إن الناس عادة يجدون دينهم كما يجـدون أوطـانهم ولغتهم وأرضهم وآبائهم بمجرد ولادتهم، فهم لا يبحثون عنها أو يفهمونها أو يختارونها لأنهم يعتقدون أولا ثم لا يفكـرون لينعمون بمتعة الكسل العقلي، لأن الأديان لو كانت خاضـعة لحكم العقل لضاقت الخلافـات فيمـا بينهـا وتناقصـت، أو

لتداخلت وتوحدت كلها في دين واحد كالذي يحدث في الإنتاج العلمي الصناعي الذي يبتكره العقل، ولوجدنا المؤمن يخرج من دين إلى دين بالسعة والسهولة التي ينتقل بها من فكر إلى فكر.

لكن الأديان اختلفت، وأصبحت أنت ومخالفـك كـل منكما يرى أن دينه هو الحق وأن شيطانه هو القديس، كـل منكما يرى ا وحده وإذا أردت أن يكون الآخرون طيبـين فأنت تعني أن يكونوا متلائمين معك، متبعين لك، ومسـلمين برأيك.

وأنت في هذا حتى لا تحترم نصوص دينك وكتابـك حتى لو أجبرتك هذه النصوص على التسامح والسلام ودعت إلى الحرية، الحرية لكل مختلف حتى فـي فهـم ا نفسـه. لماذا!؟

لأنك تربط الدين بذاتك لا بذات ا وتعتقد أن العبادة هي عملية استفراغ روحي أو عملية جنسية تؤديهـا الـروح لحسابها لا لحساب ا .

ومن هنا جاءت كراهية الأديان للعقل، لأن العقل هو الوحيد القادر على فك هذه الإشكالية، وقد يقول قائل كيـف

والأديان جميعها خاصة الدين الإسلامي تمتلئ نصوصه باحترام العقل و التفكير والحرية الدينية: (لست عليهم بمسيطر)، (ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك)، (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)، و (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا)، و (ولو شاء ا لجعلهم أمة واحدة) كلها آيات تمجد التسامح وحرية الفكر وحرية العقيدة وتقرر أن الخلاف في الإيمان ذاته سنة ا وإرادته.

لكن هناك فرق بين المقال والمقام كعادة العرب الذين حملوا لواء الدين.. لقد نزل النص يحترم العقل ويحترم حرية العقيدة ويحترم الآخر، لكن بعد النص جاء النصاصون جاء الفقهاء وجاء التابعون وتابع التابعين والمفسرون والشراح جاءوا يفاخرون أهل الأرض بأن المسلمين وحدهم الذين يعبدون إلها واحدا لا يشركون به أحدا، لكنهم جاءوا ومعهم أصنامهم جاءوا ومعهم هويتهم القاتلة، جاءوا ومعهم ذواتهم المريضة، جاءوا ومعهم مخزونهم الثقافي، جاءوا ومعهم أمراضهم وآلامهم النفسية وتحولوا إلى قادة ودعاة وملهمين، وتركوا النصوص المقدسة وأولوها وجعلوها تخدم مصالحهم

الشخصية ومصالح من يدينون لهم بالطاعة وعقدوا حلفًا مع الحكام، حلفًا مريضا هدفه السيطرة علـى الأعـاجم لسـلب خبراتهم وملء بطونهم بما ينتجونـه مـن طعـام وإشـباع غرائزهم بحرائر نسائهم فجعلوهن سـبايا وإمـاء وجعلـوا النصوص القرآنية سقفًا يحمي أفعالهم فأصبح السيف في يـد الحاكم والرأي الديني في يد الفقيه وسيلة تعذيب واسـتنزاف لكرامة الإنسان الخاضع لإرادتها.

أما العقل فقد نقلوا وظيفته إلى القلب لأن العقل يؤدي إلى المنطق وقال الفقهاء في هذا " مـن تمنطـق تزنـدق " فالمنطق مرفوض كنتاج عقلي. وقال الشاعر:

أرى العقل بؤسا في المعيشة للفتى

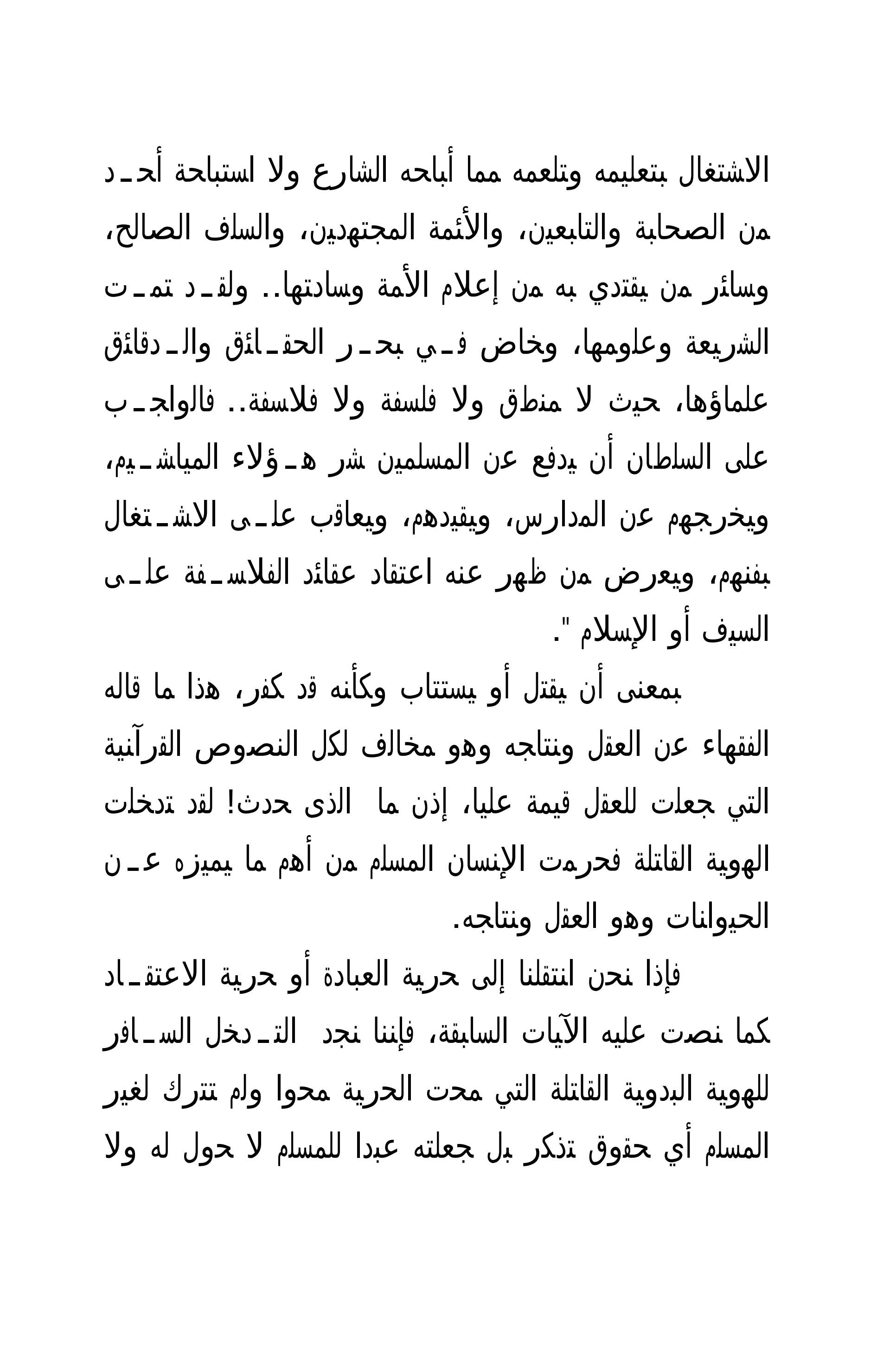
ولا عيشة إلا ما حباك به الجهل

وقال الجاحظ في " رسالة كتمان السر وحفظ اللسان ص ١٤١ "

" إنما سمي العقل عقلاً لأنه يزم اللسـان ويخطمـه (يقيده) عن أن يمضي فرطًا في سـبيل الجهـل والخطـأ والمعرة كما يعقل البعيـر " وقـال الشـيخ محمـد متـولي الشعراوي " إنما خلق العقل ليعقل الأشياء لا ليفكر فيها، لأنه

لو فكر يكون بذلك قد خرج عن حدود التكليف الذي كلفه ا به ".

أما عن نتاج العقل وهو الفكر وميدانه الفلسـفة فقـد كان ابن تيمية معروفا بعدائه للفلسفة والمنطق وله مؤلفـات في الرد عليها، أما السيوطي فيحرم الاشتغال بالمنطق، قائلاً عن نفسه كنت في مبادئ الطلب قرأت شيئًا في علم المنطق، ثم ألقى ا كراهيته في قلبي، وسـمعت أن ابـن الصـلاح الشهرزوري أفتى بتحريمه، فتركته لذلك، فعوضني ا تعلى عنه " علم الحديث الذي هو أشرف العلوم " وللشـهرزوري فتوى أفتى بها سائلاً سأله عن رأي الـدين فـي الاشـتغال بالمنطق تحصيلاً وتعليما، وماذا يجب على ولي الأمر فعلـه بـإزاء المشـتغلين بالمسـائل الفلسـفية عمومـا، فأجـاب الشهرزوري قائلاً " أن الفلسفة أس السفه والإغـلال ومـادة الحيرة والضلال ومثار الزيغ والزندقة، ومن تفلسف عميـت بصيرته عن محاسن الشريعة المطهـرة المؤيـدة بـالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة، ومن تلبس بها تعليمـا وتعلمـا قارنه الحرمان والخزلان، واستحوذ عليه الشـيطان.. وأمـا المنطق فهو مدخل الفلسفة، ومـدخل الشـر شـر، ولـيس



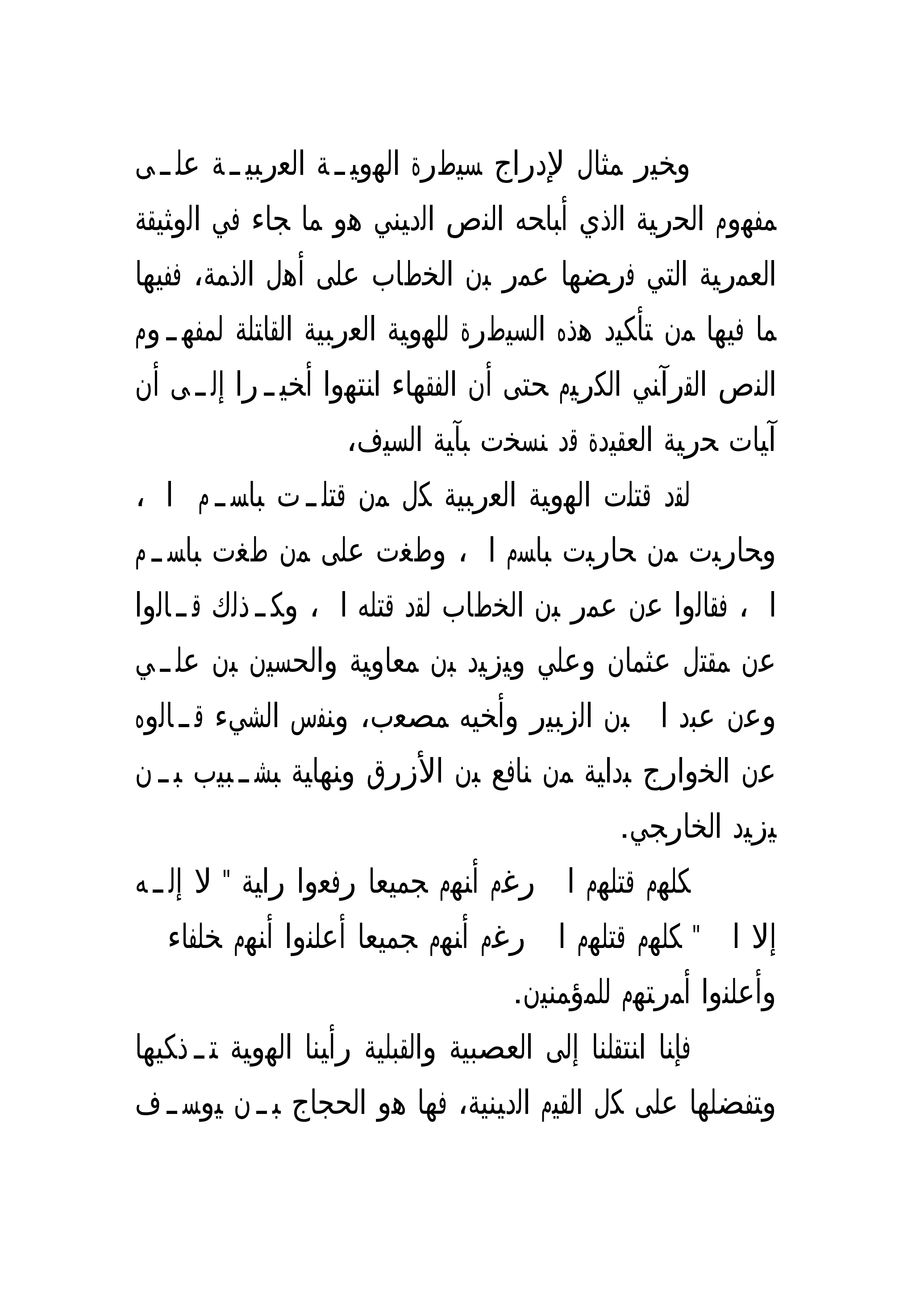
الاشتغال بتعليمه وتلعمه مما أباحه الشارع ولا استباحة أحـد من الصحابة والتابعين، والأئمة المجتهدين، والسلف الصالح، وسائر من يقتدي به من إعلام الأمة وسادتها.. ولقـد تمـت الشريعة وعلومها، وخاض فـي بحـر الحقـائق والـدقائق علماؤها، حيث لا منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة.. فالواجـب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شر هـؤلاء المياشـيم، ويخرجهم عن المدارس، ويقيدهم، ويعاقب علـى الاشـتغال بفنهم، ويعرض من ظهر عنه اعتقاد عقائد الفلاسـفة علـى السيف أو الإسلام ".

بمعنى أن يقتل أو يستتاب وكأنه قد كفر، هذا ما قاله الفقهاء عن العقل ونتاجه وهو مخالف لكل النصوص القرآنية التي جعلت للعقل قيمة عليا، إذن ما الذى حدث! لقد تدخلت الهوية القاتلة فحرمت الإنسان المسلم من أهم ما يميزه عـن الحيوانات وهو العقل ونتاجه.

فإذا نحن انتقلنا إلى حرية العبادة أو حرية الاعتقـاد كما نصت عليه الآيات السابقة، فإننا نجد التـدخل السـافر للهوية البدوية القاتلة التي محت الحرية محوا ولم تترك لغير المسلم أي حقوق تذكر بل جعلته عبدا للمسلم لا حول له ولا

قوة، وأصبح بذلك أشد الناس حماسةً للدين وهـم الفقهـاء لا يتعاملون مع إيمانهم رغـم أنهـم يمـلأون ألسـنتهم بـا وتسبيحاته، ويملأون تصوراتهم بالخوف منها ومن جحيمـه ورغم أنهم يكذبون على ا لتيسير أمر السـلطان وفـرض سطوتهم على الدهماء واستنزاف خيراتهم، فيفرقـون بـين الذمي والمسلم، وبين الأعجمي المسلم والعربي المسلم، وبين العربية المسلمة والأمة المسلمة، وبين العربي المسلم والعبـد المسلم فيلغون بذلك كل آيات المساواة بين البشر في القـرآن الكريم، ويخالفون النص في حرية تغيير الديانة " فمن شـاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " ويقول عمر بن الخطـاب قولتـه المشهورة عن أهل الزمة (كيف أعزهم وقد أذلهم ا) وهو بهذا يخالف النص ويغلب عليه هويته العنصرية.

وإذا أردنا الحديث عن الحرية الدينية فـي الإسـلام فإننا لا نذكر وجودا لكلمة الحرية إلا فيما يتعلـق بتحريـر العبيد من الرق والتفريق في الوصف بـين المـرأة الحـرة والمرأة الأمة، لكن الحرية بمعناهـا الحـالي لا تـرد فـي القاموس العربي الا بمعنى فك القيد وإطـلاق الصـراح، لا حرية الاختيار أو حرية الفن أو حرية التوجه.

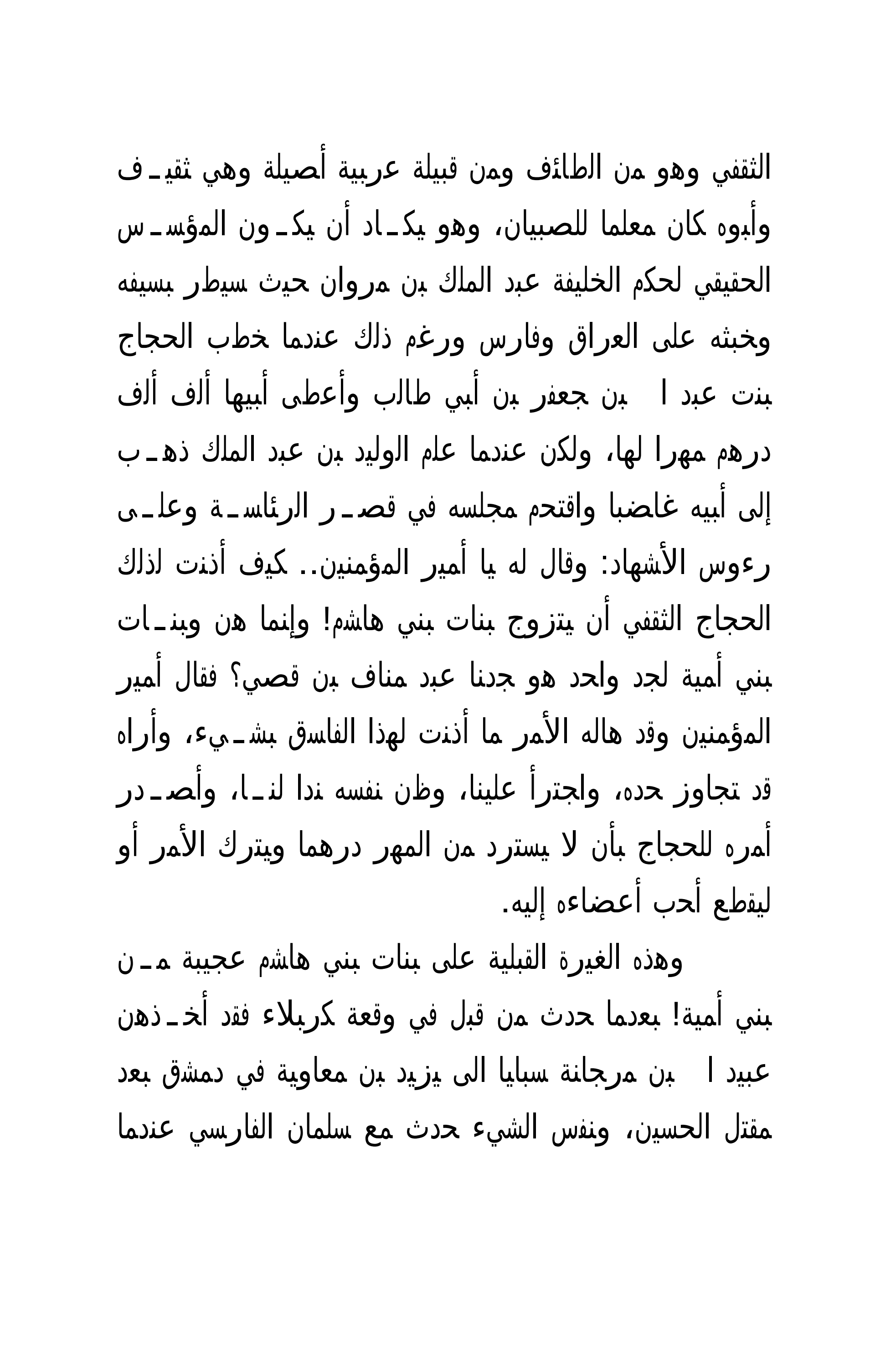


وخير مثال لإدراج سيطرة الهويـة العربيـة علـى مفهوم الحرية الذي أباحه النص الديني هو ما جاء في الوثيقة العمرية التي فرضها عمر بن الخطاب على أهل الذمة، ففيها ما فيها من تأكيد هذه السيطرة للهوية العربية القاتلة لمفهـوم النص القرآني الكريم حتى أن الفقهاء انتهوا أخيـرا إلـى أن آيات حرية العقيدة قد نسخت بآية السيف،

لقد قتلت الهوية العربية كل من قتلـت باسـم ا ، وحاربت من حاربت باسم ا ، وطغت على من طغت باسـم ا ، فقالوا عن عمر بن الخطاب لقد قتله ا ، وكـذلك قـالوا عن مقتل عثمان وعلي ويزيد بن معاوية والحسين بن علـي وعن عبد ا بن الزبير وأخيه مصعب، ونفس الشيء قـالوه عن الخوارج بداية من نافع بن الأزرق ونهاية بشـبيب بـن يزيد الخارجي.

كلهم قتلهم ا رغم أنهم جميعا رفعوا راية " لا إلـه إلا ا " كلهم قتلهم ا رغم أنهم جميعا أعلنوا أنهم خلفاء وأعلنوا أمرتهم للمؤمنين.

فإنا انتقلنا إلى العصبية والقبلية رأينا الهوية تـذكيها وتفضلها على كل القيم الدينية، فها هو الحجاج بـن يوسـف


الثقفي وهو من الطائف ومن قبيلة عربية أصيلة وهي ثقيـف وأبوه كان معلما للصبيان، وهو يكـاد أن يكـون المؤسـس الحقيقي لحكم الخليفة عبد الملك بن مروان حيث سيطر بسيفه وخبثه على العراق وفارس ورغم ذلك عندما خطب الحجاج بنت عبد ا بن جعفر بن أبي طالب وأعطى أبيها ألف ألف درهم مهرا لها، ولكن عندما علم الوليد بن عبد الملك ذهـب إلى أبيه غاضبا واقتحم مجلسه في قصـر الرئاسـة وعلـى رءوس الأشهاد: وقال له يا أمير المؤمنين.. كيف أذنت لذلك الحجاج الثقفي أن يتزوج بنات بني هاشم! وإنما هن وبنـات بني أمية لجد واحد هو جدنا عبد مناف بن قصي؟ فقال أمير المؤمنين وقد هاله الأمر ما أذنت لهذا الفاسق بشـيء، وأراه قد تجاوز حده، واجترأ علينا، وظن نفسه ندا لنـا، وأصـدر أمره للحجاج بأن لا يسترد من المهر درهما ويترك الأمر أو ليقطع أحب أعضاءه إليه.

وهذه الغيرة القبلية على بنات بني هاشم عجيبة مـن بني أمية! بعدما حدث من قبل في وقعة كربلاء فقد أخـذهن عبيد ا بن مرجانة سبايا الى يزيد بن معاوية في دمشق بعد مقتل الحسين، ونفس الشيء حدث مع سلمان الفارسي عندما

حاول الخطبة منهن فقد تم رفضه لأنه أعجمي رغـم أنـه حبيب رسول ا صلى ا عليه وسلم.

إن الدعاوى الإسلامية كثرت هـذه الأيـام تطالـب بالحكم بالإسلام بعضها يطلبه بالطريقة السـلفية، وبعضـها يطلبه بالطريقة الشيعية، وبعضها يطلبه بالطريقـة التركيـة (طريقة كمال أتاتورك) التي بدأت سنة ١٩٢٣ وسيان كان مطلب هؤلاء أو هؤلاء فأننا نحب أن نؤكد: ـ

ـ أن الذهنية الإسلامية في هذا العصر هي ذهنيـة جاهلة لأنها تفتقد أول ما تفتقده إلى العقل، وتعتمـد اعتمـادا احاديا على الموروث الثقافي البدوي، الذي لا يعطي العقـل أي وظيفة: اللهم إلا كيف يطغي! وكيف يسيطر! وكيف يدير المكائد! وكيف يقتل الخصوم ويكفر الآخر!

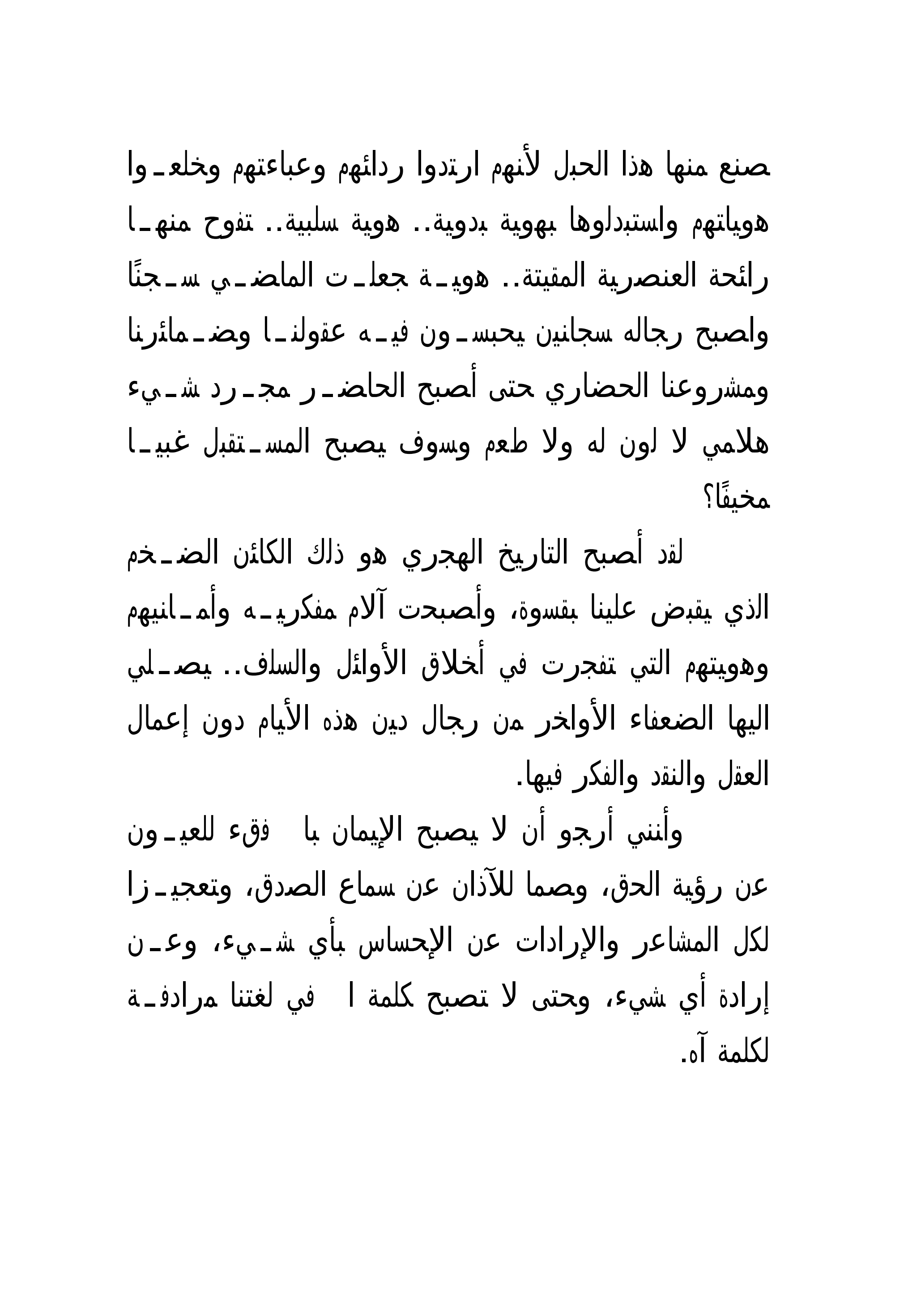
ـ إن مرجعية هؤلاء هي مرجعية دينية، رضـعت فكرها من بيئة صحراوية ذات هوية قاتلة لقيم الدين نفسـه، فكيف تتحول إلى مرجعية مدنية تقيم حضارة مدنيـة هـدفها سعادة الإنسان واحترام مشروعها الحضاري؟

ـ إن التجربة التركية وبعد مرور ٩٠ عامـا علـى قيامها رغم علمانيتها لم تستطع حتى الآن أن تقدم للإنسـان

فيها التطور الحضاري المنشود، فاذا قسناها علـى تجربـة ماليزيا التي بدأت في الثمانينات وكانت دولة إسلامية فقيـرة لوجدنا أن ماليزيا سبقت بتجربتهـا الديمقراطيـة التجربـة التركية وفي سنوات تُعد على الأصابع رغم الفارق الهائـل لصالح الإمكانيات التركية وقربها من صناع الحضارة!!

ـ إذا كان الإسلاميون يعتبرون أن تغيير المـذاهب والانتقال من مذهب إلى مذهب فيه شيء من الكفـر فكيـف يكون اعتبارهم لمن ينتقل من دين إلى دين؟

وبعد أكاد أجزم أن الثقافة والفكر الإسلامي المطروح على الساحة حاليا مهما قال أصحابه من كـلام معسـول لا يصلح أن يكون مرجعية صادقة لتولي مسـئولية المسـلمين وحكمهم، لأنهم حتى الآن لم يستطيعوا أن يفرقوا بين الـدين كنص وبين أصحابه، ولم يفرقـوا بـين أحـداث التـاريخ وضروراته، ولا بين المقال والمقام، ولم تستطع عقـولهم أن تفكر.. لأنهم ربطوها بعقال بدوي جعلهم مشـدودين بحبـل طويل يمتد ألف وأربعمائة عام، يقف على آخره مجموعة من الفقهاء ورواد ومفكري السلف يشدونه.. ويرخونه.. وقت ما شاءوا دون أن يكون لهم حرية التفكير حتى في المادة التـي



صنع منها هذا الحبل لأنهم ارتدوا ردائهم وعباءتهم وخلعـوا هوياتهم واستبدلوها بهوية بدوية.. هوية سلبية.. تفوح منهـا رائحة العنصرية المقيتة.. هويـة جعلـت الماضـي سـجنًا واصبح رجاله سجانين يحبسـون فيـه عقولنـا وضـمائرنا ومشروعنا الحضاري حتى أصبح الحاضـر مجـرد شـيء هلامي لا لون له ولا طعم وسوف يصبح المسـتقبل غبيـا مخيفًا؟

لقد أصبح التاريخ الهجري هو ذلك الكائن الضـخم الذي يقبض علينا بقسوة، وأصبحت آلام مفكريـه وأمـانيهم وهويتهم التي تفجرت في أخلاق الأوائل والسلف.. يصـلي اليها الضعفاء الأواخر من رجال دين هذه الأيام دون إعمال العقل والنقد والفكر فيها.

وأنني أرجو أن لا يصبح الإيمان با فقء للعيـون عن رؤية الحق، وصما للآذان عن سماع الصدق، وتعجيـزا لكل المشاعر والإرادات عن الإحساس بأي شـيء، وعـن إرادة أي شيء، وحتى لا تصبح كلمة ا في لغتنا مرادفـة لكلمة آه.

هل نحن متخلفون..؟

يقول فرويد: " أن وعيك بالقضية هو دليل إدراكـك لها وتجاوزك لحدودها " معنى هذا أننـا متخلفـون ولسـنا جهلاء، ولكننا متخلفون بالنسبة لمن؟ وما هي مظاهر التخلف أصلاً؟ وما معنى أن أكون متخلفًا؟ ولماذا وكيف؟

كلها أسئلة نريد الإجابة عليها!!

" أنا هنا أتحدث عن مصر والمصريين دون سواهم، قد يشترك معنا آخرون في التخلف ولكـن أسـباب تخلفنـا تختلف عن أسباب تخلفهم ".

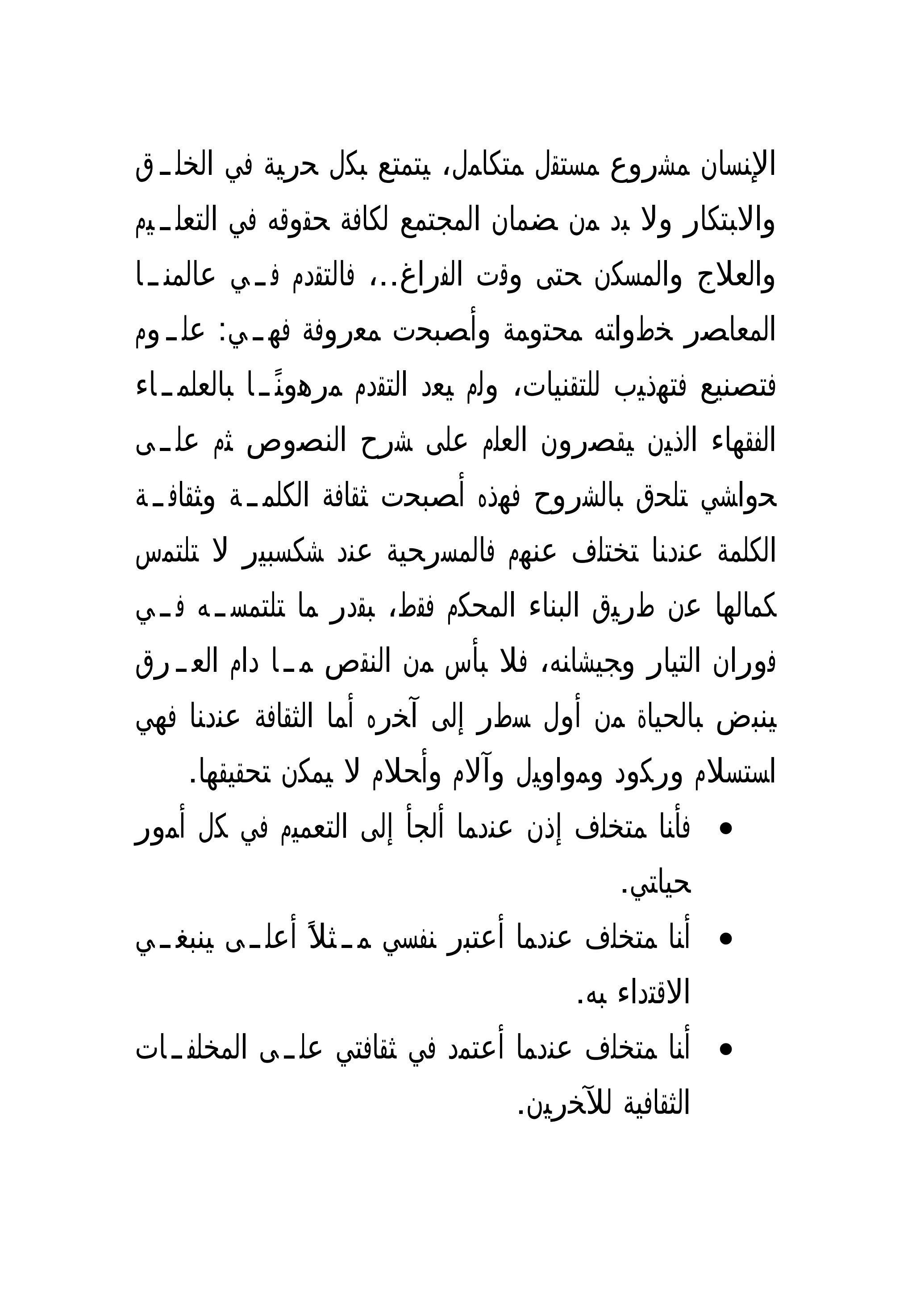
المشكلة أن التخلف قد يفسر على أنه التخلـف عـن ركب الحضارة.. هذا ما يفهم الوهلة الأولـى.. ولكـن!! إذا نحن نظرنا إلى موقعنا من العالم بدولة المتقدمة والأقل تقدما، والنامية والأقل نموا، بل إذا نظرنا إلى دول تركب الأفيـال ودول تصنع منازلها من الصفيح وأوراق الأشجار.. سـوف نجد أننا أكثر منهم تخلفا كيف ذلك؟

ونعود إلى فرويد ليشرح العبارة من جديد فنحن نعي قضيتنا ونعلم أننا متخلفون ولكننـا لا نسـتطيع إدراك هـذا التخلف ولا نستطيع تجاوزه والعبور فوقه، إذن نحـن نعلـم ولكننا نجهل العلم في نفس الوقت، وهذا يدخلنا إلى تعريـف التخلف ذاته، وكيف أننا أكثر تخلفا من بعض القبائـل التـي يحكمها ساحر القبيلة وينظم شئونها.

تعريف التخلف:

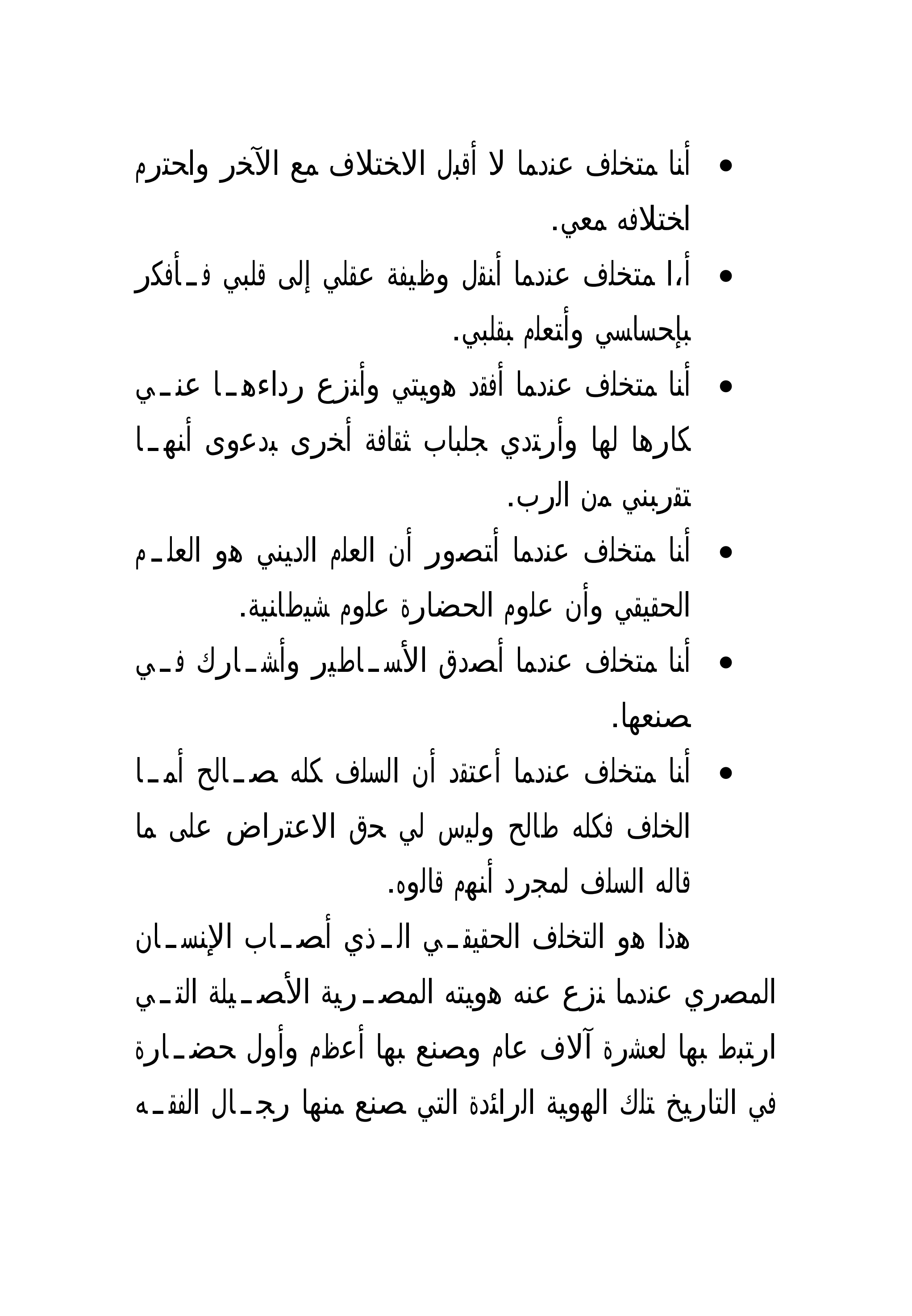
التخلف هو عكس التقدم أو هو التقهقر عن الآخرين أو الوقوف بينما يتقدم الآخرون، وكما يقاس التقـدم حاليـا بـالتطور العلمـي أو الصـناعي والزراعـي والتجـاري والاقتصادي وامتلاك أدوات الإنتاج لخدمة الإنسان في إنتاج مسببات الرفاهية للإنسان ذاته كذلك يقاس التخلف بفقدان هذه الأشياء ويمكن أن يقاس التقدم على نموذج الـدول الغربيـة ودول جنوب شرق آسيا حيث دخلـوا إلـى عـالم الفضـاء الخارجي وعالم الجينات الداخلي.

ويقاس التقدم أيضا بمدى تمتع الإنسـان فـي هـذه المجتمعات بحقوق الإنسان وتحقيق الليبرالية الكاملة في جعل



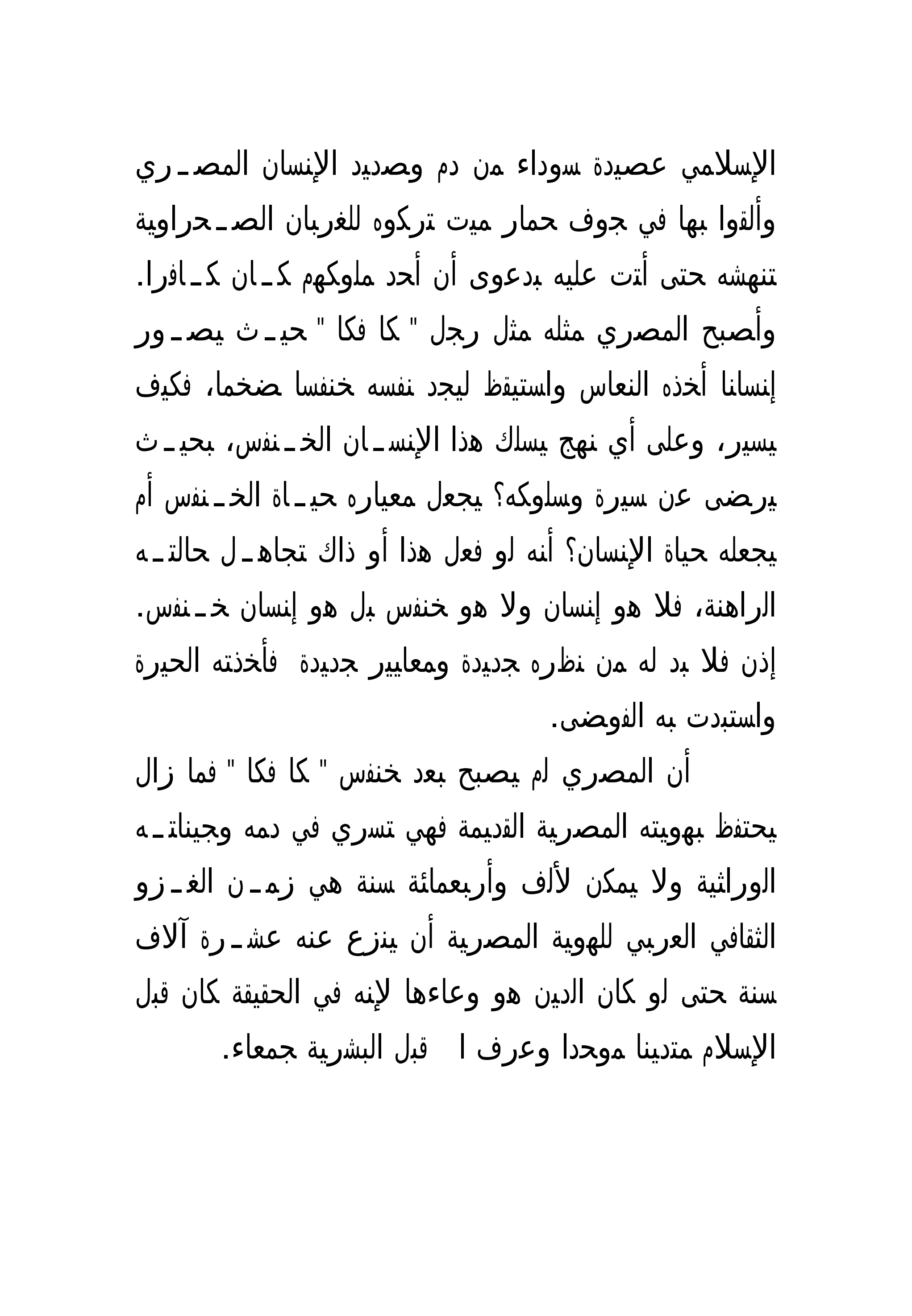
الإنسان مشروع مستقل متكامل، يتمتع بكل حرية في الخلـق والابتكار ولا بد من ضمان المجتمع لكافة حقوقه في التعلـيم والعلاج والمسكن حتى وقت الفراغ..، فالتقدم فـي عالمنـا المعاصر خطواته محتومة وأصبحت معروفة فهـي: علـوم فتصنيع فتهذيب للتقنيات، ولم يعد التقدم مرهونًـا بالعلمـاء الفقهاء الذين يقصرون العلم على شرح النصوص ثم علـى حواشي تلحق بالشروح فهذه أصبحت ثقافة الكلمـة وثقافـة الكلمة عندنا تختلف عنهم فالمسرحية عند شكسبير لا تلتمس كمالها عن طريق البناء المحكم فقط، بقدر ما تلتمسـه فـي فوران التيار وجيشانه، فلا بأس من النقص مـا دام العـرق ينبض بالحياة من أول سطر إلى آخره أما الثقافة عندنا فهي استسلام وركود ومواويل وآلام وأحلام لا يمكن تحقيقها.

- فأنا متخلف إذن عندما ألجأ إلى التعميم في كل أمور حياتي.
- أنا متخلف عندما أعتبر نفسي مـثلاً أعلـى ينبغـي الاقتداء به.
- أنا متخلف عندما أعتمد في ثقافتي علـى المخلفـات الثقافية للآخرين.



- أنا متخاف عندما لا أقبل الاختلاف مع الآخر واحترم اختلافه معي.
- أ،ا متخاف عندما أنقل وظيفة عقلي إلى قلبي فـأفكر بإحساسي وأتعلم بقلبي.
- أنا متخلف عندما أفقد هويتي وأنزع رداءهـا عنـي كارها لها وأرتدي جلباب ثقافة أخرى بدعوى أنهـا تقربني من الرب.
- أنا متخلف عندما أتصور أن العلم الديني هو العلـم الحقيقي وأن علوم الحضارة علوم شيطانية.
- أنا متخلف عندما أصدق الأسـاطير وأشـارك فـي صنعها.
- أنا متخلف عندما أعتقد أن السلف كله صـالح أمـا الخلف فكله طالح وليس لي حق الاعتراض على ما قاله السلف لمجرد أنهم قالوه.

هذا هو التخلف الحقيقـي الـذي أصـاب الإنسـان المصري عندما نزع عنه هويته المصـرية الأصـيلة التـي ارتبط بها لعشرة آلاف عام وصنع بها أعظم وأول حضـارة في التاريخ تلك الهوية الرائدة التي صنع منها رجـال الفقـه



الإسلامي عصيدة سوداء من دم وصديد الإنسان المصـري وألقوا بها في جوف حمار ميت تركوه للغربان الصـحراوية تنهشه حتى أتت عليه بدعوى أن أحد ملوكهم كـان كـافرا.

وأصبح المصري مثله مثل رجل " كا فكا " حيـث يصـور إنسانا أخذه النعاس واستيقظ ليجد نفسه خنفسا ضخما، فكيف يسير، وعلى أي نهج يسلك هذا الإنسـان الخـنفس، بحيـث يرضى عن سيرة وسلوكه؟ يجعل معياره حيـاة الخـنفس أم يجعله حياة الإنسان؟ أنه لو فعل هذا أو ذاك تجاهـل حالتـه الراهنة، فلا هو إنسان ولا هو خنفس بل هو إنسان خـنفس. إذن فلا بد له من نظره جديدة ومعايير جديدة فأخذته الحيرة واستبدت به الفوضى.

أن المصري لم يصبح بعد خنفس " كا فكا " فما زال يحتفظ بهويته المصرية القديمة فهي تسري في دمه وجيناتـه الوراثية ولا يمكن لألف وأربعمائة سنة هي زمـن الغـزو الثقافي العربي للهوية المصرية أن ينزع عنه عشـرة آلاف سنة حتى لو كان الدين هو وعاءها لإنه في الحقيقة كان قبل الإسلام متدينا موحدا وعرف ا قبل البشرية جمعاء.

الحل

الحل هو ما أحاول أن أقوم به في سلسلة هذه الكتب التي أحاول فيها وأتمنى أن أنجح في رد الشيء إلى أصله، وفي إظهار الحقيقة كاملة لأن الحقيقة أم المعرفة وسواء كانت جميلة أو قبيحة فإظهارها على ما هي عليه يساعد في إعادة التربية الفكرية للمصريين وأعطى مثالاً على ذلك.

تلك القصة التي تدرس لأطفالنا في الدراسة الإعدادية وهي قصة ثلاثة من الصاحبة أصيبوا في إحدى الغزوات إصابات خطيرة وكادوا يموتون من النزيف ومن العطش وتمددوا بجوار بعضهم البعض ومر بهم أحد الصحابة فطلبوا منه الماء، فاحضره وعندما أراد أن يعطي أولهم رفض وأنكر ذاته وفضل عليه النائم بجواره وعندما ذهب للثاني فضل الثالث إنكارا للذات أيضا وعندما وصل إلى الثالث وجده قد مات وعندما عاد للثاني وجده قد مات وعندما ذهب للأول وجده قد مات أيضا.

وتلك القصة وغيرها المئات تروي عن الصحابة والتابعين وتابع التابعين تصور لنا هؤلاء وكأنهم من البشر

السوبر أو بشر أقرب إلى الملائكة رغم أن أي طفل يقرأهـا الآن سوف يعتقد أنها من الخيال العلمي.

تلك القصص التي امـتلأت بهـا وسـائل الأعـلام وشرائط الكاسيت والكتب المدرسية تضع لنا قيما زائفة غير حقيقية تؤدي بالتالي إلى قيم سلوكية سلبية بل سوف تـؤدي إلى انصراف الناس في النهاية عن الـدين لأن بشـريتي لا تسمح لي بأن أكون ملاكًا أو قديسا.

أن فكرة المثل الأعلى التي حاول الفقهـاء إضـفائها على الجيل الإسلامي الأول كان الهدف منها إعـلاء شـأن العربي الذي لم يكن له شأن يذكر بمن يجاوره من الفـرس والروم والمصريين ولأن ٩٧ % من كتاب التراث كانوا من حزام الرعي الذي يمتد من جنوب روسيا حتى المغـرب ـ عدا مصر ـ فإنهم أسهبوا في إعلاء شأن العربي ووضـعوا حوله الأساطير حتى رأينا الأعرابي يعـدل آراء الحكمـاء والإعرابية تعدل أقوال عمر بن الخطاب ورأينا كل الصفات الخيرة من شهامة ومروءة وكرم وجلد وصبر وإنكار الذات وإكرام الضيف هي صفات لا تلصق إلا بالعرب أما العجـم كما يقولون أيضا فهم أهل جبن وخسـه وبخـل وأن الأسـد

يرفض أن يعيش في بلادهم لاشتهارهم بالجبن ويكفي أنهـم أطلقوا علينا صفة العجم أي البهائم لإدراك الفـرق الشاسـع بيننا وبينهم.

ونسى هؤلاء صفات العرب التي ذكروها أيضا فـي كتبهم ونقلها لنا شعرهم (ديوان العرب) حيث البخل والغدر والهروب يوم الزحف وأكل مال اليتيم واللواط والزنى فـي المحارم والغزل في المذكر والغزوات اليومية وسبي النسـاء وقتل الأسرى وغير ذلك مما تزخر به كتبهم أيضا.

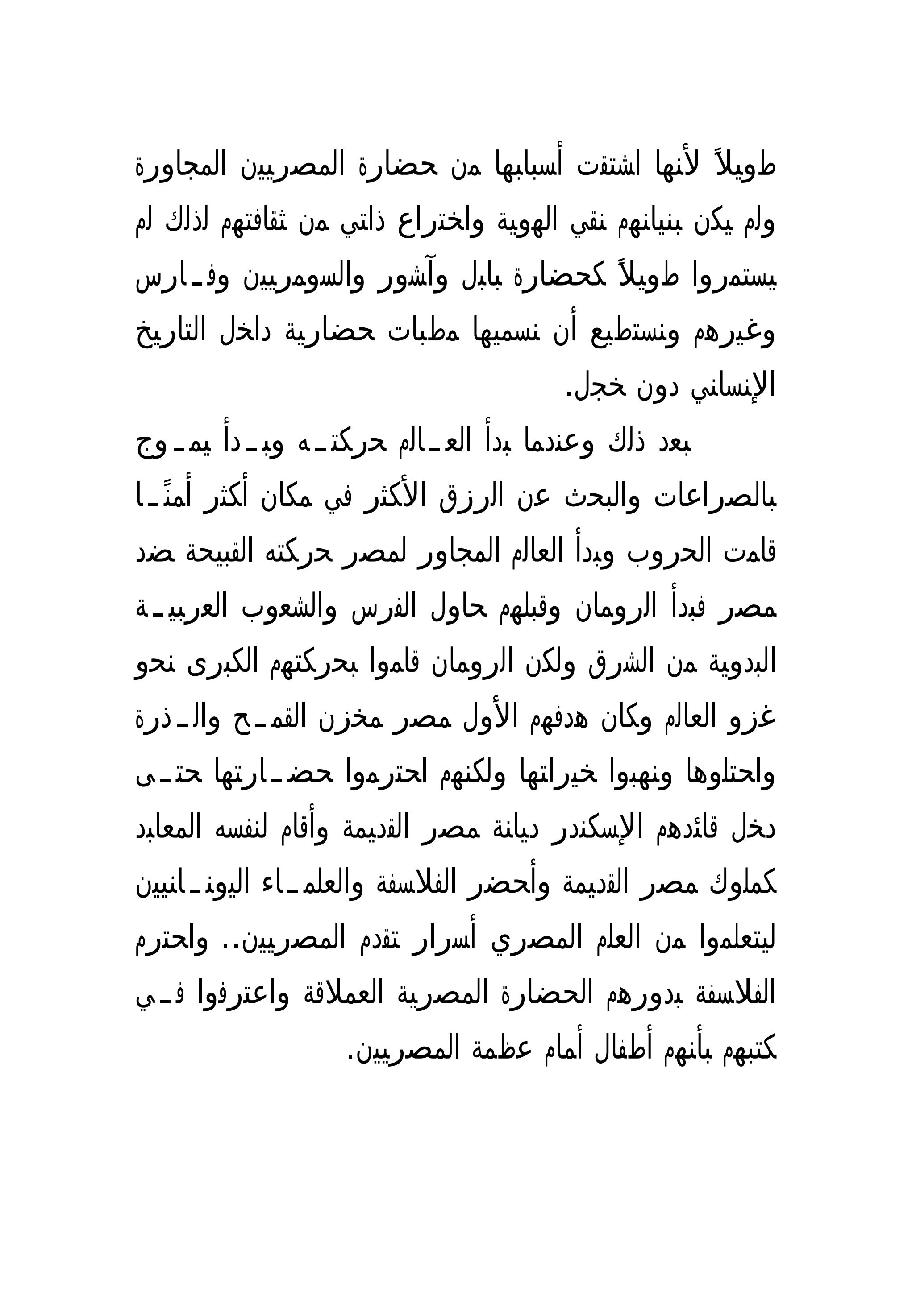
وأنت اليوم إذا قلت أمام مجموعـة مـن المثقفـين المصريين أن عمر بن خطاب وعثمان بن عفان قد هربا في غزوة أحد سيتهمونك بالكفر أما إذا قلت ذلك أمام العامة من الناس فسوف يفتكون بك رغم أنها حقيقة مسجلة في كل كتب التراث.

إن الحقيقة لا ينبغي أن تغضب أحدا فهـي الصـدق وعكسها الكذب وإذا أراد شيوخنا أن نكون من الكذابين فإننا نرفض لحرمة الكذب في الإسلام ونحن أبعد أن نوصف من الكذابين.

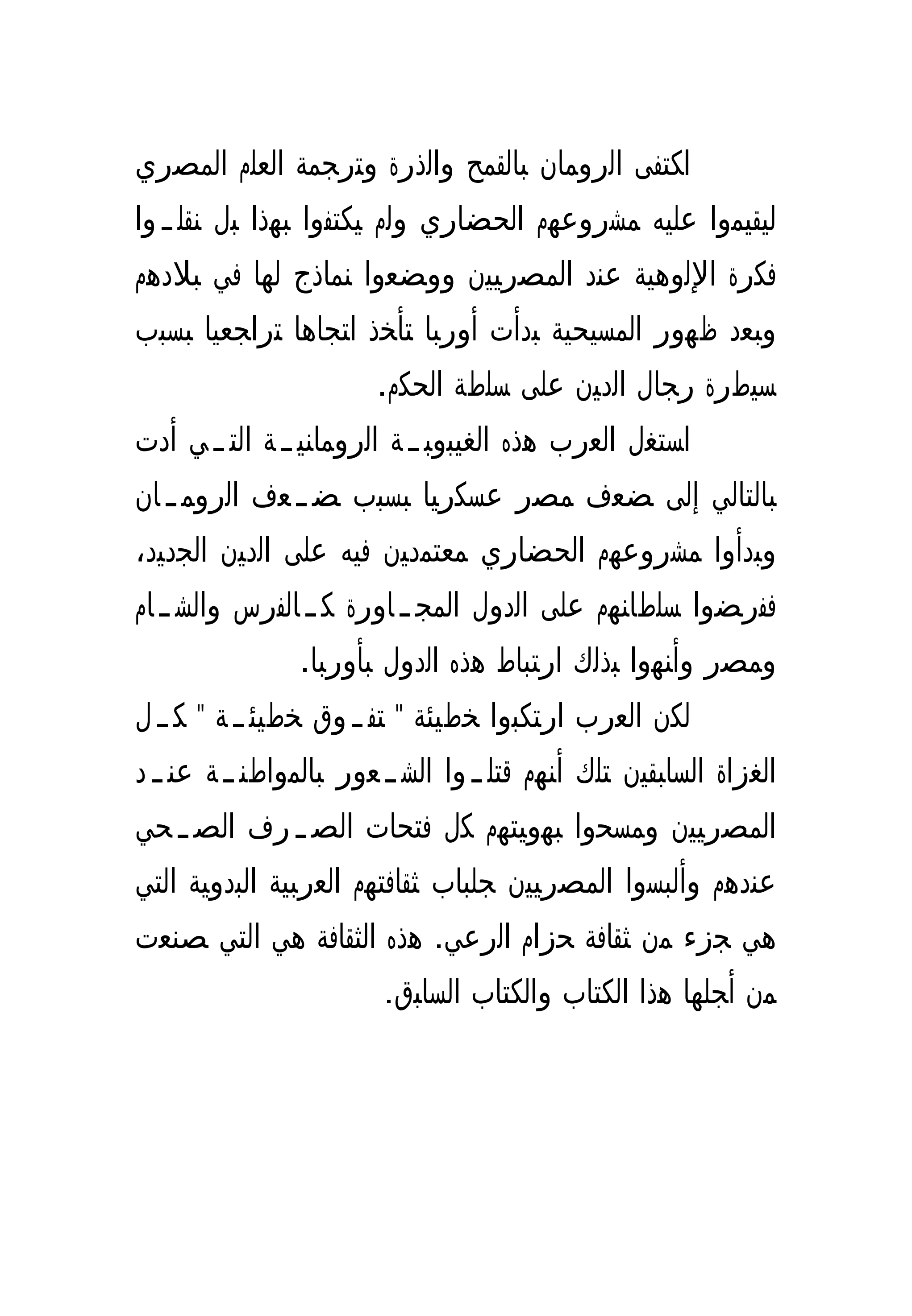
اقترابه من مجتمع العرب

أن تكون " لا تاريخيا " معناه أنك ترتكب خطيئـة " بروميثيوس " وبهذا تعيش في الخطيئة، ذلك أنـه لا يمكـن تحقيق الوعي التام بالحاضر إلا للإنسان الذي تجاوز مراحل الوعي التي ترجع إلى الماضي، وحتى لا يتهم الإنسان بأنـه مناوئ للماضي ينبغي أن يفهمه جيدا ويعي كل ما فيه علـى قدر ما يستطيع، وذلك حتى لا يؤدي بنا الوعي الحاضر إلى غرور مبعثه الوهم بأننا المحصلة الأخيرة لتـاريخ البشـرية لأن الغد سوف يتجاوزنا أيضا.

إن تاريخ البشرية طوى صفحات سعيدة وصـفحات مؤلمة ولكن الحضارات فيها كانت متداولة كتداول السـلطة الآن في الدول الديمقراطية، فقد بدأت الحضارات الحقيقيـة بمصر فصنعت وبنت وعملت وأقامت كل شيء على أسـس حضارية عالية، وكان بعيدا عنها يحاول الصـينيون إقامـة حضارتهم وأقاموها ولكن بتؤدة شديدة وإيقاع بطيء. وبينها قامت بعض المطبات الحضارية الصغيرة التـي لـم تعمـر


طويلاً لأنها اشتقت أسبابها من حضارة المصريين المجاورة ولم يكن بنيانهم نقي الهوية واختراع ذاتي من ثقافتهم لذلك لم يستمروا طويلاً كحضارة بابل وآشور والسومريين وفـارس وغيرهم ونستطيع أن نسميها مطبات حضارية داخل التاريخ الإنساني دون خجل.

بعد ذلك وعندما بدأ العـالم حركتـه وبـدأ يمـوج بالصراعات والبحث عن الرزق الأكثر في مكان أكثر أمنًـا قامت الحروب وبدأ العالم المجاور لمصر حركته القبيحة ضد مصر فبدأ الرومان وقبلهم حاول الفرس والشعوب العربيـة البدوية من الشرق ولكن الرومان قاموا بحركتهم الكبرى نحو غزو العالم وكان هدفهم الأول مصر مخزن القمـح والـذرة واحتلوها ونهبوا خيراتها ولكنهم احترموا حضـارتها حتـى دخل قائدهم الإسكندر ديانة مصر القديمة وأقام لنفسه المعابد كملوك مصر القديمة وأحضر الفلاسفة والعلمـاء اليونـانيين ليتعلموا من العلم المصري أسرار تقدم المصريين.. واحترم الفلاسفة بدورهم الحضارة المصرية العملاقة واعترفوا فـي كتبهم بأنهم أطفال أمام عظمة المصريين.



اكتفى الرومان بالقمح والذرة وترجمة العلم المصري ليقيموا عليه مشروعهم الحضاري ولم يكتفوا بهذا بل نقلـوا فكرة الإلوهية عند المصريين ووضعوا نماذج لها في بلادهم وبعد ظهور المسيحية بدأت أوربا تأخذ اتجاها تراجعيا بسبب سيطرة رجال الدين على سلطة الحكم.

استغل العرب هذه الغيبوبـة الرومانيـة التـي أدت بالتالي إلى ضعف مصر عسكريا بسبب ضـعف الرومـان وبدأوا مشروعهم الحضاري معتمدين فيه على الدين الجديد، ففرضوا سلطانهم على الدول المجـاورة كـالفرس والشـام ومصر وأنهوا بذلك ارتباط هذه الدول بأوربا.

لكن العرب ارتكبوا خطيئة " تفـوق خطيئـة " كـل الغزاة السابقين تلك أنهم قتلـوا الشـعور بالمواطنـة عنـد المصريين ومسحوا بهويتهم كل فتحات الصـرف الصـحي عندهم وألبسوا المصريين جلباب ثقافتهم العربية البدوية التي هي جزء من ثقافة حزام الرعي. هذه الثقافة هي التي صنعت من أجلها هذا الكتاب والكتاب السابق.

نقترب أكثر

إذا أردنا أن نفهم الماضي، فـلا بـد أن نعيشـه أو نترسمه أو نعيه، ونحن نفعل ذلك، أو نحاول قدر الاستطاعة، ولا سبيل لنا لذلك الولوج في الماضي إلا كتب التراث، تلـك الكتب التي ذكرت لنا تاريخ العرب في الجاهلية والإسـلام، تلك الكتب التي أخبرتنا بالدعوة الإسلامية وغزوات الرسول والخلفاء الراشدين والصحابة وزوجات الرسـول والتـابعين وتابع التابعين هي نفسها الكتب التي سـوف نوغـل معهـا لنبحث عن الحقيقة بحياد كامل بعيدا عن الهوى، وبعيدا عن نظرية المؤامرة، وبعيدا عن التضخيم والتهويل أو اصـطياد الأخطاء وإبرازها، ولكننا سنكتفي بالحقيقة والحقيقة المجردة من كل غرض، واضعين أمام أعيننا ثلاثة أشياء:

أولا: أنه قد مر على هذا الزمن ١٤٠٠ سنة ومعنى ذلـك أن الإنسان الآن اختلف كثيرا حسب التطور الطبيعـي للبشرية عن العربي القـديم بمعنـى أن المعـارف الجديدة والعلوم الحديثة والتطور التكنولوجي في كل

الميادين قـد زاده فـي الخبـرة العقليـة والنفسـية والسلوكية والاجتماعية الكثير الكثير.. ورغم ذلـك فإن علمائنا وفقهائنا ما زالـوا يعتقـدون إن إنسـان القرن الأول الهجري هو الأفضل حتـى الآن علمـا وسلوكًا وثقافة وكل شيء.. وسف نفتـرض صـدق هذه المقولة العجيبة!!

ثانيا: أنا هنا نفصل المقدس عن الثقافة المصاحبة لـه فلـن نتحدث عن القرآن الكريم الذي هو جوهر الـدين أو هو الدين فالدين هو إله وكتاب ونبي هذا مـا اتفـق عليه الجميع، أما ما عدا ذلك فهو بشري، الصـحابة والتـابعين وتـابع التـابعين والفقهـاء وزوجـاتهم والأحداث التي صاحبت الدعوة والمواقف والمواقـع والمعاهدات والسـلوكيات والأخلاقيـات والحـرف والغزو والقتل والتجارة والحكم والمؤامرات كل هذا بشري وكل من دخل هذا هم من البشـر، والبشـر يصيبون ويخطئون.

ثالثها: لقد ارتبط الإسلام بالواقع العربي منذ الوهلة الأولـى لنزول الوحي قد نتفق أو نختلف حول هذه الجدليـة

ولكن الخطاب الديني الآن يؤكد على واقعية الإسلام في إدراك الثقافة السائدة في المجتمع وقدرته علـى التعامل معها سلبا وإيجابا في محاولة مراعاة التدرج في الإصلاح والتغيير.

لكننا نختلف عندما يتجاهل الخطاب الديني الحـالي علاقة الصحابة والتابعين وتابع التابعين بواقـع الشخصـية العربية داخل الإطار الجمعي في المجتمع فيضـفي علـيهم صورة " فانتازيه " حيث يميلون إلى أسـطرتهم وينسـجون حولهم الأساطير والتمايز عن باقي أفراد المجتمع في المأكل والمشرب والملبس والصفات والسـلوك حتـى الحركـات والإيماءات.. فلا يعقل أن يلقي الصحابي بهويته البدوية على باب المسجد بمجرد إسلامه فيظهره الخطاب الديني الحـالي وكأنه رجل جاء من مجتمع غير المجتمع بسـلوك وثقافـة وأخلاق وقيم خالية من النقص.

بل لم يكتف الخطاب الديني بـذلك بـل " أسـطر " الأحداث أيضا ولقد قيلت عشرات الأساطير رواها الفقهـاء عن الجنود السماوية التي حاربت مع المجاهدين في غـزوة بدر رغم أن النص القرآني كان واضحا في عـدم إمكانيـة



رؤيتها " وجنودا لم تروها " وكذلك في باقي الأيام والمواقف الصعبة التي مرت بها مرحلة الدعوة.

ما معنى الصحة النفسية

تمثل كلمة صحة مصدر الصفة المشتقة من كلمة صحيح أي غير منقسم، والصحة تعني الوحدة وعدم الانقسام أي التكامل، والتكامل يعني العدد الصحيح أو الكمية الكاملة.

ويدخل في إطارها التوافق التام أو التكامل بين الوظائف النفسية المختلفة مع القدرة على مواجهة الأزمات النفسية العادية التي تطرأ على الإنسان، مما ينتج عنه الإحساس بالرضا والسعادة وتعمل الظروف النفسية على التوافق بين بعضها البعض وبين المرء وظروف بيئته الاجتماعية المتغيرة، توافقا يكون غايته تحقيق حاجات الإنسان والمحافظة على علاقته بالوسط الذي يعيش فيه.

والصحة النفسية هنا أيضا هي مجموع الشروط اللازم توافرها حتى يتم التوافق بين الفرد نفسه وبينه وبين العالم الخارجي توافقا يؤدي إلى أقصى ما يمكن من الكفاية والسعادة لكل من الفرد والمجتمع، ويحميها سويا عن الخروج عن السائد المألوف تجنبا لما نطلق عليه الشذوذ.

هذا هو تعريف عام للصحة النفسية رغم اختلاف المدارس النفسية عندما تدخل في تفاصيل الصحة النفسية للفرد حول مدى تكيف الفرد مع حاجاته وتقبله لنفسه وموقفه من ثقافة المجتمع الذي يعيشه ومدى تكيفه مع السلوك السائد في المجتمع بما فيه من حرف وجغرافيا ومناخ وسلوك وقيم وغيرها.

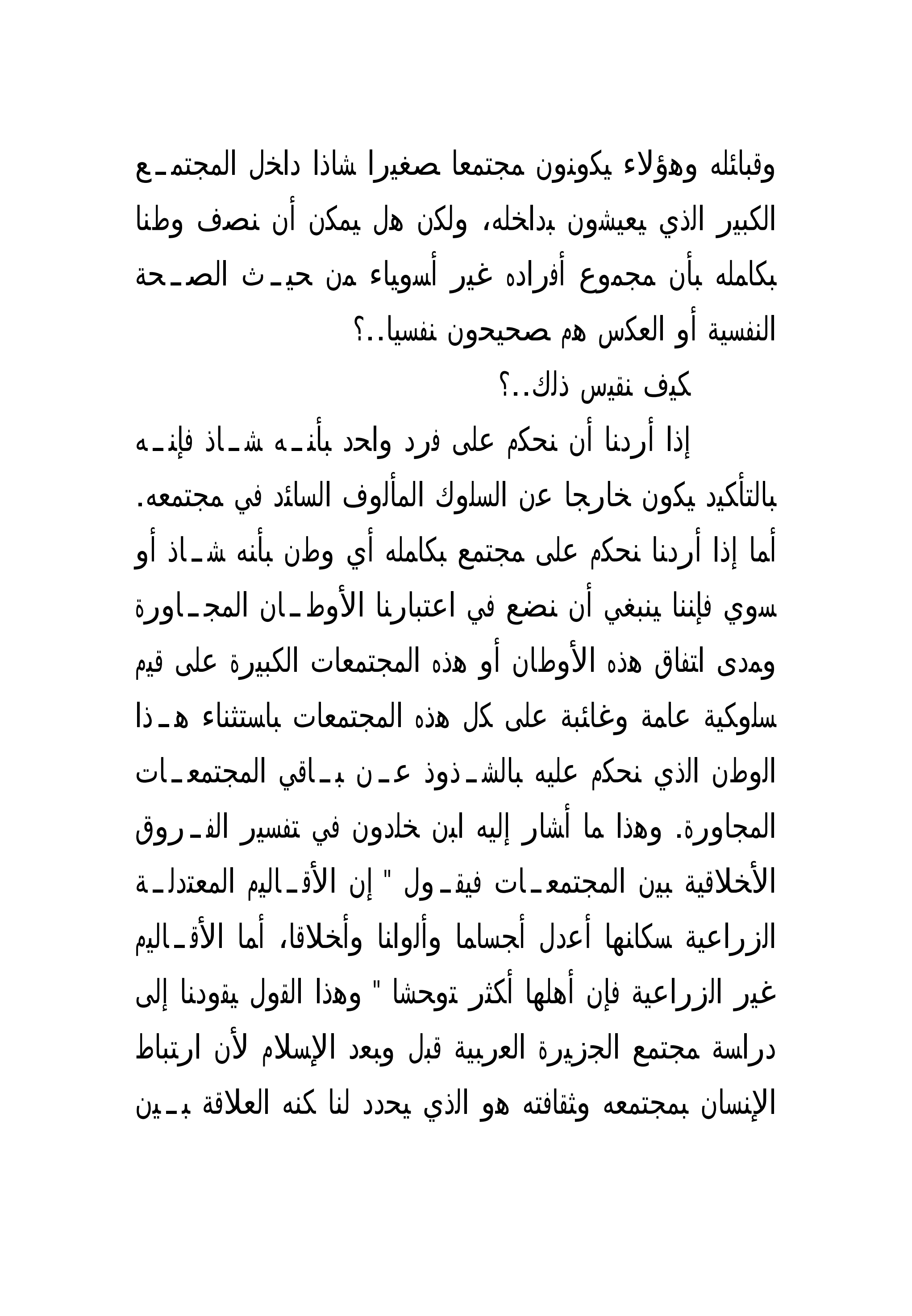
ويمكن تبسيط معنى الصحة النفسية للفرد عن كونها حاله من السواء والتوافق بين الفرد ونفسه وبينه وبين الآخرين وبينه وبين المجتمع. والشذوذ هو عكس الصحة النفسية أي عدم توافق الشخص مع نفسه ومع الآخرين ومع المجتمع الذي ينتمي إليه لكن الشذوذ له أوجه عدة فما يمكن أن نسميه شاذا في مجتمع ما قد يكون سويا في مجتمع آخر أو ثقافة أخرى مثل ثقافة الثأر مثلا فقد نجدها طبيعية في المجتمع الصحراوي أو الجبلي بينما نجدها غير سويه في أي مجتمع يتمتع بثقافة زراعية وهكذا باقي أنواع السلوك.

وإذا كان الفرد في حالة تكيفه مع نفسه ومع الآخرين ومع مجتمعه يخضع لعدة عوامل كثيرة، منها الحالة الاقتصادية والحالة الاجتماعية والحرفية والثقافية والجغرافيا

والمناخ وثقافة المجتمع نفسه ونوع التعليم وشكل الأسرة التي ينشأ فيها فإن العيوب الجسم نفسية تشكل عاملاً مهما في هذا الانسجام النفسي لصاحبها.

الصحة النفسية للمجتمع

إن ما ينطبق على فرد واحد داخل مجتمع صغير من حيث كونه صحيحا نفسيا أو شاذا ينطبق أيضا على المجتمع نفسه وغالبا بنفس الشروط والمقاييس، ولكننا نجد صعوبة شديدة في تقريب هذه الفكرة للقارئ ولكن إذا اتفقنا على أن هناك شخص سوى في أسرة معينة، أو أن هناك شخص شاذ في أسرة أخرى نقترب كثيرا من فهم ما نرمي إليه، وعلى سبيل المثال فإننا نجد في مدينة بعينها جزر منعزلة يشتهر أصحاب هذه الجزر بالشذوذ غير السوي، وقد تكون هذه الجزر في حارة صغيرة أو حي من أحياء المدينة الكبيرة نجد أهلها مختلفون عن باقي سكان الحارة أو الحي فيشتهرون بالعنف والإجرام بما لا يناسب سلوكيات باقي أفراد المجتمع الذي ينتمون إليه والأمثلة على ذلك كثيرة في كل مدن العالم



وقبائله وهؤلاء يكونون مجتمعا صغيرا شاذا داخل المجتمـع الكبير الذي يعيشون بداخله، ولكن هل يمكن أن نصف وطنا بكامله بأن مجموع أفراده غير أسوياء من حيـث الصـحة النفسية أو العكس هم صحيحون نفسيا..؟

كيف نقيس ذلك..؟

إذا أردنا أن نحكم على فرد واحد بأنـه شـاذ فإنـه بالتأكيد يكون خارجا عن السلوك المألوف السائد في مجتمعه. أما إذا أردنا نحكم على مجتمع بكامله أي وطن بأنه شـاذ أو سوي فإننا ينبغي أن نضع في اعتبارنا الأوطـان المجـاورة ومدى اتفاق هذه الأوطان أو هذه المجتمعات الكبيرة على قيم سلوكية عامة وغالبة على كل هذه المجتمعات باستثناء هـذا الوطن الذي نحكم عليه بالشـذوذ عـن بـاقي المجتمعـات المجاورة. وهذا ما أشار إليه ابن خلدون في تفسير الفـروق الأخلاقية بين المجتمعـات فيقـول " إن الأقـاليم المعتدلـة الزراعية سكانها أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا، أما الأقـاليم غير الزراعية فإن أهلها أكثر توحشا " وهذا القول يقودنا إلى دراسة مجتمع الجزيرة العربية قبل وبعد الإسلام لأن ارتباط الإنسان بمجتمعه وثقافته هو الذي يحدد لنا كنه العلاقة بـين

الفرد والمجتمع فإذا كان المجمتمع شاذا فإن شذوذ أحد أفراده لا يكون ملحوظا في نفس المجتمع بينما لو أخذنا هذا الفـرد في مجتمع أكثر صحة فإننا نجده كامل الشذوذ وكذلك الأمـر لو قمنا بدراسة مقارنة بين مجتمعات بعينها.

مجتمع صحابة رسول الله

إن الإنسان أي إنسان هو منتج بضم الميم وفتح التاء طبيعي لبيئته التي يعيش فيها وهو صناعة لما توفره بيئته من إنتاج، وهو من خلال هذه البيئة يكـون مخزونـه الثقـافي والمخزون الثقافي كما نعلم يشمل العادات والتقاليد والعـرف السائد في المجتمع بالإضافة إلـى الـدين والأدب والشـعر والأساطير والفنون بأنواعها واللغة حتى طريقة دفن الميـت وطريقة الأكل والملبس وطريقة تعامل أفراد المجتمـع فـي المواقف التي تواجههم وما شابه ذلك، هذا يسمى المخـزون الثقافي فإذا أضفنا الحرفة والجغرافية بما فيها مـن طبيعـة الأرض والمناخ فإن هذا كله يشكل الهوية القومية

فالهوية إذن تتكون لدى الإنسان من مخزونه الثقافي بالإضافة إلى حرفته وجغرافية المكان الذي يعيش فيه.

ولقد لاحظ العلماء أن الهوية لا تنفصل عن الإنسان بمرور الزمن مهما حدث لمجتمعه من تخلف أو تقدم وهناك اعتقاد سائد الآن يرتبط بدراسات علمية متخصصـة ليشـير على سريان الهوية داخل الجينات الوراثيـة للإنسـان وقـد أجريت هذه الدراسات على أطفال لا يتعدى سـنهم شـهورا قليلة بمعنى أنهم لم يكتسبوا بعد ثقافة المجتمع الذي يعيشـون فيه. فلوحظ أن هؤلاء الأطفـال يتعـاملون مـع المواقـف السلوكية مثل الكبار تماما. وبدون أبحاث علمية فإن ارتبـاط الهوية بالإنسان هو ارتباط دائم يستمر إلى آلاف السنين وكما قال أحدهم عن المصريين القدماء " إنك إذا وضعت الإنسان المصري مع هويته داخل صندوق من البازلت آلاف السنين فإنه يعجن بهذه الهوية ويتحد معها اتحادا لا ينفصل ".

وهذا تدركه أيضا دول الخليج التي أصابتها الطفـرة الاقتصادية فاستبدلت الخيام بالقصور والجمال بالمرسـيدس ولكنهم رغم ذلك لم يتخلوا عن هويتهم فوضعوا الخيام داخل القصور لتكون المكان المفضل لجلوسهم وسمرهم وما زالت

عاداتهم البدوية هي السائدة فـي طريقـة الأكـل والملـبس وطريقة الجلوس ووضعية النوم حتى الأواني التي يتنـاولون فيها الطعام تشبه الأواني القديمة مع الفارق إنهـا أصـبحت مصنوعة من أفخم الأنواع، كذلك لم يتخلوا عن تناولهم لأكل الجراد حتى ارتفع سعر الكيلو الواحد منه إلى ١٠٠٠ دولار بإضافة إلى تناول الزواحف وشرب لبن الإبل.

أما عن السلوك فإنه لم يتغير أيضـا خاصـة فـي المواقف الانفعالية التي تكون تلقائية فتجدهم يتصرفون كمـا كان يتصرف البدوي منذ ثلاثة آلاف سنة في نفس الموقف، ويتبع ذلك أيضا الأدب والفن والموسيقى وطريقـة الـرقص وطريقة دفن الميت ففي الشعر ما زال العرب - وهم أهـل الجزيرة العربية - يبدءون قصائد المديح بالغزل كما كـان يفعل القدماء منهم وما زال الغزل في المذكر كسابق عهده له مكانة بارزة في شعرهم ولكنه لم يعد ينشر إلا في مجـالس السمر الخاصة بهم.

ونحن إذا أردنا أن نحصي في دراسة مقارنة بين ما يفعله العربي الآن وما كان يفعله قبل الإسلام لـن تجـد أي تغيير يذكر فيما يتعلق بالهوية والمخزون الثقـافي وسـوف

يأتي الحديث عن هذا الأمر في مرحلة قادمة لكن خلاصـة القول أن العربي ما زال يمارس هويتـه حتـى الآن لأنهـا تسري في جيناته الوراثية حتى ولو انتقل إلى ثقافة أخـرى فإنه يلجأ إلى وطن يشبه وطنه الأم حيـث المنـاخ الحـار الصحراوي لذلك وجدنا بعض القبائل التـي هـاجرت إلـى مصر على سبيل المثال قد نزحت جنوبا إلى صعيد مصـر حيث المناخ الحار الصحراوي وما زالوا يكونـون جـزرا منعزلة عن فلاحي مصر ولا يتزوجون منهم أو يزوجـونهم حتى أنك تجد عشرات القرى تسمى " عزبة العرب " حيث لا يقطنها غيرهم ويمارسون فيها مخزونهم الثقافي البدوي وهذا يشبه ما حدث في القرن الأول الهجري عندما رفض عمر بن الخطاب زواج ابنته من سليمان الفارسي لأنه أعجمي رغـم أنه صحابي جليل وكان حب النبي له واضحا في قوله عنه " إنه من آل البيت " والسبب في ذلك قولهم " إن الموالي ليسوا أكفاء للعرب ".

<u>نخلص من هذا إلى شيئين:</u>

أولهما: أن الإنسان هو ابن بيئته هي التي صنعته وكونـت هويته الخاصة.

ثانيهما: إن الهوية الخاصة بأي إنسان لا يمكن أن يـتخلص منها ويظل تحت سيطرتها إلى آلاف السنين.

ومن هنا يمكن أن ننتقل على النقطة الثانيـة ونبـدأ بسؤال هو: هل يمكن القول أن صحابة رسول ا رضي ا عنهم قد تغيرت هويتهم مع نـزول الوحي ومع قربهم من رسـول ا صـلى ا عليه وسلم..!!؟؟

الإجابة ستكون بالنفي لأن الدين لا يشكل هوية لأي إنسان كان حيث أنه يدخل كعنصر صغير ضـمن عشـرات العناصر التي تشكل مخزونه الثقافي وبالتالي هويته.. ونفس الشيء يقال عن اللغة فليس كل من يتكلم العربية هو عربـي الهوية وليس كل من يتكلم الروسية هو روسي الهوية ولقـد رأينا المثل على ذلك بعد انفصـال دول الاتحـاد السـوفيتي فرأينا أن كل هوية من التي كانت خاضعة للحكم السوفيتي قد استقلت بنفسها، فرأينا أوزبكستان وطاجاكسـتان وأرمينيـا ولاتفيا وغيرها. كل هوية عادت إلى قوميتها وإلـى وطنهـا ونفس الحال رأيناه في دولة يوغوسلافيا حيث انقسمت إلـى

ثلاث هويات مستقلة شكلت ثلاث دول هي الصرب والبوسنة وكرواتيا. أما الحروب التي قامت بينهم أثناء الانفصال فكان سببها عنصري يخضع للهوية ولا يخضع للـدين والأمثلـة كثيرة على ذلك.

دراسة مقارنة بين المجتمعات الزراعية والمجتمعات الرعوية

في العالم القديم ومنذ عشرة آلاف سنة قبل الميلاد بدأت الحضارة المصرية القديمة تأخذ شكل المجتمع المدني المتحضر، وبعدها ومنذ ستة آلاف وخمسمائة سنة قبل الميلاد بدات حضارة بين النهرين وما حولها تأخذ شكل المجتمع المدني ويحاول الكتاب العرب وبعض المصريين دون علم، القول بأن الحضارة السومرية قد سبقت الحضارة المصرية وهذا قول مردود فنده مؤرخوا الحضارات في العالم القديم بل والحديث أيضا، وفي الناحية الشرقية من العالم القديم بدأت الحضارة الصينية تأخذ شكلا مدنيا كذلك قامت مجتمعات مدنية صغيرة في حوض نهر الكنج والسند في الهند وباكستان ولكنها لم تكن في شهرة الثلاث السابقة نظرا لأنها كانت محاطة بالرعاة من كل جانب فلم يسمحوا لها بالثبات والديمومة.

إذن تستطيع القول أن هناك ثلاث حضارات عظمى قامت في العصر القديم وبالترتيب من حيث الأهميـة كانـت الحضارة المصرية القديمة ثم السومرية ثم الصين، ولكننا لا نعرف الكثير عن الحضارة الصينية غير أن نموها كان بطيئا ومتأخرا عن الحضارتين السابقتين.

عادة تبدأ الحضارات بداية زراعية حول مياه الأنهار حيث وفرة الغذاء والحيوانات الأليفة والميـاه التـي تـروي الزرع بالإضافة إلى جودة المناخ وتلك الميزة الأخيرة هـي التي جعلت أنهار مصر والعراق والصين أسبق مـن أنهـار أوروبا حيث أثر المناخ البارد في تجميع السكان حولها.

أن زراعة الأرض معناهـا الاسـتيطان فـي هـذه الأرض وهذا التمركز يحتاج إلى حاجات إنسانية جديـدة لا تتوافرفى مجتمع غير مستقر. ونشأت الحاجـات الإنسـانية، تؤدي بالتالي إلى بنـاء المنـازل وصـنع أدوات الزراعـة وزراعة أصناف بعينها بعضها للإنسان والآخـر للحيـوان. وهنا تنشأ عملية التخزين للحبوب الزراعيـة ممـا يـؤدي بالضرورة إلى إنشاء صوامع الغلال ثـم طحنهـا.. وهكـذا تتجمع المساكن بجوار بعضها في عزب صغيرة حتى تـوفر

لأصحابها نوعا من الحماية ضد الغزاة وهذا المجتمع الوليـد تحدث بين أفراده بعض المشكلات الحياتيـة اليوميـة ممـا يستوجب سن القوانين ووجود رئيس لهذا البلد يحتكمون إليه وهكذا تنشأ الحياة المدنية التي نعرفها الآن.

إذن فإن حاجة الزراع للاستقرار والإنتـاج تـؤدي بالتالي إلى قيام المجتمع المدني المتحضر فتنشـأ العـادات والتقاليد والزواج والطلاق واللغة والكتابـة والفنـون وهلـم جرا.. حتى نصل إلى الجيوش والمصانع والشرطة والمـدن الكبيرة والمعابد والاستيراد والتصـدير وصـناعة السـفن التجارية والحربية وغيرها.

نشأة القيم:

أن القيم العليا تنشأ في المجتمـع الزراعـي نتيجـة تفاعل الإنسان مع من حوله داخل إطار مجتمعي متحضـر يميل إلى السلام والدعة وتلك القيم الطيبة للزراعيين تجعلهم يبحثون عن قيمة أعلى تسيطر على الجميع وتحدد تصرفاتهم وسلوكياتهم مع بعضهم البعض، ومع ظروف في البيئة التي يعيشون فيها.. فتبدأ من هنا نشاة الأديان تلك الأديـان التـي يخترعها البشر في بداية تكوين حضارتهم ليضعوا قيمهم فيها

فتصير ناموسا يسري علـى الجميـع كبيـرهم وصـغيرهم وضعيفهم وقويهم.

على أن قيم المزارع تنبع غالبا من حرفتـه وهـي الزراعة فتميل بطبيعتها إلى السلام من ناحية وإلى تأكيد قيمة العمل من ناحية أخرى، لأن الزراعة تحتاج إلى عمل دؤوب ليلا ونهارا كذلك الصناعة القائمة على الزراعة مثل الغـلال والصوامع والمطاحن والنسـيج وأدوات الحـرث والجنـي وصناعة الأخشاب والمنازل وكل هذا يـؤدي بالتـالي إلـى بروز قيمة العلم الذي يخدم كل هذه التوجهـات والحاجـات البشرية فقيم الزراع بالضرورة تكون قيما حضارية لا شـك في هذا ومن هنا رأينا أعظم حضارة في تـاريخ الإنسـانية وهي الحضارة المصرية القديمة. ولا داعي للإطالة في هـذا البحث لأنه ثابت باعتراف الجميع.

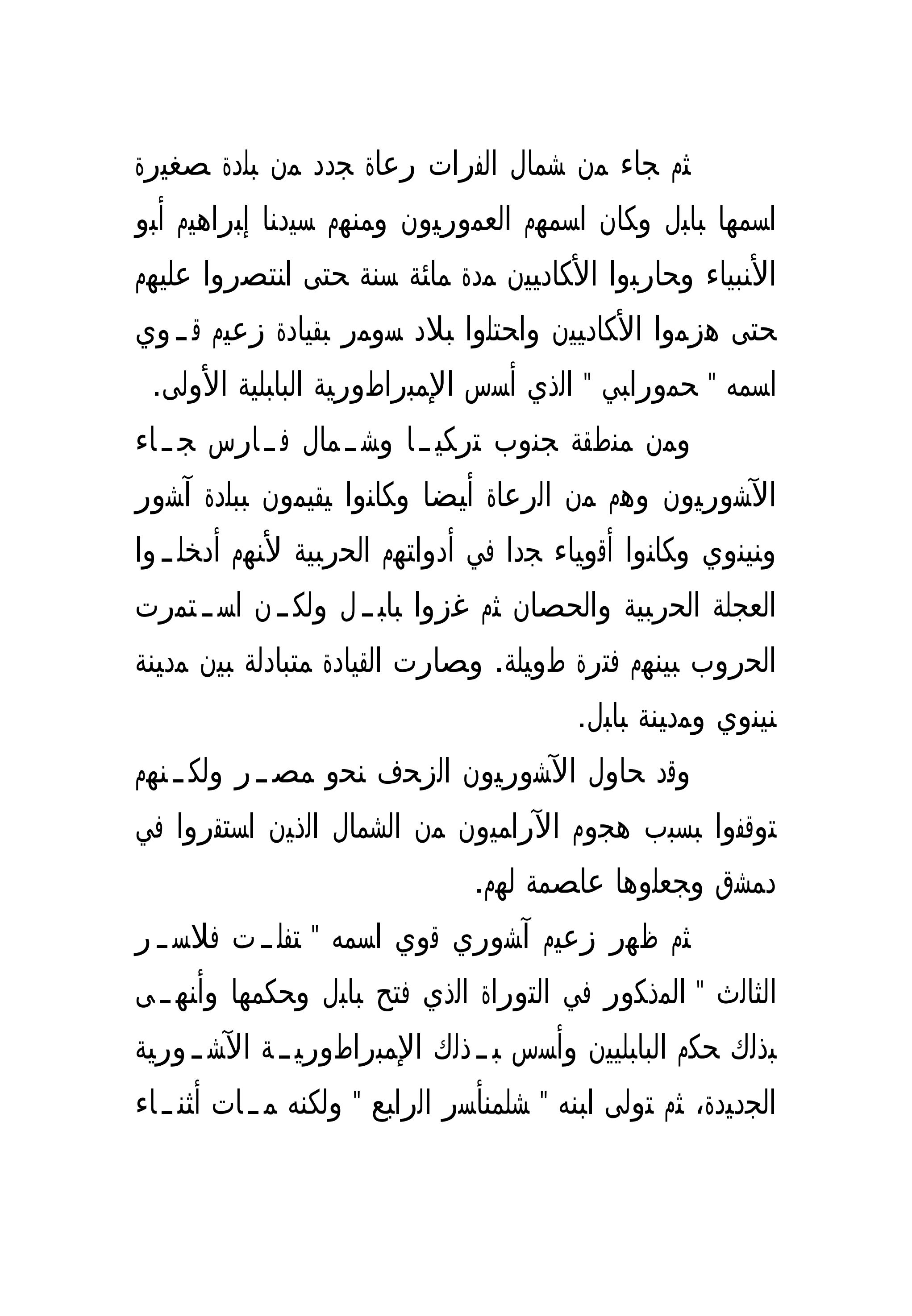
وما ينطبق على المصريين القدماء قد قام شيئا منـه عند السومريين حول دجلة والفرات وأقول شيئا منه ولـيس مثله دون مجاملة للحضارة المصرية لأن حضارة سومر كان يحيط بها الرعاة من كل جانب وقد بدأ السومريون تمركزهم الحضاري سنة ٦٥٠٠ قبل الميلاد واسـتمروا ٢٥٠٠ سـنة

دون تدخلات أجنبية أما بعد ذلك فبدأ الهجوم عليهم من كـل الجهات.

أما مصر فقد كانت محمية من الصحراء مـن كـل جانب حيث كان فيها جيشا قويا ضد الغزاة ولم يفلـح مـنهم غير الآشوريين وبعدهم الفرس ثم الرومـان فـالعرب بعـد ذلك..

الحضارة السومرية

بدأت هذه الحضارة كما قلنا سنة ٦٥٠٠ قبل الميلاد وأقاموا حضارتهم على الزراعة وبدءوا كتابة لغـتهم علـى أقراص رقيقة من الطين والشقافة تشـبه القرميـد وكانـت عاصمتهم " نيبور " وكانت لهم جيوشا للـدفاع عـن بلـدهم وتسليحهم كان حرابا طويلة وتروسا، ثم جاءهم الرعاة مـن الغرب بقيادة رجل قـوي اسـمه " سـرجون " ٢٧٥٠ ق م واحتل أراضيهم وسمى قومه الأكاديون ولم يتركوا أي لغـة لجهلهم وكانوا يعتمـدون علـى لغـة السـومريين وعلـى حضارتهم.



ثم جاء من شمال الفرات رعاة جدد من بلدة صغيرة اسمها بابل وكان اسمهم العموريون ومنهم سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء وحاربوا الأكاديين مدة مائة سنة حتى انتصروا عليهم حتى هزموا الأكاديين واحتلوا بلاد سومر بقيادة زعيم قـوي اسمه " حمورابي " الذي أسس الإمبراطورية البابلية الأولى.

ومن منطقة جنوب تركيـا وشـمال فـارس جـاء الآشوريون وهم من الرعاة أيضا وكانوا يقيمون ببلدة آشور ونينوي وكانوا أقوياء جدا في أدواتهم الحربية لأنهم أدخلـوا العجلة الحربية والحصان ثم غزوا بابـل ولكـن اسـتمرت الحروب بينهم فترة طويلة. وصارت القيادة متبادلة بين مدينة نينوي ومدينة بابل.

وقد حاول الآشوريون الزحف نحو مصـر ولكـنهم توقفوا بسبب هجوم الآراميون من الشمال الذين استقروا في دمشق وجعلوها عاصمة لهم.

ثم ظهر زعيم آشوري قوي اسمه " تفلـت فلاسـر الثالث " المذكور في التوراة الذي فتح بابل وحكمها وأنهـى بذلك حكم البابليين وأسس بـذلك الإمبراطوريـة الآشـورية الجديدة، ثم تولى ابنه " شلمنأسر الرابع " ولكنه مـات أثنـاء

حصار " السامرة " وخلفه ملك أطلق على نفسه اسما أكاديـا سومريا قديما ليتملق مشاعرهم وسمي نفسه " سرجون الثاني " ثم قاد ابنه " سنحاريب " جيوش الآشوريين لاحتلال مصر ولكن جيشه أصيب بالطاعون فمات منه ١٨٥ ألـف جنـدي وعاد إلى نينوي حيث قتله أولاده، ولكن حفيدة الذي سـمي نفسه " أشور بانيبال " احتل مصر بعض الوقت ولكـن لـم تستمر سيطرة الآشوريين حيث زحف عليهم قوم من الشمال آسيا الوسطى وجنوب بحر قزويين يسمون أنفسهم الأراميين وكانوا يتحدثون اللغة الآرية واتحد معهم بعـض الأراميـين القدماء من فارس واستولوا على " نينوي " سـنة ٦٠٦ ق. م وقضوا بذلك على الآشوريين تماما وكانوا يتألفون من قبائل رعوية شديدة البأس حربية النزعة وجعلوا عاصمتهم بابـل وأقاموا الإمبراطورية البابلية الثانية تحـت حكـم قائـدهم " نبوخذ ناصر " الملقب (بختنصر) وخلفائه حتى سـنة ٥٣٨ ق. م.

ثم انهارت دولتهم أمام هجوم الفرس بقيادة " كورش " مؤسس الدولة الفارسية ولكن الإسكندر الأكبر قضى علـى آخر ملوكهم سنة ٣٣٠ ق. م.

أرجو المعذرة:

لقد قصدت بهذا العرض الذي استعنت فيه بعده مراجع قيمة أهمها " معالم تاريخ الإنسانية " للمؤلف " هـ. ج.. ولز " وذلك لسببين:

الأول: كان السومريون هم أصل هذه الحضارة التي نشأت ما بين النهرين من دجلة والفرات وما حولهما، وكان السومريون الزراع هم الوقود لكل هذه الأمم الرعوية التي احتلت بلادهم، ويخطئ القول من يعتقد أن كل هذه الأمم الرعوية مثل الأكاديون والآشوريون والبابليون والأراميون والفرس الذين احتلوا الشعب السومري هم أمم متحضرة ولكنهم عاشوا على أكتاف أصحاب الحضارة الحقيقية وهم السومريون الزراع فالعلوم والفنون والكتابة والصناعة كانت كلها من إبداعهم واستغلها الرعاة في نسبها إليهم..

الثاني: أن كثير من كتاب حزام الرعي والعرب وحتى بعض الكتاب المصريين الذي لا يكلفون أنفسهم قراءة متأنية للتاريخ يشيدون بالرعاة وينسبون إليهم

حضارات ليست ملكهم فيقولون الحضارة الآشـورية والحضارة البابلية الأكادية والآرامية وغيرهـا دون وعي منهم بحقيقة الصناع الحقيقيين للحضارة وهـم السومريين وهذه مغالطة كبرى ينبغي تداركها.

وشبيه بهذا ما حدث في مصر من هجـوم للرعـاة الآشوريين ثم الفرس ثم العرب حتى بعد احـتلال العـرب الرعاة لمصر. فقد سيطروا عليها بهجمـات متتاليـة تـزيح أحدها الدولة التي قبلها، أقصد الحكام الرعاة فجاء الأمويون ثم طردهم العباسيون ثم الفاطميون ثم الإخشيد والطولونيـون والمماليك وكانت كل دولة منها تنسب إلى نفسـها مـا هـو موجود في مصر أصلا ومن صنع وخلق وابتكـار الفـلاح المصري الذي تحمل صاغرا عنف الحكام الرعاة على مـر التاريخ.

وبهذا يمكن القول أنه لم يكن في العالم القـديم مـن حضارة حقيقية وراقية ولهـا قيمهـا العليـا سـوى ثـلاث حضارات تأتي على رأسهم مصر ثم العراق ثم الصين ومـا عدا ذلك فهم من الرعاة الغزاة.

خصائص مجتمع الوفرة:

يقول جيمس هنري برستد في كتابه فجـر الضـمير (أن المصريين أدركـوا المعنـى السـامي لقـيم الأشـياء الاجتماعية والأخلاق البعيدة عن الأنانية، مما لم ينبثق فجره على العالم من قبل وأن الذي يعرف قصة تحـول صـيادي عصر ما قبل التاريخ في غابات النيل إلى ملـوك ورجـال سياسة وعمارة ومهندسين وصناع وحكماء وأنبياء اجتماعيين في جماعة منظمة عظيمةمشيدين تلك العجائب على ضـفاف النيل في وقت كانت أوربا لا تزال تعيش في همجية العصر الحجري، ولم يكن فيها من يعلمها مدنية الماضي، من يعرف هذا يعرف قصة ظهور أول مدنية على وجه الكرة الأرضية ستحمل في ثناياها أعظم القيم الخلقية ".

لقد برزت سلطة الضمير عند المصري القديم كأعظم سلطة تحاسبه على أفعاله قبل أن يحاسبه الإلـه لـذلك قـال المصري القديم: (إن قلب الإنسان هو إلهه، وقد كان قلبـي مرتاحا لأعمالي) وفي الدعاء الذي كان يدعو به لأبيه بعـد موته: " ليتك تعيش في الآخرة بقلب فرح وفي كنـف الإلـه

الذي فيك " لقد كان المصري يعتقد أن القلب هـو ضـميره الذي يحاسبه وجعل وظيفة القلب خاصة بالسلوك والأخـلاق والمحاسبة لكنه لم يستبدله بالعقل لأن العقل هذا له وظيفة لا تقل قدسية عن القلب فالعقل هو الذي أسس لهـذه الحضـارة العظيمة بالعلم والخلق والابتكار..

إن أول قيم خلقية دينية نزلت علـى موسـى عليـه السلام هي الوصايا العشر. وهذه الوصايا كانت قاصرة على تغطية كل الشر داخل الإنسان على سبيل المثال لـم تشـمل الكذب وهي نقيصة سلوكية فـي منتهـى الخطـورة كـان المصري يرفضها رفضا شديدا ويعتقـد أنهـا مـن ضـمن الموبقات التي سيحاسب عليها في الحيـاة الأخـرى. وقبـل موسى عليه السلام بثلاثة آلاف سنة وخمسمائة تقريبا كتـب المصري القديم وصاياه التي استقاها من آلهته وجعلهـا ٤٢ وصية بعدد الآلهة الصغار أو ما نسميهم حاليا ملائكة الـذين سيجلسون في قاعة المحكمة في الحياة الأخـرى لمحاسـبة البشر وتصنيفهم من سيدخل الجنة أو سيدخل النار.

ومن الظاهر طبعا أن هؤلاء القضاة أو الآلهة يمثلون عدد المقاطعات في مصر وقتها وهي ٤٢ مقاطعة فإذا جـاء

متوفى من مقاطعة وجد فيها قاضيا من مقاطعته على منصة المحكمة.

أما وصف هذه المحكمة فتأتي تكملـة لقـيم الخيـر والعدل والحب التي عاش فيها المصري القديم وقد وصـفها المصريون القدماء كما جاءت في البرديـات علـى نـوعين حسب تطور الديانة ففي إحداها يجلس الإلـه أوزيـر فـوق عرشه في نهاية قاعة المحكمة وخلفة الإلهتين " أنفتيس " و " إيزيس "، وقد اصطف على أحد جوانب القاعة الآلهة التسعة المعروفين بتاسوع عين شمس يرأسهم إله الشمس وهم الذين ينطقون بعد بالحكم.. أما ميـزان العـدل سـيحمله (الإلـه أنوبيس) ويقف خلفه " تحوت " كاتب الإله وفي يـده القلـم والقرطاس حتى يسجل نتيجة المحاكمة. وخلـف " تحـوت " يوجد حيوان بشع الهيئة يسمى " الملتهمة " له رأس التمساح وصدر الأسد ومؤخرة فرس البحر، ويكون متحفزا لالتهـام الروح إذا وجدت ظالمة، وفي صورة أخرى للمحكمة نجـد عدد الآلهة أو القضاة، ٤٢ قاضيا بعدد ٤٢ خطيئة يحاسـب عليها الميت ويبدأ بعد ذلك المتوفى بتبرئة نسفه مـن تلـك الخطايا واحدة واحدة. وفي استعراضنا لهذه الخطايا فإننا نجد

القيمة العليا لأخلاق المصري القديم التي سبقت كل الأديـان بل وصلت إلى العصر الحاضر حيث الاهتمام بالبيئة والقـيم السلوكية الصغيرة.

يقول المتوفى أمام المحكمة:

أني لم أقتل رجالا.

أني لم أسرق

أني لم أتلصص

أني لم أسرق امرءا ينتحب على متاعه.

ولم تكن ثروتي عظيمة إلا من ملكي الخاص

أني لم أغتصب طعاما.

أني لم أبعث الخوف

أني لم أزل الأشجار.

أني لم أنطق كذبا

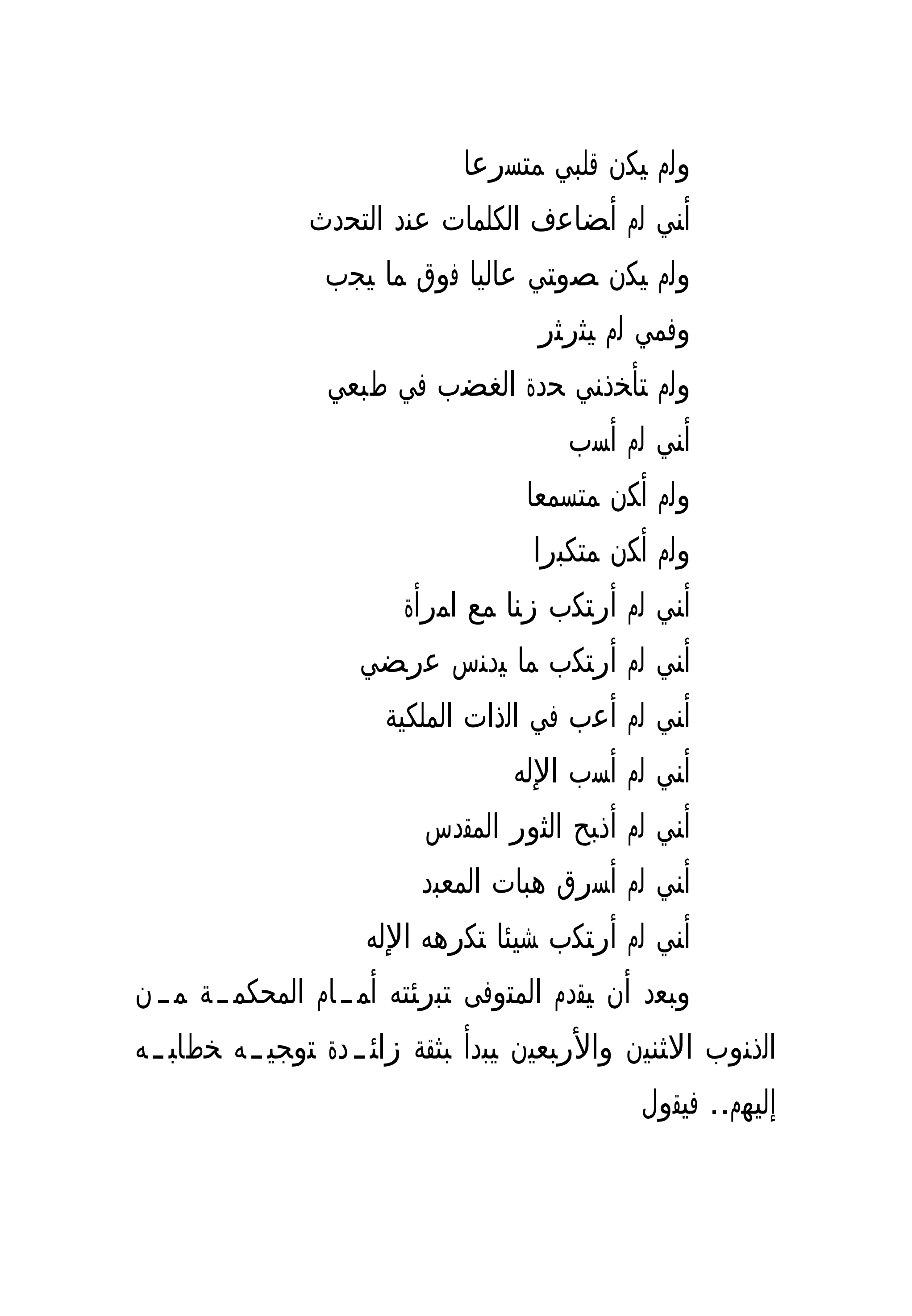
أني لم أضع الكذب مكان الصدق

ولم أكن أصوم عن كلمات الصدق

أني لم أنقص مكيال الحبوب

ولم أكن طماعا

وقلبي لم يطمع



ولم يكن قلبي متسرعا

أني لم أضاعف الكلمات عند التحدث

ولم يكن صوتي عاليا فوق ما يجب

وفمي لم يثرثر

ولم تأخذني حدة الغضب في طبعي

أني لم أسب

ولم أكن متسمعا

ولم أكن متكبرا

أني لم أرتكب زنا مع امرأة

أني لم أرتكب ما يدنس عرضي

أني لم أعب في الذات الملكية

أني لم أسب الإله

أني لم أذبح الثور المقدس

أني لم أسرق هبات المعبد

أني لم أرتكب شيئا تكرهه الإله

وبعد أن يقدم المتوفى تبرئته أمـام المحكمـة مـن الذنوب الاثنين والأربعين يبدأ بثقة زائـدة توجيـه خطابـه إليهم.. فيقول

سلام عليكم يا أيها الآلهة

أني أعرفكم وأعرف أسماءكم

وأني لن أسقط أمام أسلحتكم

لا تبلغوا عني شرا للإله العظيم الذي تتبعونه

قولوا عني الصدق أمام الرب المهيمن

لأني أقمت العدل في أرض مصر

وأني لم أسب الإله

وأن قضيتي لم تأت أمام الملك الحكم وقتئذ

سلام عليكم أيها الآلهة الذين في قاعة الصدق

والذين خلت أجسادهم من الخطيئة

والكذب والذين يعيشون على الصـدق أمـام الإلـه العظيم

انظروا أني اتيت إليكم بدون خطيئـة وبـدون شـر وبدون ذنب

أني أعيش على الحق

وأتغذى من عدالة قلبي

لقد فعلت ما يقول به الناس وما يرضى الآلهة

ولقد أرضيت الإله بما يحب

فأعطيت الجائع خبزا

والعطشان ماءا

والعريان لباسا

ولمن لا قارب له رمثا

وصنعت قربانا مقدسا للآلهة وقربانا مـن الطعـام للموتى.

فنجوني أنتم واحموني أنتم

ولا تقدموا ضدي أي شكاية للإله العظيم.

لأني إنسان طاهر الفم وطاهر اليدين

وأني من قال كل من رآه مرحبا مرحبا.

وعلينا هنا أن نلاحظ شيئين مهمين للغاية من تلـك المحاكمة أهمها في اعتقادي أن الإنسان المصري القديم بني علاقته با على مفهوم الحب وليس مفهوم الخوف مـن ا حتى أنه ليشعر ببناء علاقته با على مفهوم الحـب ولـيس مفهوم الخوف من ا حتى أنه ليشعر بأن ا يعيش داخلـه وفي قلبه. إلى أي حد إذن كـان المصـري القـديم يشـعر بالتوازن النفسي وتنامي الإحساس بالقيم السلوكية البسـيطة التي تجعل من يقابله يقول له مرحبا وكيـف هـو التكافـل

الاجتماعي بين أفراد المجتمع.. أننا بالتأكيد نقف هنـا علـى قمة الهرم الأخلاقي للعالم كله ذلك الهرم الذي يجعـل مـن سلطة الضمير إلها صغيرا يحاسب صاحبه ويعيش معه فـي كل نشاطاته.

الرعاة ـ مخزونهم الثقافي وهويتهم

تحدثنا فيما سبق عن الزراع أصـحاب الحضـارات الثلاث الأقدم في العالم وذكرنا جزءا يسيرا من قيمهم التـي انحصرت في شيئين أساسيين هما حـبهم للسـلام وولعهـم الشديد بالعلم.

أما حبهم للسلام فينطلق لتلبية حاجاتهم الحضارية في تكون مجتمع كبير يتجاور سكانه في حياة متداخلـة متصـلة يقوم أفراده فيها بتلبية احتياجاتهم، فالزراع يحتـاجون إلـى الصناع والاثنين يحتاجون إلى التجار لتسويق بضـاعة كـل منهم، وكذلك باقي الحرف حتى الجنود والشرطة والقضـاء والكهنة والحكام ومهندسي الري والزراعة كلهـم انتظمـوا داخل حركة المجتمع في سلام وأمـان ضـروريان لتنظـيم

حركتهم. أما ولعهم بالعلم فلأنـه أيضـا يلبـي احتياجـاتهم المتعددة من مسكن ومأكل وملـبس وشـق تـرع وقنـوات للزراعة ومقاومة الآفات الزراعية وصناعة آلاتهم التي توفر لهم التمتع بخيرات الأرض التي يعيشون عليها.

ويصف هذه الطبيعة من الزراع ابن خلدون وصـفا يقترب من الحقيقة إلى حد بعيد فيقول " إذا اتسـعت أحـوال الزراع وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغني والرفه دعاهم ذلك إلى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة، استكثروا من الأقوات والملابس والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر، ثم تزيد أحوال الرفـه والدعه فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التـأنق فـي علاج القوت، استجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة فـي أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلـك، ومعـلاة البيـوت والصروح والانتهاء في الصنايع في الخروج من القوة إلـى الفعل إلى غايتها فيتخذون القصور والمنازل فيجرون فيهـا المياه وهؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة وتكـون

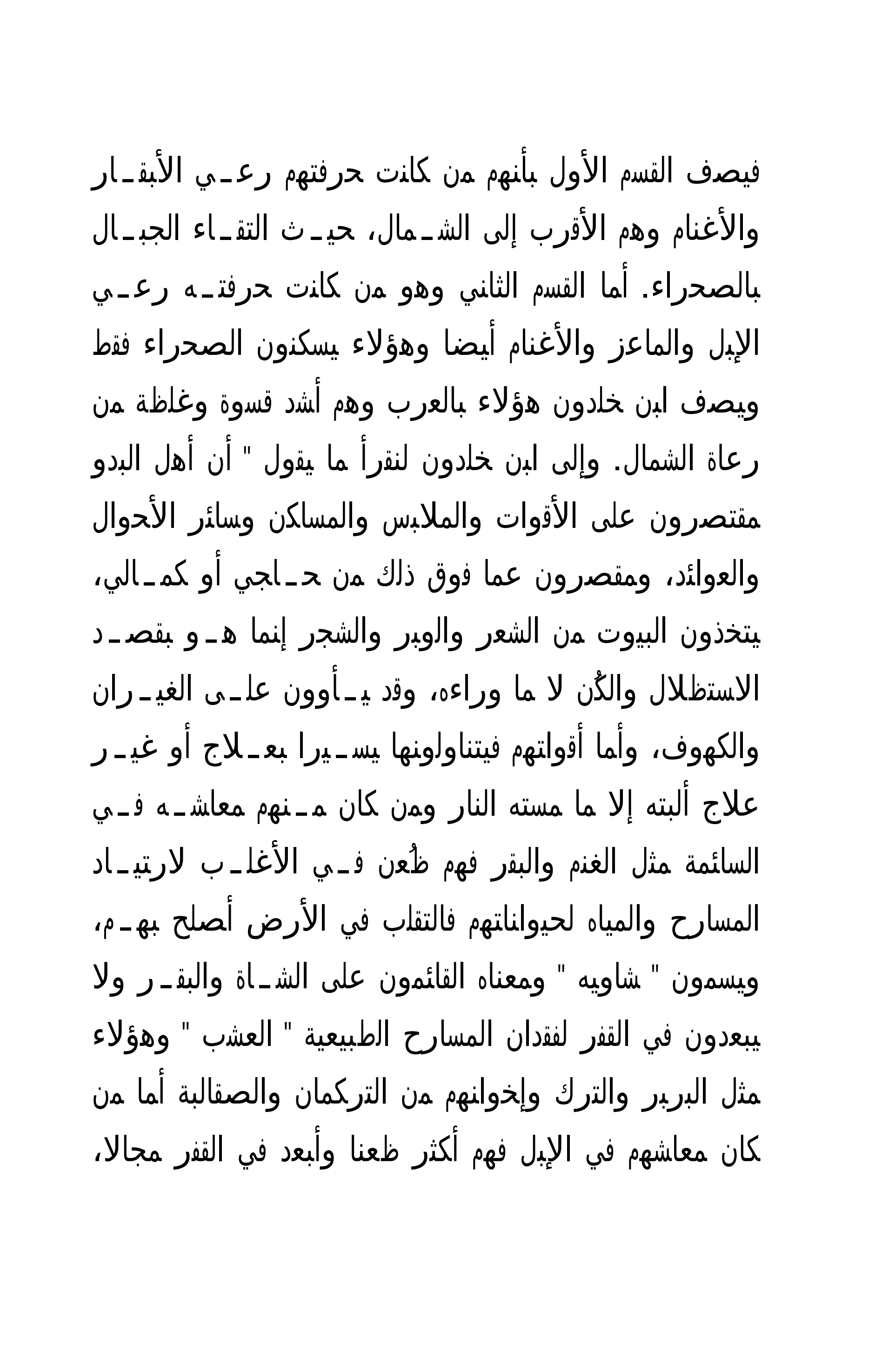
مكاسبهم أنمي وأرفه من أهل البدو لأن أحوالهم زائدة علـى الضروري ومعاشهم على نسبة وجدهم ".

انتهى كلام بن خلدون ولعله يوافقنا على مـا قلنـاه بشأن من كانت حرفتهم الزراعة...

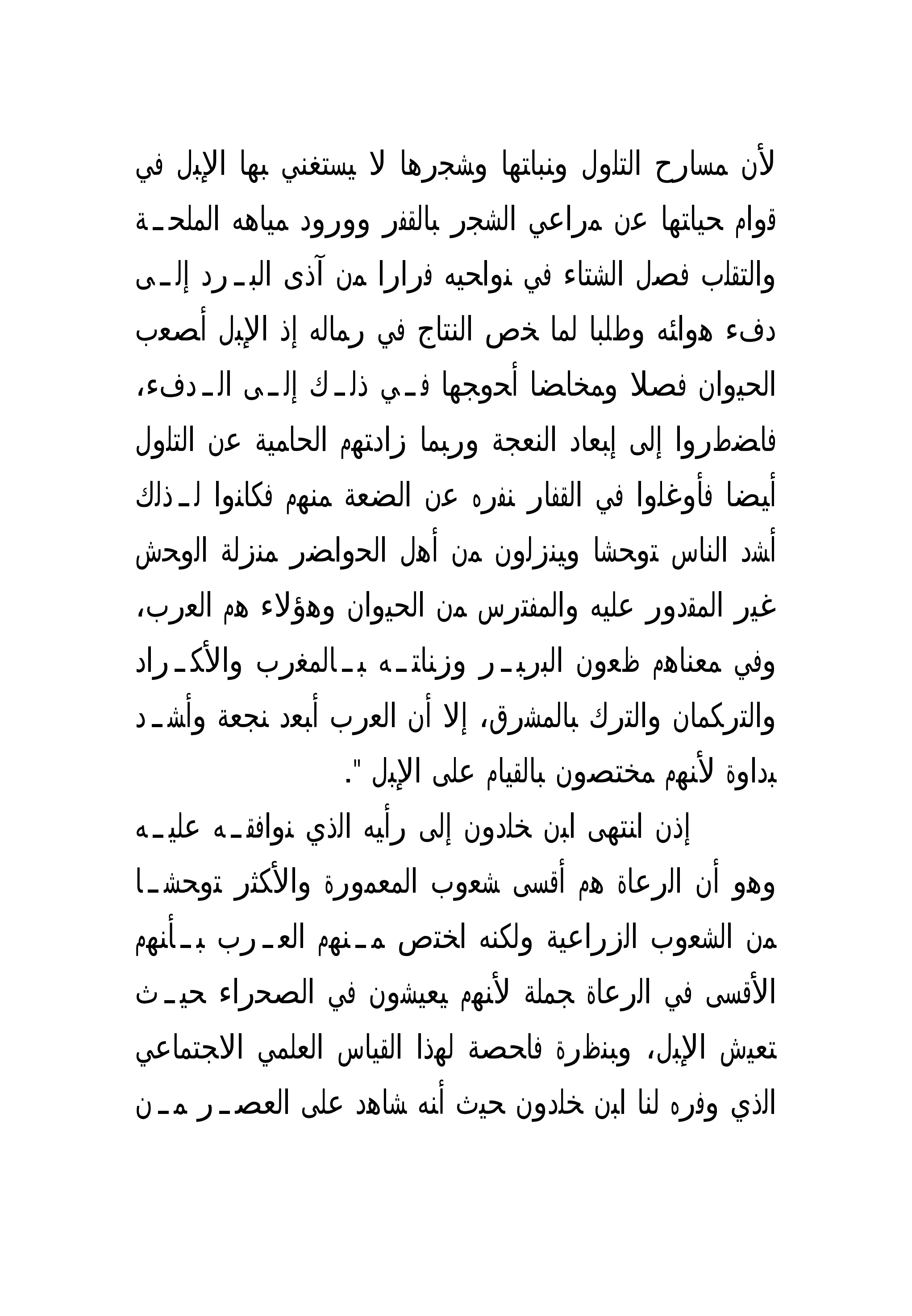
ويقسم ابن خلدون البدو إلى قسمين:

القسم الأول: يعيش في المناطق التي تجمع بـين الصـحراء والجبال مثل البربر في شمال أفريقيا وكذلك المناطق الجبلية في تركيا وجنوب الاتحـاد السـوفيتي قبـل انحلاله، وكل هذه المناطق تقع فيما يسـمى بحـزام الرعي الذي يبدأ بالصحراء الكبـرى حتـى شـمال أفريقيا وينتهي إلى حدود الصين الغربية شاملا بلاد شمال أفريقيا عدا مصر وفي آسيا الجزيرة العربيـة والأجزاء الشرقية من تركيا والبلاد المستقلة حـديثا من الاتحاد السوفيتي مرورا بإيران وأفغانستان وهذا الحزام يبدأ من مدار السرطان جنوبـا حتـى خـط عرض ٤٥ ^{o} تقريبا.

والحقيقة أن تقسيم ابن خلدون للرعاة إلى قسمين يدل على إدراك جيد وفيهم عميق لعلم الاجتماع الذي أسس لـه،



فيصف القسم الأول بأنهم من كانت حرفتهم رعـي الأبقـار والأغنام وهم الأقرب إلى الشـمال، حيـث التقـاء الجبـال بالصحراء. أما القسم الثاني وهو من كانت حرفتـه رعـي الإبل والماعز والأغنام أيضا وهؤلاء يسكنون الصحراء فقط ويصف ابن خلدون هؤلاء بالعرب وهم أشد قسوة وغلاظة من رعاة الشمال. وإلى ابن خلدون لنقرأ ما يقول " أن أهل البدو مقتصرون على الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد، ومقصرون عما فوق ذلك من حـاجي أو كمـالي، يتخذون البيوت من الشعر والوبر والشجر إنما هـو بقصـد الاستظلال والكُن لا ما وراءه، وقد يـأوون علـى الغيـران والكهوف، وأما أقواتهم فيتناولونها يسـيرا بعـلاج أو غيـر علاج ألبته إلا ما مسته النار ومن كان مـنهم معاشـه فـي السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظُعن فـي الأغلـب لارتيـاد المسارح والمياه لحيواناتهم فالتقلب في الأرض أصلح بهـم، ويسمون " شاويه " ومعناه القائمون على الشـاة والبقـر ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطبيعية " العشب " وهؤلاء مثل البربر والترك وإخوانهم من التركمان والصقالبة أما من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعنا وأبعد في القفر مجالا،


لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغني بها الإبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياهه الملحـة والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فرارا من آذى البـرد إلـى دفء هوائه وطلبا لما خص النتاج في رماله إذ الإبل أصعب الحيوان فصلا ومخاضا أحوجها فـي ذلـك إلـى الـدفء، فاضطروا إلى إبعاد النعجة وربما زادتهم الحامية عن التلول أيضا فأوغلوا في القفار نفره عن الضعة منهم فكانوا لـذلك أشد الناس توحشا وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان وهؤلاء هم العرب، وفي معناهم ظعون البربـر وزناتـه بـالمغرب والأكـراد والتركمان والترك بالمشرق، إلا أن العرب أبعد نجعة وأشـد بداوة لأنهم مختصون بالقيام على الإبل ".

إذن انتهى ابن خلدون إلى رأيه الذي نوافقـه عليـه وهو أن الرعاة هم أقسى شعوب المعمورة والأكثر توحشـا من الشعوب الزراعية ولكنه اختص مـنهم العـرب بـأنهم الأقسى في الرعاة جملة لأنهم يعيشون في الصحراء حيـث تعيش الإبل، وبنظرة فاحصة لهذا القياس العلمي الاجتماعي الذي وفره لنا ابن خلدون حيث أنه شاهد على العصـر مـن

ناحية وشاهد من أهلها أيضا.. نستطيع إذن أن نقترب أكثر من المخزون الثقافي للعرب حيث أنه يشترك مع الأرض والحرفة والمناخ في تشكيل هويته.

خصائص مجتمع الندرة..

يسمى الباحثون المجتمع البدوي بمجتمع الندرة ويقصدون بالندرة هنا قلة الغذاء، أما المجتمع الزراعي فيسمونه بمجتمع الوفرة أي وفرة الغذاء أيضا، وكما عرفنا خصائص مجتمع الوفرة الزراعي فإننا ننتقل ونقترب من المجتمع الصحراوي إذا جاز تسميته بمجتمع بالمعنى المعروف له لنعرف الخصائص القيمية لأفراده وهي على النحو التالي:

١ ـ علاقة العرب بالأرض:

العربي يترحل من مكانه إلى آخر بحثا عن العشب في الأماكن المنخفضة وسط الصحراء ليطعم بها ماشيته

وإبله ولكنه بعد أن يرحل عنها يتركها خرابا قفـرا بعـد أن يقضى على كل ما فيها من عشب أو شجر ولم يترك فيها إلا آثار النار التي كان يوقدها، فلا يوجد ولاء للعربي لـلأرض لأنه لا يعنيه منها إلا العشب الذي جاء من أجله وإنما يخضع ولاء العربي لشيخ القبيلة لأنه هو المنوط بحمايتـه وتـوفير أماكن العشب للقبيلة كلها وهو الذي يدير حركة القبيلة فـي الترحال والنزول ويحدد علاقاتها بالقبائل الأخـرى. لـذلك عندما احتلت العراق الكويت سألنا بعض أهل الكويت مـاذا ستفعلون الآن ولم يعد لكم وطن..؟ فأجابوا بثقة زائـدة أنـه ليس هناك مشكلة لأن الصباح سيشتري لنا وطن.!! الـبعض منا أعتقد أنهم يطلقون نكتة ولكن من يعلم المخزون الثقـافي للعرب يدرك أنهم كانوا جادين تماما وصادقين.

٢ـ الشجاعة وعلاقتها بالغزو:

ما زلنا مع ابن خلدون حيث يخصص فصلا كـاملا عن أن العرب أكثر شجاعة من أهل الحضر " الـزراعيين " ويخطئ القول من يعتقد أن الشجاعة كما قصدها ابن خلدون لا تعني استنفار الهمة للدفاع عـن الأرض أو العـرض أو

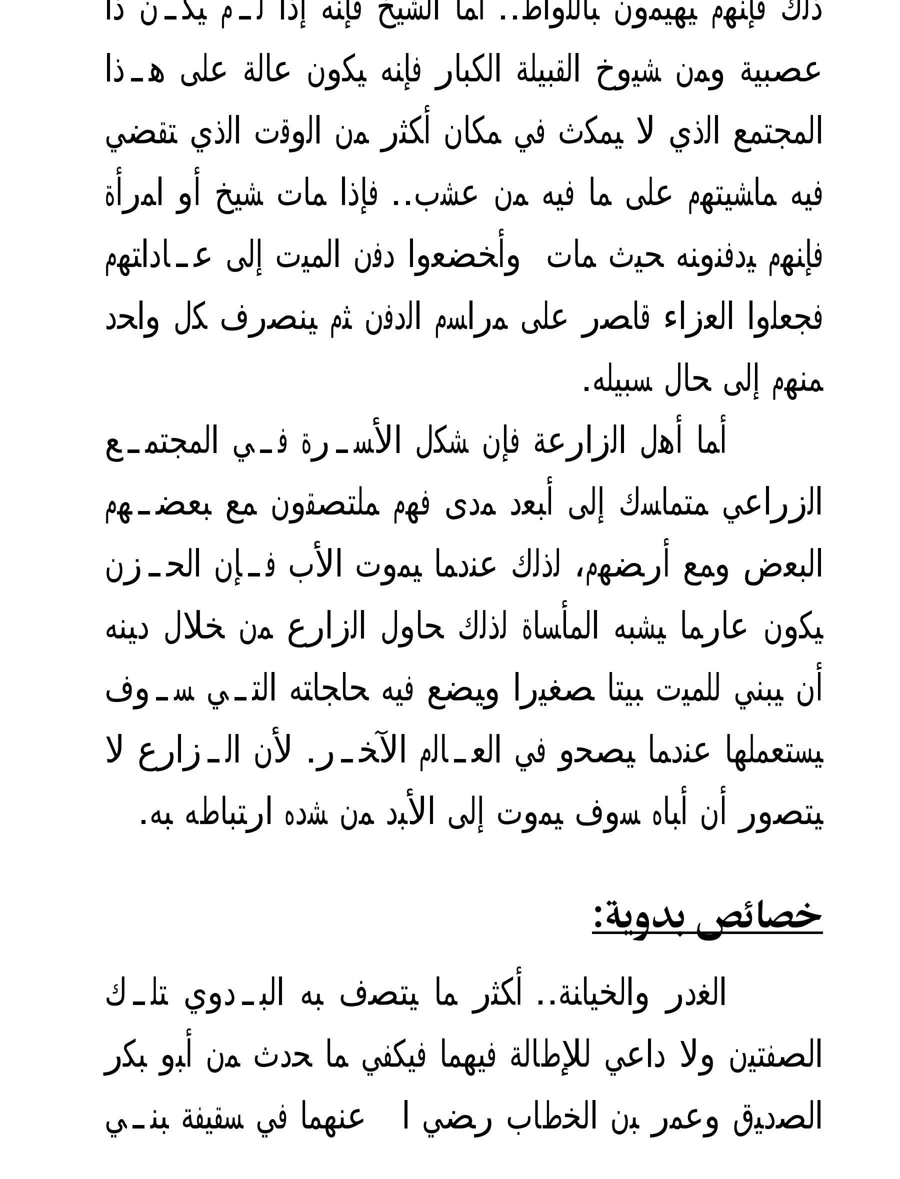
المال أو الرد على الإهانة مثل ما هو معروف عـن معنـى الشجاعة، ولكن ابن خلدون يقصد بالشجاعة هنـا التـوحش وحب الغزو والاعتداء وشتان الفرق بين هذا وذاك فالشجاعة عند أهل الزراعة هي شجاعة دفاعية تنبع من قيمهم المسالمة أما عند العرب فهي شجاعة هجومية تحمل قيم سلبية في سلم الأخلاق المتعارف عليها، وهذه المقارنة نتركها لابن خلدون أيضا فيقول عن أهل الزراعة: " أنهم ألقوا جنوبهم علي مهاد الراحة والدعة وانغمسوا في النعيم والترف ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم أنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم فهم آمنون قد ألقوا السـلاح " أما شجاعة العرب فيقول: " وأهـل البـدو لتفـردهم عـن المجتمع وتوحشهم في الضـواحي وبعـدهم عـن الحاميـة وانتباذهم عن الأسوار والأبواب، قـائمون بالمدافعـة عـن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دائما يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق، يتجافون عن الهجوع ويتوحشون للنبات والحيات ويتفردون في القفـر والبيداء مدلين ببأسهم واثقين بأنفسهم قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية " هذا الخوف من الناس ومن النبات ومـن

الحشرات والحيوان يجعل العرب في حالـة اسـتنفار دائـم وقصده بالدفاع هنا هو رد اعتداء عربي آخـر عليـه كمـا سيأتي الدور عليه ليغزوه.. ولقد أصبحت الغزوات وسـبي النساء والاستيلاء على ما تملكه القبيلة المنهزمة عرفا سائدا في هذا المجتمع والأغرب أنه يسري في جينـاتهم الوراثيـة حتى الآن في القرن الواحد والعشرين حيـث غـزا بعـض السعوديين على أهل الكويت عند فرارهم من العراقيين إلـى السعودية واستولوا على ما يملكونه من ذهـب ومجـوهرات وأموال وسيارات ونساء أيضا وعندما سألت أحد السعوديين لماذا تغزون قوما في حاجة إلى المساعدة في مصيبتهم وأنتم لست في حاجة إلى أموالهم!؟ أجابني بما لا أتوقعه قـائلا: " هذا يا أخي فولكلور مثله مثل أكل الجـراد والجـريش "..!! هذا لون من ألوان الشجاعة التي أعطاها ابن خلدون اسما لا ينطبق على الفعل نفسه فالفرق شاسع بين شـجاعة الـزارع وشجاعة الراعي، فالزارع عندما يعتدي على شبر واحد من أرضه تجده يستنفر كل شجاعته في استرداد هذا الشبر كذلك نجده مرتبط بأرضه فالأرض وطن بالنسـبة لـه لا يمكـن التفريط فيه لذلك حافظت مصر على حدودها منـذ عشـرة

آلاف سنة بينما نجد دولا عربية فرطـت فـي كثيـر مـن أراضيها ومشاكل الحدود بينها ما زالت مستمرة فقد استولت السعودية على نجران وجيزان وهناك إمارات شرق الجزيرة وعمان والصحراء الغربية بين موريتانيا والمغرب والجزائر والجمهورية الصحراوية الناشئة، والفرق نجده واضحا أيضا في مفهوم الشجاعة عند الزراع عندما رأينا فاروق الباز عالم الفضاء المصري وأكثر المصـريين تحضـرا يعـود مـن الولايات المتحدة إلى قريته في شمال الدلتا ويحمل السـلاح ليدافع عن قطعة أرض سلبها منه بعض البـدو هنـا تكمـن الشجاعة الحقيقة التي يتحلى بها الزارع فـي الـدفاع عـن أرضه.

٣ـ دفن الميت:

عند العربي فإن المرأة والشيخ " لا يتمتعان بالمكانة اللائقة في المجتمع البدوي، أما المرأة فلأنهم حولوهـا مـن إنسان كامل الأهلية إلى أنثى ولم يكتفوا بذلك فحولوها مـن أنثى إلى جسد ولم يكتفوا بذلك أيضا فحولوا الجسد إلى فرج حتى هذا الآخر لا يأتونه إلا عندما يريدون الإنجاب وما عدا



ذلك فإنهم يهيمون باللواط.. أما الشيخ فإنه إذا لم يكن ذا عصبية ومن شيوخ القبيلة الكبار فإنه يكون عالة على هذا المجتمع الذي لا يمكث في مكان أكثر من الوقت الذي تقضي فيه ماشيتهم على ما فيه من عشب.. فإذا مات شيخ أو امرأة فإنهم يدفنونه حيث مات وأخضعوا دفن الميت إلى عاداتهم فجعلوا العزاء قاصر على مراسم الدفن ثم ينصرف كل واحد منهم إلى حال سبيله.

أما أهل الزارعة فإن شكل الأسرة في المجتمع الزراعي متماسك إلى أبعد مدى فهم ملتصقون مع بعضهم البعض ومع أرضهم، لذلك عندما يموت الأب فإن الحزن يكون عارما يشبه المأساة لذلك حاول الزارع من خلال دينه أن يبني للميت بيتا صغيرا ويضع فيه حاجاته التي سوف يستعملها عندما يصحو في العالم الآخر. لأن الزارع لا يتصور أن أباه سوف يموت إلى الأبد من شده ارتباطه به.

<u>خصائص بدوية:</u>

الغدر والخيانة.. أكثر ما يتصف به البدوي تلك الصفتين ولا داعي للإطالة فيهما فيكفي ما حدث من أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي ا عنهما في سقيفة بني

ساعده واستيلاء أبو بكر الصديق رضي ا عنه بمساعدة عمر بن الخطاب رضي ا عنه في تولي الخلافة بدلا من على بن أبي طالب كرم ا وجه يوم وفاة الرسول صلى ا عليه وسلم ورفضهما الخروج في بعثة أسامة بن زيد إلى الشام انتظارا لوفاة النبي الكريم للاستيلاء على الخلافة ويكفي أيضا ما حدث في الفتنة الكبرى لنرى كمية الغدر والخيانة التي صاحبت هذه الأحداث. وإن أحداث الفتنة الكبرى تؤكد وتبرز كل الخصائص العربية السلبية بوضوح لا يراه إلا كل منافق.

إهمال العقل ورفض العلم:

ليس هناك حاجة للعربي إلى العلوم المادية مثل الكيمياء والفيزياء والرياضة فهي لن تقوم بتأدية حاجاته البسيطة كذلك أهمل العلم واعتبر العالم من الأشقياء.

حتى قال أحدهم:

أرى العقل بؤسا في المعيشة للفتى

ولا عيشة إلا ما حباك به الجهل

وقالوا أيضا " من أحيا عقله أمات نفسه " ونقلوا وظيفة العقل إلى القلب حتى قالوا " استفت قلبك " وعقلوه بعقال أي بربط حتى لا يفكر أو يبتكر.

أما العلم المادي فقد رفضوه رفضا شديدا وقالوا عنها أنها علوم شيطانية أما العلم الحقيقي فهو العلم الديني ويقول بن خلدون في ذلك " وما لم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل فأين علوم الفرس التي أمر بها عمر بن الخطاب رضي ا عنه بمحوها عند الفتح وأين علوم الكلدانيين والسريانيين وأهل بابل وأين علوم القبط ومن قبلهم وإنما وصل إلينا علوم أمة واحدة هي يونان خاصة لكاف المأمون بإخراجها بين لغتهم " وناهيك عما حدث في مكتبة الإسكندرية عندما أمر عمر بن الخطاب بإحراق كتبها لأنه لا حاجة لها فعنده القرآن الكريم وقال لعمر بن العاص في رسالة سجلها الطبري والسيوطي وابن كثير - عندما استفتاه في أمر الكتب الموجودة في مكتبة الإسكندرية - فقال عمر بن الخطاب:

(ان كان فيها ما يتفق مع كتاب ا فعندنا القرآن الكريم وأن كان فيها ما يخالف كتاب ا فلا حاجة لنا فيها

فأحرقها) فقام عمر بن العاص بتوزيع الكتب علـى ١٢٠٠ حمام بالإسكندرية وظلوا يستخدمون الكتب لمـدة ٦ شـهور لتدفئة المياه.

النفاق:

شعر العرب مليء بقصائد المدح وهذا الغرض مـن الشعر يشكل نصف الشعر العربي تقريبا ويكفي هذا للدلالـة على ذلك لأنهم كما قالوا الشعر ديوان العرب.

اللواط والاعتداء على المحرمات:

ومن ديوان العرب أيضا نجد غرضـا كبيـرا مـن أغراض الشعر وهو الغزل في المذكر وقد نشأت هذه العادة القبيحة بسبب تعدد الزوجات مما أدى إلى ندرة البنات فكثـر اللواط بدرجة أصبحت تأخذ شكلا عرفيا داخـل مجتمعـاتهم حتى أنهم يتندرون بها دون خجل حتى إن كثير عزه قد هجا صخرة كان يمارس الشذوذ خلفها مع أحد الصبيان حتـى لا تشهد عليه يوم القيامة على حد قوله وهكذا بدأت أيضا جرائم الاعتداء على المحرمات مثل الأم والأخت والعمة والخالـة

وزوجة الأب وما زالت هذه الجرائم هي الأكثر شيوعا فـي الجزيرة العربية حتى الآن وتلفزيوناتهم تذيع هـذه الجـرائم بكثرة.

- **رفض العمل اليدوي:**
-

كان العرب وما زالوا يحتقرون العمل اليدوي كمـا احتقروا من قبل العلم ويعتبرون العمل اليدوي نقيصة لا تليق بهم لذلك كان يقوم بهذا العمل الموالي والعجم كمـا كـانوا يطلقون على غير العربي.. لذلك وبعد الإسلام انتشـر هـذا المفهوم وصبغوه بصبغة إسلامية حتى أصبح المسلمون مـن غير العرب كارهين له وأن قاموا به لا يتقنونه وصار عـدم إتقان العمل سمة تميز شعوب العالم الإسلامي كله حتى أنهم يستوردون ملابسهم ومسابحهم وسجاجيد الصـلاة مـن دول أصحاب ديانات بشرية..

ونحن إذا أردنا حصر الخصائص الاجتماعية التـي تشكل قيم العربي سنحتاج إلى التوغل أكثـر فـأكثر داخـل حياتهم الخاصة وسنملأ صفحات كثيرة تشتمل علـى مئـات القيم السلبية التي ترفضها المجتمعات المتحضرة لأنها تتنافى

مع القيم العليا الإيجابية التي تحترم الإنسان وتحترم الآخـر وتحترم المجتمع والوطن والبيئة والأنهـار والنبـات حتـى الحيوان فقد كان المصري القديم يدللها ويعطف عليها لأنهـا تلبي حاجات ضرورية لديه بالإضافة إلى خاصـية الرحمـة التي كان يتحلى بها بسبب إيمان بدين يدعوا إلى كـل القـيم العليا حتى لو كان هذا الدين من اختراعه. هـذا عـن قـيم العربي التي لا نجد فيها الا كل ما هو سلبي. وإذا نحن انتقلنا إلى شعر العرب وهو ديوانهم كما يقولون الذي حـوى كـل تاريخهم وقيمهم الاجتاعية فإننا نجد توثيقا كاملا لهذه القـيم. وانظر قول الشاعر وهذا بعد الإسلام يقول ابن المعمر فـي حضرة الخليفة عبد الملك بن مروان.

فما أنكحونا طائعين بناتهم

ولكن خطبناهم بأرماحنا قسرا

فما أردنا فيها السباء مذلة

ولا كلفت خبزا ولا طبخت قدرا

أما احتقارهم للنساء ومعاملتهم لهـن كـأنهم وعـاء للرجل يسكب فيه شهوته فحدث ولا عجب إذ يقول الشاعر:

لا تأمنن على النساء ولو أخا

ما في الرجال على النساء أمين

إن إماما وأن تحفظ جهده

لا بد أن بنظرة سيخون

وقال آخر: " لا تركنن إلى النساء، ولا تثق بعهودهن فرضاؤهن جميعهن معلق بفروجهن " وقال النخعـي " مـن اقتراب الساعة طاعة النساء ومن أطاع عرسه فقـد أضـاع نفسه ".

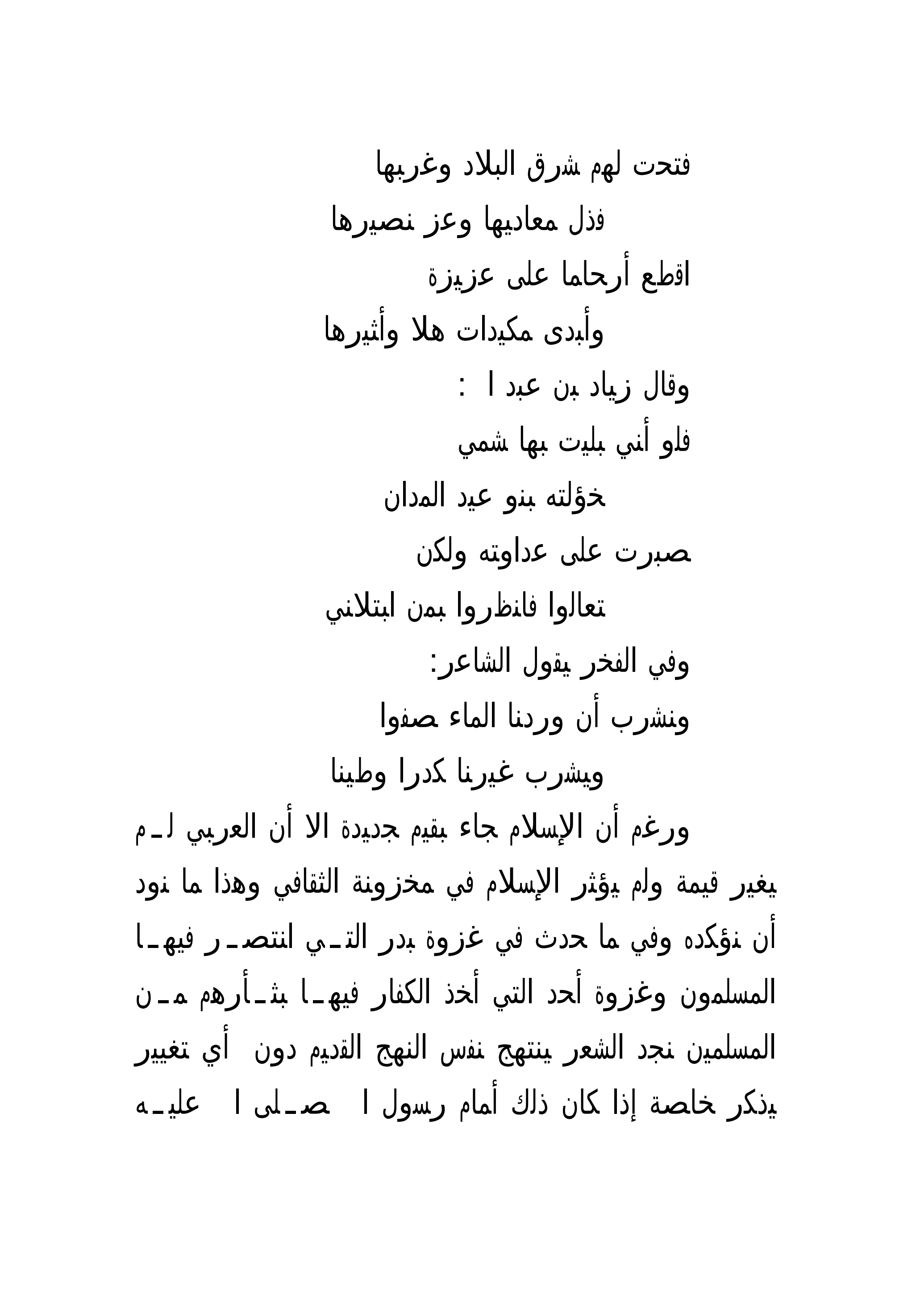
وقال حكيم " النساء شر كلهن وشر مـا فـيهن قلـة الاستغناء عنهن "

وقالوا أيضا: " النساء حبائل الشيطان "

أما عن الغدر والخيانة: فقد غدر عبد الـرحمن بـن ملجم بعلي بن أبي طالب رضي ا عنه وقتله، وعمـر بـن جرموز غدر بالزبير بن العوام وقتله، وأبـو لؤلـؤة غـلام المغيرة بن شعبة غدر بعمر بن الخطاب رضي ا عنه وقتله وجعل المنصور العهد إلى عيسى بن موسى ثـم غـدر بـه وآخره وقدم المهدي عليه فقال عيسى:

أينسى بني العباس ذبي عنهم

بسيفي ونار الحرب زاد سعيرها



فتحت لهم شرق البلاد وغربها

فذل معاديها وعز نصيرها

اقطع أرحاما على عزيزة

وأبدى مكيدات هلا وأثيرها

وقال زياد بن عبد ا :

فلو أني بليت بها شمي

خؤلته بنو عيد المدان

صبرت على عداوته ولكن

تعالوا فانظروا بمن ابتلاني

وفي الفخر يقول الشاعر:

ونشرب أن وردنا الماء صفوا

ويشرب غيرنا كدرا وطينا

ورغم أن الإسلام جاء بقيم جديدة الا أن العربي لـم يغير قيمة ولم يؤثر الإسلام في مخزونة الثقافي وهذا ما نود أن نؤكده وفي ما حدث في غزوة بدر التـي انتصـر فيهـا المسلمون وغزوة أحد التي أخذ الكفار فيهـا بثـأرهم مـن المسلمين نجد الشعر ينتهج نفس النهج القديم دون أي تغيير يذكر خاصة إذا كان ذلك أمام رسول ا صـلى ا عليـه

وسلم وبلسان شاعر الإسلام حسان بن ثابت في ذلك الوقـت ومعه كعب بن مالك وهو من صحابة رسول ا صـلى ا عليه وسلم.

يقول هبيرة بن أبي وهب وهو شاعر من كنانة التي تحالفت مع قريش في هزيمة المسلمين في أحد يقول مفتخرا.

سقنا كنانة من أطراف ذي يمن

عرض البلاد على ما كان يزجيها

قالت كنانة أنى تذهبون بنا

قلنا النخيل فأموها ومن فيها

نحن الفوارس يوم الجر من أحد

هابت معد فقلنا نحن نأتيها

وهنا يرد عليه حسان بن ثابـت يـذكره بانتصـار المسلمين في غزوة بدر.

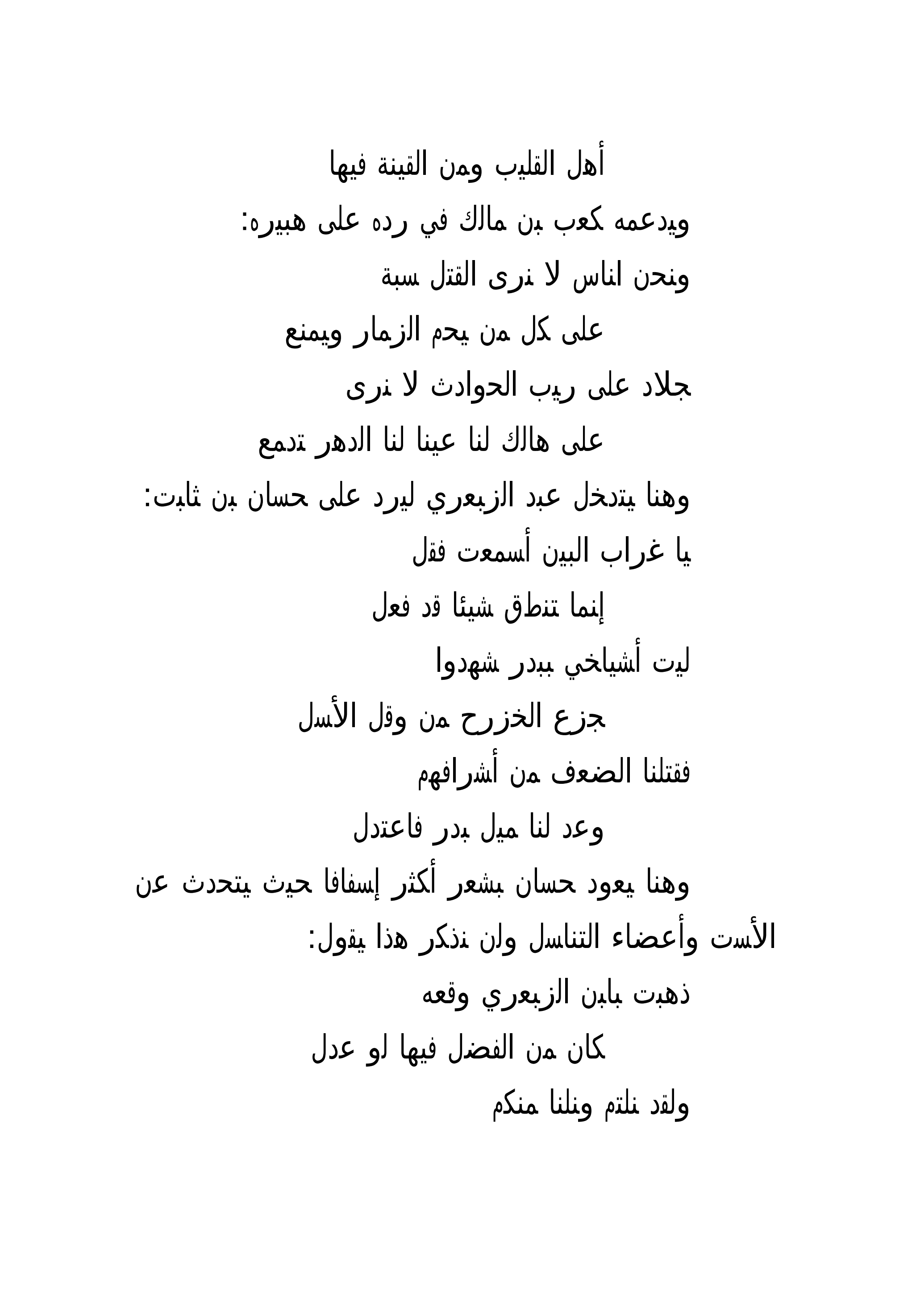
سقتم كنانة جهلا من سفاهتكم

على الرسول فجند ا مخزيها

أوردتموها حيا من الموت ضاحية

فالنار موعدها والقتل لا قيها

إلا اعتبرتم نجيل ا إذ قتلت



أهل القليب ومن القينة فيها

ويدعمه كعب بن مالك في رده على هبيره:

ونحن اناس لا نرى القتل سبة

على كل من يحم الزمار ويمنع

جلاد على ريب الحوادث لا نرى

على هالك لنا عينا لنا الدهر تدمع

وهنا يتدخل عبد الزبعري ليرد على حسان بن ثابت:

يا غراب البين أسمعت فقل

إنما تنطق شيئا قد فعل

ليت أشياخي ببدر شهدوا

جزع الخزرج من وقل الأسل

فقتلنا الضعف من أشرافهم

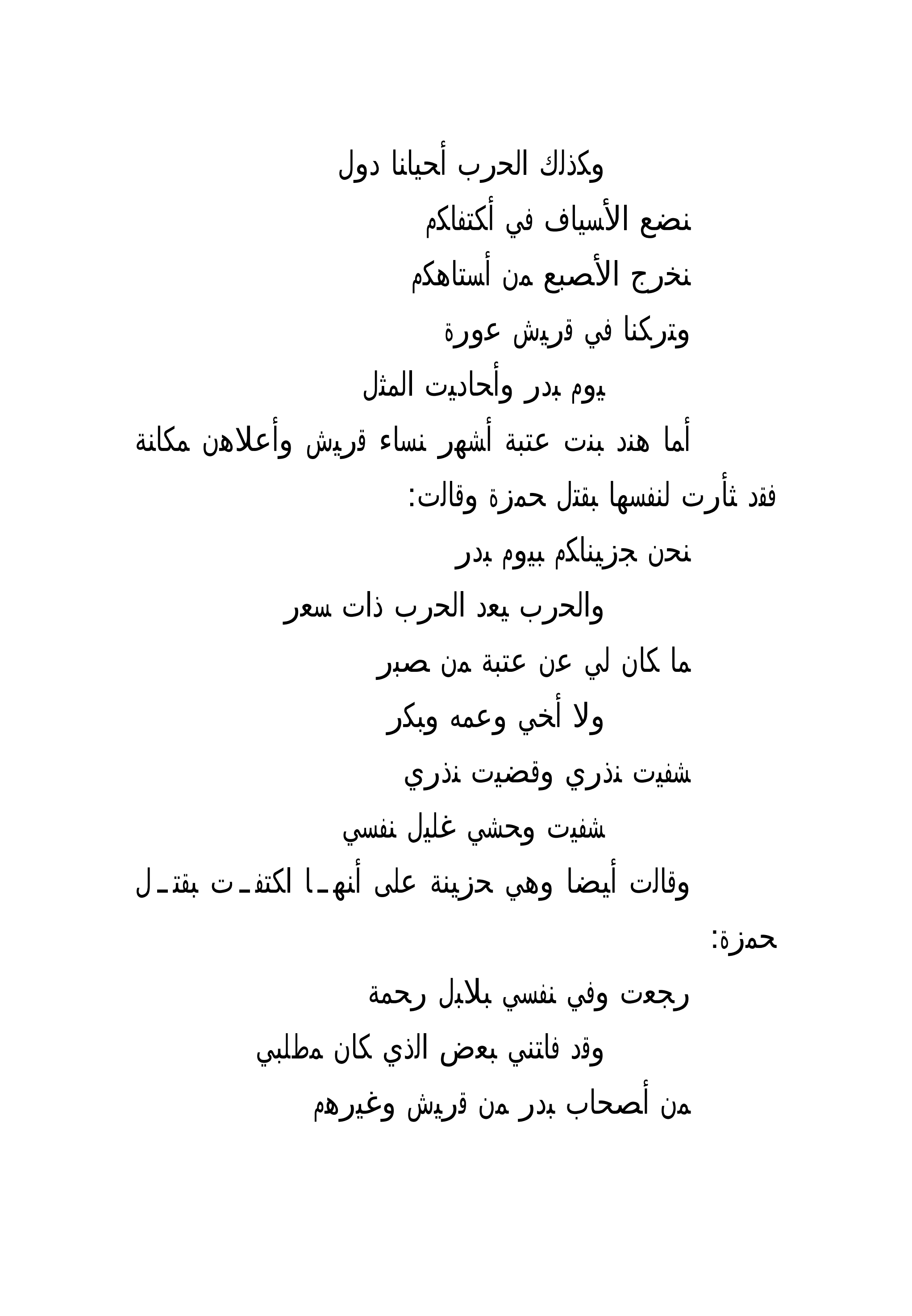
وعد لنا ميل بدر فاعتدل

وهنا يعود حسان بشعر أكثر إسفافا حيث يتحدث عن الأست وأعضاء التناسل ولن نذكر هذا يقول:

ذهبت بابن الزبعري وقعه

كان من الفضل فيها لو عدل

ولقد نلتم ونلنا منكم



وكذلك الحرب أحيانا دول

نضع الأسياف في أكتفاكم

نخرج الأصبع من أستاهكم

وتركنا في قريش عورة

يوم بدر وأحاديث المثل

أما هند بنت عتبة أشهر نساء قريش وأعلاهن مكانة فقد ثأرت لنفسها بقتل حمزة وقالت:

نحن جزيناكم بيوم بدر

والحرب بعد الحرب ذات سعر

ما كان لي عن عتبة من صبر

ولا أخي وعمه وبكر

شفيت نذري وقضيت نذري

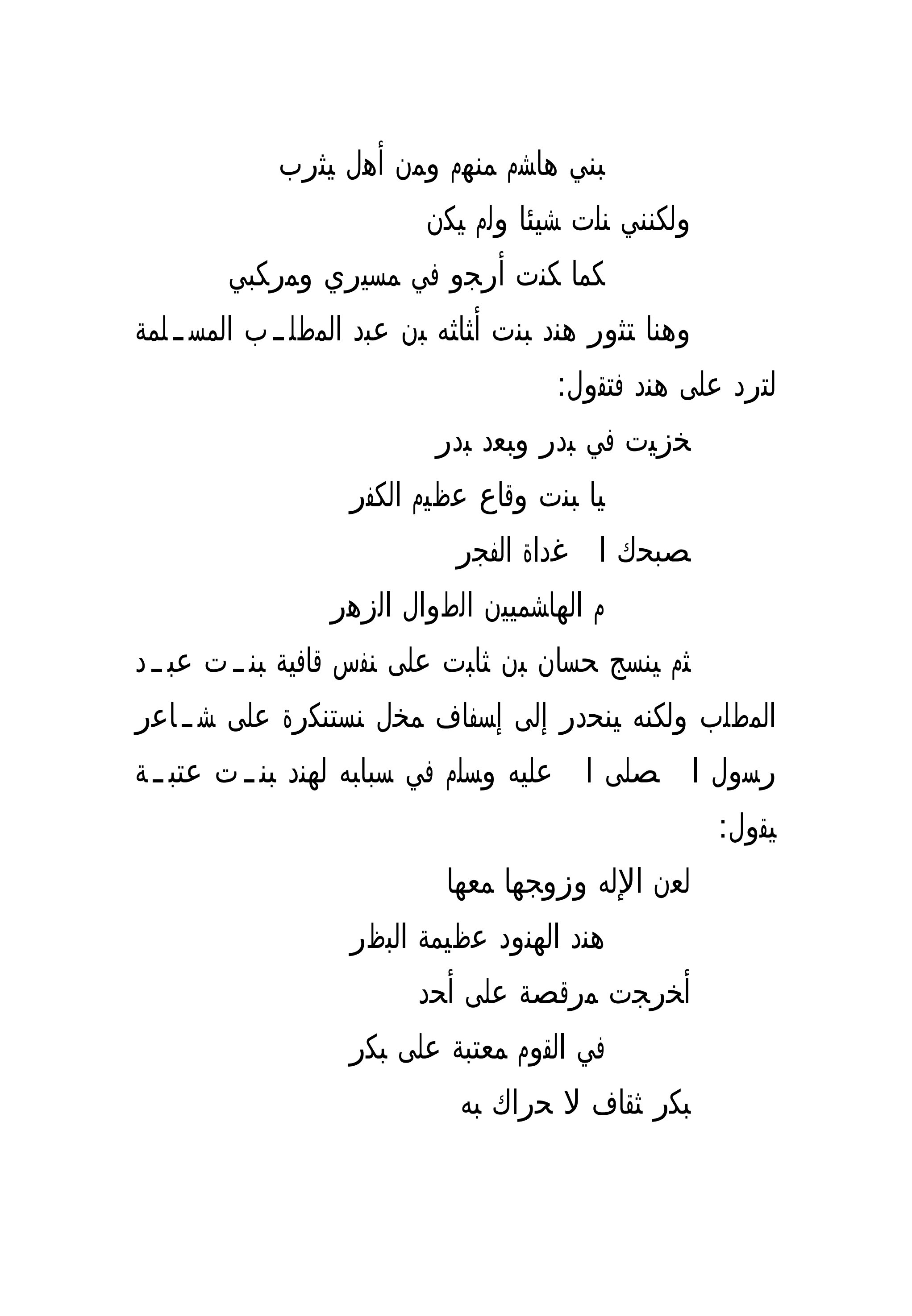
شفيت وحشي غليل نفسي

وقالت أيضا وهي حزينة على أنهـا اكتفـت بقتـل حمزة:

رجعت وفي نفسي بلابل رحمة

وقد فاتني بعض الذي كان مطلبي

من أصحاب بدر من قريش وغيرهم



بني هاشم منهم ومن أهل يثرب

ولكنني نلت شيئا ولم يكن

كما كنت أرجو في مسيري ومركبي

وهنا تثور هند بنت أثاثه بن عبد المطلب المسلمة لترد على هند فتقول:

خزيت في بدر وبعد بدر

يا بنت وقاع عظيم الكفر

صبحك ا غداة الفجر

م الهاشميين الطوال الزهر

ثم ينسج حسان بن ثابت على نفس قافية بنت عبد المطلب ولكنه ينحدر إلى إسفاف مخل نستنكرة على شاعر رسول ا صلى ا عليه وسلم في سبابه لهند بنت عتبة يقول:

لعن الإله وزوجها معها

هند الهنود عظيمة البظر

أخرجت مرقصة على أحد

في القوم معتبة على بكر

بكر ثقاف لا حراك به

لا عن معاتبة ولا زجر

وعصاك إستك تتقين بها

دقي العجاية هند بالفهر

قرحت عجيزتها ومشرجها

من دأبها نضا على الفتر

ونسيت فاحشة أتيت بها

يا هند ويحك سبة الدهر

رغم الولائد أنها ولدت

ولدا صغيرا كان من عهر



جاءت الأديان لتنظيم العلاقة بين الإنسـان وأخيـه الإنسان حتى تنتظم حركة الحياة في صالح الإنسان نفسه لأن ا سبحانه وتعالى ليس في حاجة إلى الإنسان في شيء فهو خالقه ويعرف أسراره وعبادته أو عصيانه لن يزيـد ا أو ينقص منه شيئا، ولكن خطورة العصيان أنه سوف يعود على

الإنسان الآخر بالشر وهذا ما يرفضه سبحانه وتعالى وحتـى يحمي الإنسان من إنسان آخر أكثر شـرا نزلـت الأديـان بمجموعة من القيم العليا لتنظيم هذه العلاقة منها قيم الحـب والتسامح والرحمة، وحتى يسعد الإنسان ليتمتـع بـنعم ا الكثيرة فرض عليه قيمة العلم فجعله فريضة عامة لا يمكـن إسقاطها " العلم فريضة على كل مسـلم ومسـلمة " وهـذه الفريضة لا تسقط مثل أركان الإسلام أو الأركـان الأخـرى فالحج يسقط وكذلك الصوم والصلاة والزكاة إذا لـم تتـوفر شروطها أما العلم ففريضة تقترب من فريضة التوحيد.

أما العمل فهو الضلع الآخر من فريضة العلـم لأن العلم يلبي حاجة العمل، والعمل يستفيد من اختراع العلمـاء تلك القيمة والقيم العليا الأخرى التي جاءت بها الأديان تكـاد تشابه بل تتطابق مع قيم الحضارات الثلاث القديمـة مصـر والعراق والصين لأنهم صنعوا حضاراتهم تحت مظلة هـذه القيم العليا وتكون من خلالها مخزونهم الثقافي الذي دخل في إطار الهوية المستقلة لكل حضارة على حده وسـوف نجـد تشابها كبيرا وعاملا مشتركا بجمع هذه الحضارات الـثلاث،

كما أننا سوف نجد نفس التشابه موجودا للقيم السلبية في ثقافة حزام الرعي الذي سبق الحديث عنه.

ولذلك لاحظنا أن كل الأنبياء على سبيل الحصر كانوا من الرعاة، فلا حاجة لبعثهم في قوم يتمتعون بالقيم العليا الإيجابية مثل الزراع، وكون الأنبياء قد نزلوا في قوم من الرعاة معناه ببساطة أنهم في حاجة ماسة إلى تغيير الأنماط السلوكية والقيمية التي يمارسونها.

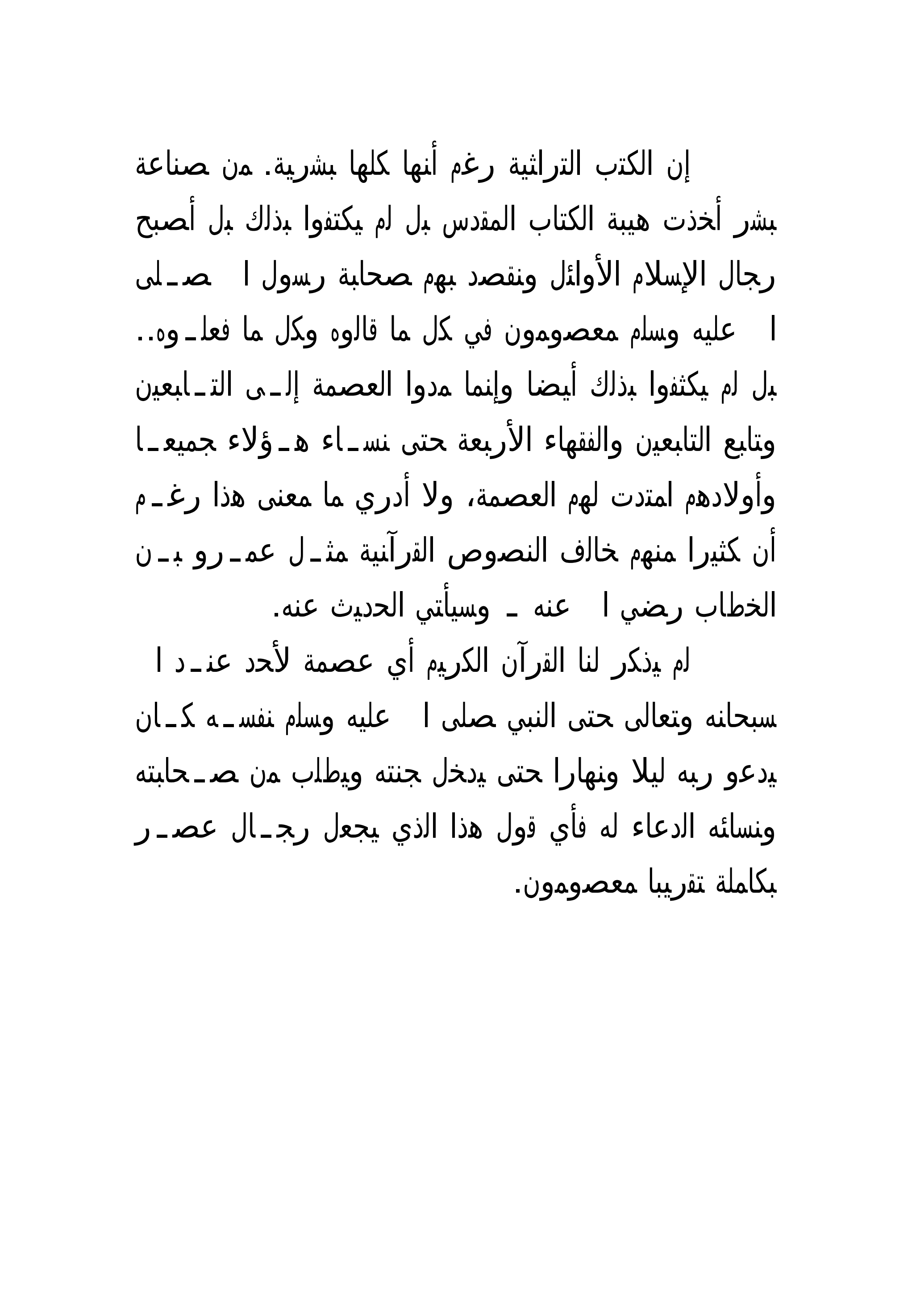
ومن هنا يمكن القول أن مجتمع الرعاة ونحن نقصد هنا العرب كانوا يتمتعون بأحط أنواع القيم السلبية الموجودة في العالم القديم وهذا بشهادة ابن خلدون نفسه كشاهد على العصر وغيره الكثيرون منهم شيخ المفسرين الطبري الذي قال قولته المشهورة " اسمع وتعجب " عندما أمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي ا عنه عمرو بن العاص بإحراق الكتب الموجودة بمكتبة الإسكندرية.

إذن نستطيع الآن بالقياس مع القيم الدينية السماوية وبالقياس مع قيم الشعوب المتحضرة الزراعية، أن العرب لم يكونوا أسوياء من الناحية النفسية بالقياس مع غيرهم من الأمم المتحضرة.

والآن نأتي إلى سؤال هام.. هل يمكـن القـول إن الدين الإسلامي قد غير وعدل تلـك القـيم السـلبية عنـد العربي..!!؟

وبالإجابة على هذا التساؤل علينا أن نقـرأ تـاريخ الإسلام قراءة جديدة، قرأه حيادية بعيدة عن النقل عن السلف دون أعمال الفكر وامتلاك ملكة النقد لأحداث التاريخ التـي تناولها رجال الثقافة الإسلامية السابقون واللاحقـون الـذين شوهوا التاريخ ولم ينقلوا منه الا كل ما هو يعلي من شـأن العربي ويجعله مثلا أعلى يحتذي وخلقوا ثوابـت جامـدة لا يمكن الاقتراب منها.

وأني لأتعجب من أكاذيب هؤلاء الناقلين لفكر السلف لأن السلف قد كتبوا كل شيء الحسنات والسيئات الإيجـابي والسلبي وأدانوا كبار الصحابة وأيدوا بعضهم في المواقـف المختلفة ولم يجعلوا منهم أساطيرا وقصصا ندرسها لأطفالنا ومعظمها للأسف قصص إذا عرضناها على عقولنا لن نجـد لها مكانا للتصديق لأن سيادة التراث الكتابي أخـذت قدسـية تقترب من كتاب ا رغم أن ما فيها أحيانا قد لا يتفـق مـع كتاب ا .



إن الكتب التراثية رغم أنها كلها بشرية. من صناعة بشر أخذت هيبة الكتاب المقدس بل لم يكتفوا بذلك بل أصبح رجال الإسلام الأوائل ونقصد بهم صحابة رسول ا صـلى ا عليه وسلم معصومون في كل ما قالوه وكل ما فعلـوه.. بل لم يكتفوا بذلك أيضا وإنما مدوا العصمة إلـى التـابعين وتابع التابعين والفقهاء الأربعة حتى نسـاء هـؤلاء جميعـا وأولادهم امتدت لهم العصمة، ولا أدري ما معنى هذا رغـم أن كثيرا منهم خالف النصوص القرآنية مثـل عمـرو بـن الخطاب رضي ا عنه ـ وسيأتي الحديث عنه.

لم يذكر لنا القرآن الكريم أي عصمة لأحد عنـد ا سبحانه وتعالى حتى النبي صلى ا عليه وسلم نفسـه كـان يدعو ربه ليلا ونهارا حتى يدخل جنته ويطلب من صـحابته ونسائه الدعاء له فأي قول هذا الذي يجعل رجـال عصـر بكاملة تقريبا معصومون.

عصمة الصحابة

من الأحاديث المنسوبة إلى رسول ا صلى ا عليه وسلم ويصدقه الكثيرون قوله ـ " أصحابي كـالنجوم بـأيهم اقتديتم اهتديتم " هذا الحديث علق عليه المحـدث المعاصـر محمد ناصر الدين الألباني بقوله أنه موضوع، وقال فيه قديما ابن عبد البر: " هذا إسناد لا تقوم به حجة "، وقال عنه ابـن حزم. " هذه رواية ساقطة ".

وتنقسم الحجية المرجعية للصاحبة إلى قسمين: قسـم يتعلق بعلم الحديث وقسم يتعلق بعلم الفقه..

ومرجعية الصحابي في علم الحـديث تتمثـل فـي روايته عن رسول ا صلى ا عليه وسلم. ويرى الفقهاء أن الصحابة كلهم عدول وهذا عند علمـاء الحـديث والجـرح والتعديل رغم اعتراف هؤلاء العلمـاء بتعلـق بعضـهم أي الصحابة بأسباب الفسق وارتكابهم المعاصي فكيف يسمونهم بالعدالة بعد ذلك؟ وهناك سؤال آخر وهو هل مجرد رؤيـة الرسول الكريم والسلام عليه يعطيه صفة الصـحابي فـأبو

هريرة مثلا لم يجلس مع الرسول الكريم سوى ٢١ شهرا فقط فكيف جمع كل الأحاديث عنه وإنمـا الصـحيح أن يعامـل الصحابة ويخضعون لما خضع لـه غيـرهم مـن الجـرح والتعديل.

إما مرجعية الصحابي في علم الفقه فهو ذو شقين أما إجماعهم عل حمل قديم، أو تفرد بعضـه أو واحـدا مـنهم بالاجتهاد وإصدار الفتوى.. أما الشق الأول فيعنـي تـواتر هؤلاء على حفظ النص القرآني وتفصيلات أسبابه من رسول ا صلى ا عليه الصلاة والسلام إلى الجيل الذي يليهم وهو جيل التابعين وهكذا.

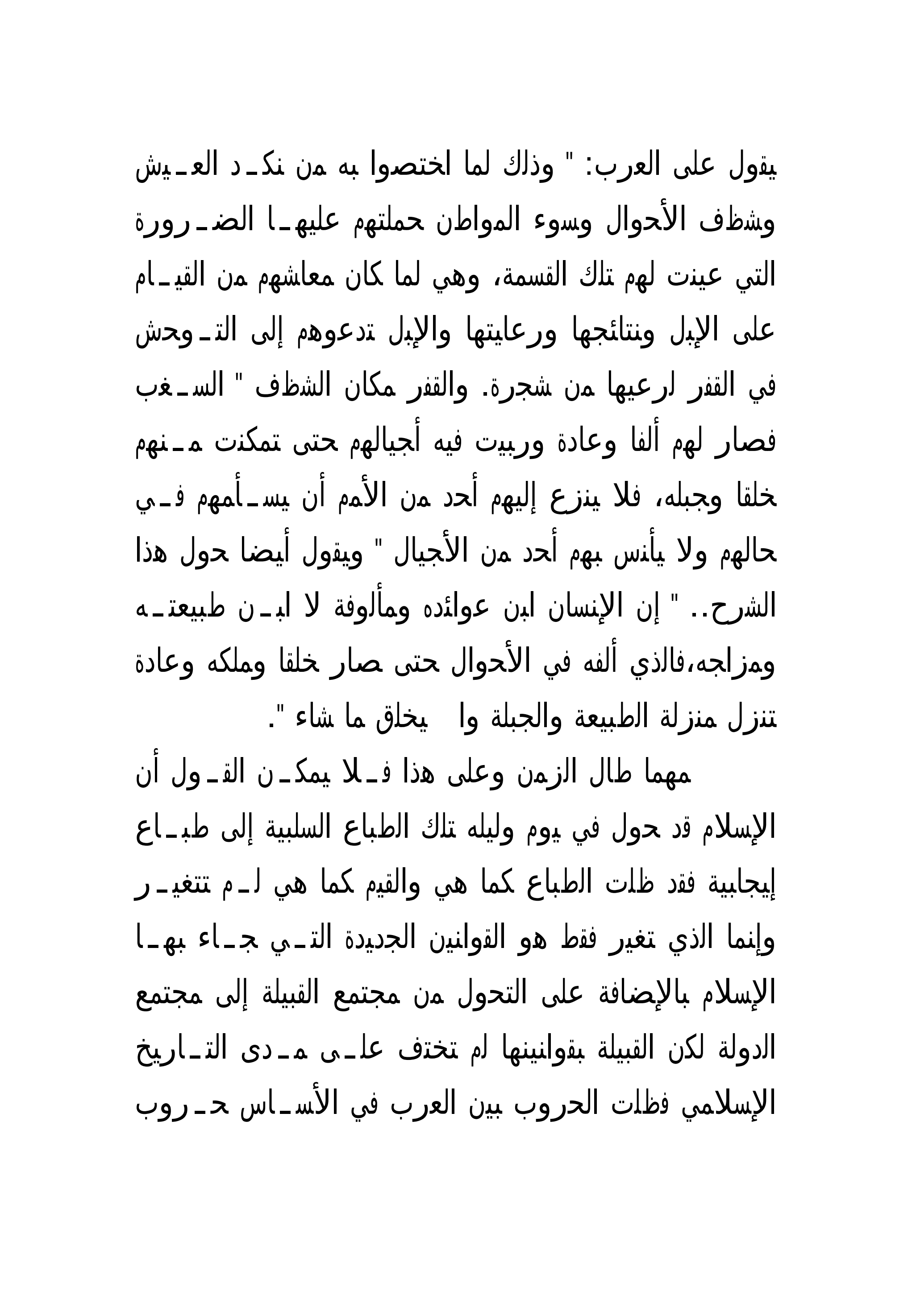
أما الشق الثاني وهو تفرد الصحابة أو أحـد مـنهم بالاجتهاد فلا حجة فيه لأنه اجتهاد بشري يخطـي ويصـيب والصحابة هم بشر وفي ذلك يقول أبو حامد الغزالي في كتابه " المستصفي من علم الأصول " في معـرض حديثـة عـن مرجعيه الصحابة " أن من يجوز عليه الغلط والسـهو ولـم تثبت عصمته عنه فلا حجة في قوله، فكيف يحـتج بقـولهم (أي الصحابة) مع جواز الخطأ، وكيف تدعي عصمتهم من غير حجة متواترة، وكيف يتصور عصمة قوم يجوز علـيهم

الاختلاف؟ أو كيف يختلف المعصومان؟ كيف وقـد اتفقـت الصحابة على جواز مخالفة الصحابة؟ فلم ينكـر أبـو بكـر وعمر علي من خالفهما بالاجتهاد بل أوجبـوا فـي مسـائل الاجتهاد على كل مجتهد أن يتبع اجتهاد نفسه ".

هذا رأي أبي حامد الغزالي ونضـيف عليـه ذكـر الحروب التي قامت بين الصحابة بعضهم وبعض والاختلاف في الرأي في توليه أبي بكر للخلافة بدلا من على أو سعد بن عبادة والخلاف حول مقتل عثمان رضي ا عنه وعشـرات بل مئات الخلافات التي ملأت صفحات التاريخ فكيف تتحقق لهم العصمة رغم أنهم بشر حملوا كـل المخـزون الثقـافي المشترك بينهم وبين عامة المسلمين.

- **هل تغيرت قيم وسلوكيات العرب بعد الإسلام..!؟**

للإجابة على هذا التساؤل الذي يخشى الكثيـر مـن المفكرين مجرد طرحه على نفسه فما بالك بطرحـة علـى الآخرين نذهب إلى ابن خلدون عمدة علم الاجتمـاع حيـث

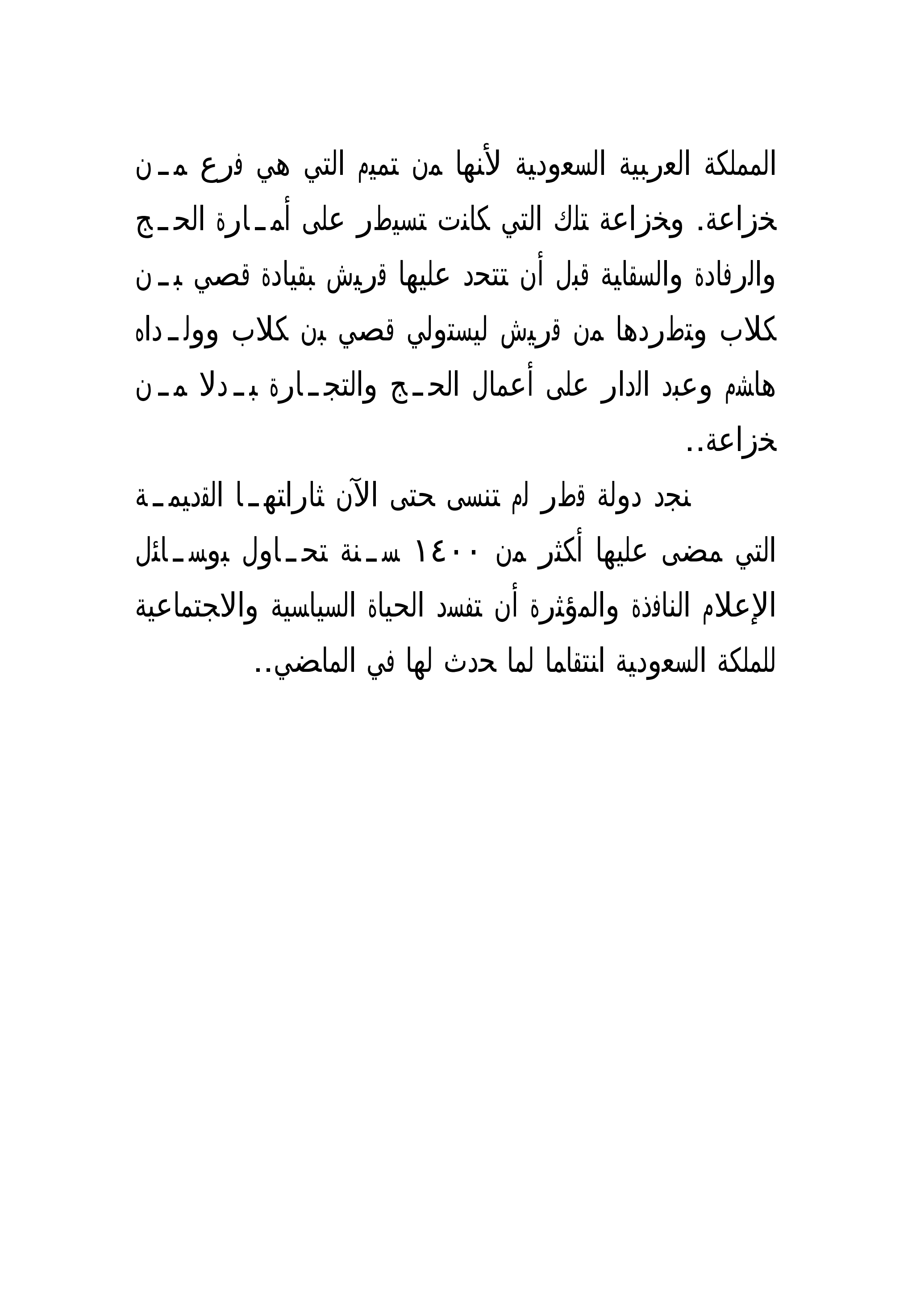


يقول على العرب: " وذلك لما اختصوا به من نكـد العـيش وشظف الأحوال وسوء المواطن حملتهم عليهـا الضـرورة التي عينت لهم تلك القسمة، وهي لما كان معاشهم من القيـام على الإبل ونتائجها ورعايتها والإبل تدعوهم إلى التـوحش في القفر لرعيها من شجرة. والقفر مكان الشظف " السـغب فصار لهم ألفا وعادة وربيت فيه أجيالهم حتى تمكنت مـنهم خلقا وجبله، فلا ينزع إليهم أحد من الأمم أن يسـأمهم فـي حالهم ولا يأنس بهم أحد من الأجيال " ويقول أيضا حول هذا الشرح.. " إن الإنسان ابن عوائده ومألوفة لا ابـن طبيعتـه ومزاجه،فالذي ألفه في الأحوال حتى صار خلقا وملكه وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة وا يخلق ما شاء ".

مهما طال الزمن وعلى هذا فـلا يمكـن القـول أن الإسلام قد حول في يوم وليله تلك الطباع السلبية إلى طبـاع إيجابية فقد ظلت الطباع كما هي والقيم كما هي لـم تتغيـر وإنما الذي تغير فقط هو القوانين الجديدة التـي جـاء بهـا الإسلام بالإضافة على التحول من مجتمع القبيلة إلى مجتمع الدولة لكن القبيلة بقوانينها لم تختف علـى مـدى التـاريخ الإسلامي فظلت الحروب بين العرب في الأسـاس حـروب

قبلية أفرزتها العصبية الشديدة وليس الدين، فالصـراع بـين الشيعة والسنة ليس صراع ديني بقدر ما هو صـراع قبلـي كذلك الصراع بين علي بن أبـي طالـب كـرم ا وجهـه ومعاوية لم يكن صراع ديني بل كان صراع بين بني هاشـم من ناحية وبني عبد الدار من ناحيـة أخـرى انتهـى فيـه الصراع لصالح معاوية. كذلك الصراع بين الحسين بن علي وبين زياد كان استمرارا لهذه القبلية فإذا انتقلنا الى ما بعـد ذلك نجد أن الصراع انتصر بعد ذلك لبني العباس الهاشميين على الأمويين حتى انتقل بعد ذلك إلى سيطرة الدولة الفاطمية نسبة إلى السيدة فاطمة بنت رسـول ا . ولا ننسـى ذلـك الصراع على خلافة الرسول صلى ا عليه وسلم بين الأوس الخزرج من ناحية وبين قريش من ناحية أخرى حتى ينتهي لصالح أبو بكر بعد مقولة عمر بن الخطاب " نحن الأمـراء ومنكم الوزراء ".

فالقبلية والعصبية لم تنتهي بنـزول الـوحي وإنمـا استمرت حتى العصر الحاضر، والخلافـات بـين إمـارات ودول الجزيرة العربية ما زالت قائمة حتى الآن حتـى أننـا نرى دولة قطر لم تنسى ثاراتها وتوجه إعلامها كلـه ضـد



المملكة العربية السعودية لأنها من تميم التي هي فرع مـن خزاعة. وخزاعة تلك التي كانت تسيطر على أمـارة الحـج والرفادة والسقاية قبل أن تتحد عليها قريش بقيادة قصي بـن كلاب وتطردها من قريش ليستولي قصي بن كلاب وولـداه هاشم وعبد الدار على أعمال الحـج والتجـارة بـدلا مـن خزاعة..

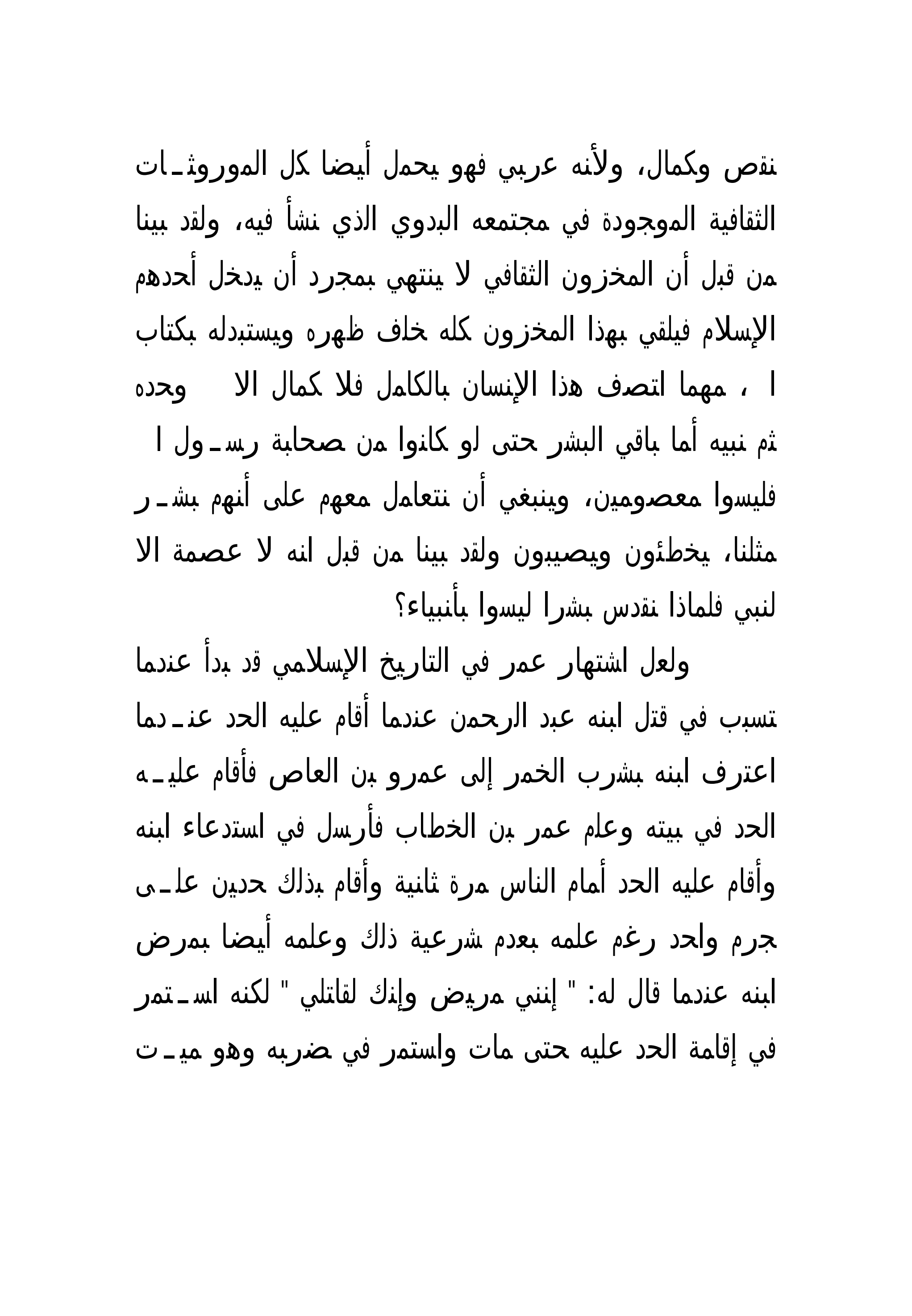
نجد دولة قطر لم تنسى حتى الآن ثاراتهـا القديمـة التي مضى عليها أكثر من ١٤٠٠ سـنة تحـاول بوسـائل الإعلام النافذة والمؤثرة أن تفسد الحياة السياسية والاجتماعية للملكة السعودية انتقاما لما حدث لها في الماضي..

لماذا عمر أولاً

قد يسأل البعض لماذا أبدأ بعمر بن الخطاب ولم أبدأ بأبي بكر وهو أول الخلفاء وأكثرهم حلما، ولماذا لم أبدأ بعلي بن أبي طالب وهو الأقرب في العصبة لرسول ا ، والأكثر علماً، والأفقه دينًا، وقال عنه عمر بن الخطاب: " لولا علـي لهلك عمر " في أكثر من مناسبة حين كان يستفتيه في الأمور المعقدة. ولماذا لم أبدأ بعثمان بن عفان وهو أكثرهم بذلا من ماله في سبيل ا .

إن أمير المؤمنين عمر بني الخطاب يحتل مكانة هي الأعلى عند رجال الدين الإسلامي وفقهائه. وألفـت حولـه آلاف القصص التي تحوي عدله وحزمه وشدته ولينه، ويكاد أمير المؤمنين أن يكون الأكثر إشادة للمفكرين الذين يتناولون سيرته، حتى إن عباس العقاد عنـدما تنـاول سـيرته فـي العبقريات لم يستطيع أن يكون حياديا في تناوله رغم منطقة الرياضي في تناول شخصيته، وإنما وقع تحت تأثير أقـوال المؤرخين حوله من ناحية والجو الإسلامي العام الموجود في

المجتمع بداية من الكتب الإسلامية ونهاية بخطباء المسـاجد وما يكتب ويقال في الصحف اليومية عـن عـدل ونزاهـة ورحمة وإنسانية وشفافية أمير المؤمنين. وهذا الجـو العـام نجده الآن أكثر سيطرة على الفكر الديني في هذه الأيام بعـد أن انضم لما سبق القنوات الفضائية والبرامج الدينية وأشرطة الكاسيت وهذا الكم الهائل من الكتب الدينية التي تباع بأقـل النقود كلها تتحدث عن أمير المؤمنين عمـر بـن الخطـاب وتقترب به من مرحلة النبوة أو الملائكية أو الإنسان الكامـل حتى أصبح من الصعب الآن على أي رجـل أو امـرأة أن يلمح إلى نقيصة له أمام أحد إلا واتهم بالكفر، وكأن الإسلام ارتبط بعمر ولم يرتبط بنبي وقرآن. وأصـبح عمـر هـو الشخصية المحورية في الفكر الإسلامي لما ينبغي أن يكـون عليه الحاكم المسلم، وإذا ذكر الإسلام إنما يذكر عمـر، وإذا ذكر العدل إنما يذكر عمر، وإذا ذكر الحكم الإسلامي إنمـا يذكر عمر، وأنا لا أجد أي غضاضة في هذا الأمر وكنـت أتمنى أن يكون أمير المؤمنين كما يعتقدون ولكني أدرك كما يدرك غيري أن عمر بن الخطاب هو في الأول والآخر بشر وليس بنبي، ولأنه بشر فهو يحمل كل الصفات البشرية مـن



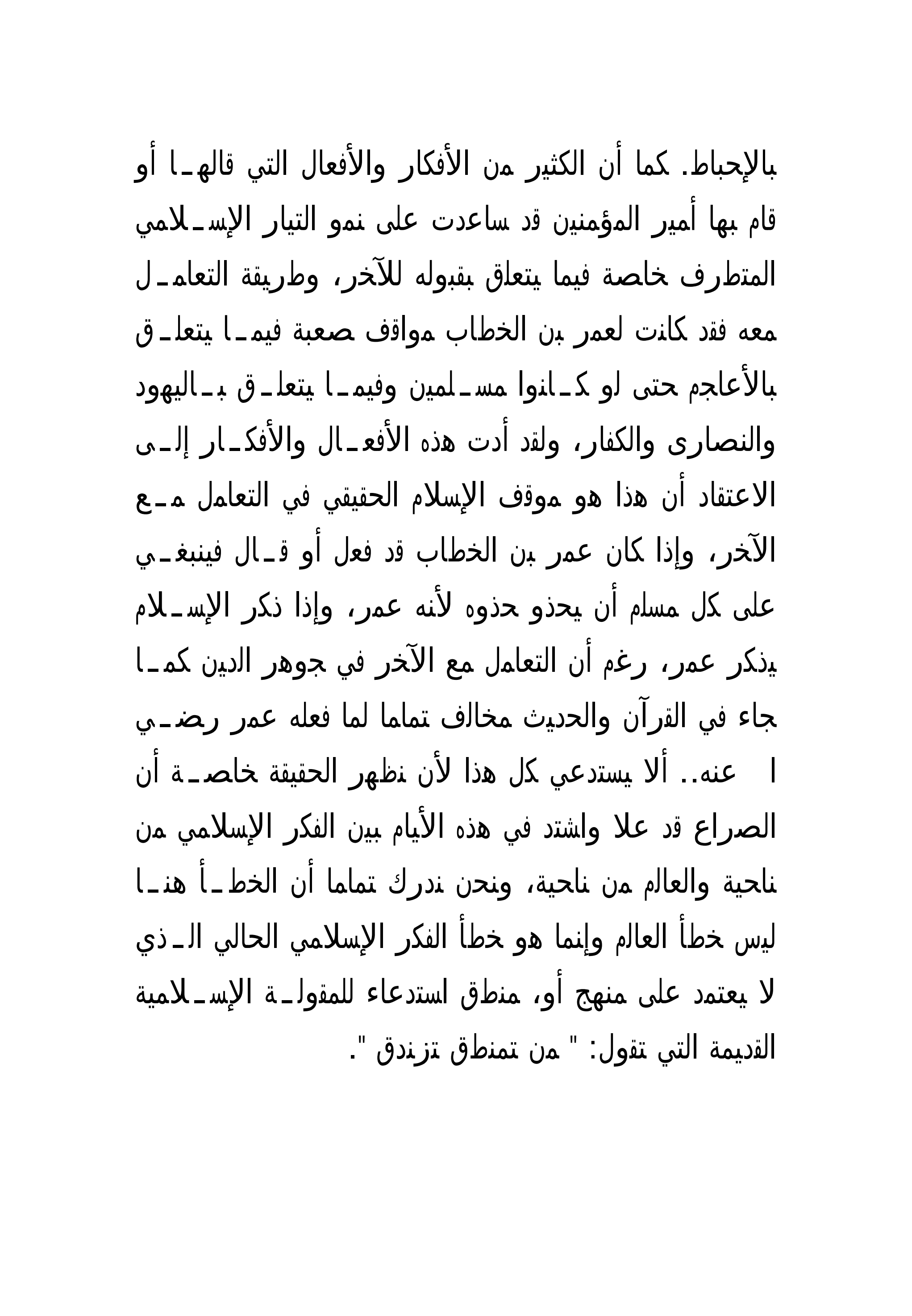
نقص وكمال، ولأنه عربي فهو يحمل أيضا كل الموروثـات الثقافية الموجودة في مجتمعه البدوي الذي نشأ فيه، ولقد بينا من قبل أن المخزون الثقافي لا ينتهي بمجرد أن يدخل أحدهم الإسلام فيلقي بهذا المخزون كله خلف ظهره ويستبدله بكتاب ا ، مهما اتصف هذا الإنسان بالكامل فلا كمال الا وحده ثم نبيه أما باقي البشر حتى لو كانوا من صحابة رسـول ا فليسوا معصومين، وينبغي أن نتعامل معهم على أنهم بشـر مثلنا، يخطئون ويصيبون ولقد بينا من قبل انه لا عصمة الا لنبي فلماذا نقدس بشرا ليسوا بأنبياء؟

ولعل اشتهار عمر في التاريخ الإسلامي قد بدأ عندما تسبب في قتل ابنه عبد الرحمن عندما أقام عليه الحد عنـدما اعترف ابنه بشرب الخمر إلى عمرو بن العاص فأقام عليـه الحد في بيته وعلم عمر بن الخطاب فأرسل في استدعاء ابنه وأقام عليه الحد أمام الناس مرة ثانية وأقام بذلك حدين علـى جرم واحد رغم علمه بعدم شرعية ذلك وعلمه أيضا بمرض ابنه عندما قال له: " إنني مريض وإنك لقاتلي " لكنه اسـتمر في إقامة الحد عليه حتى مات واستمر في ضربه وهو ميـت

حتى يكمل عدد الضربات، رغم أنه تساهل كثيرا في إقامة حد الشرب على الغرباء وسيأتي تفصيل ذلك.

لعل هذه الحادثة هي التي زكت عقول كتاب التراث ومن حذا حذوهم وهي السبب الرئيسي في شهرة عمر بن الخطاب ونسج الأساطير حوله. وبعد هذه الحادثة لم يكن لأحد أن يوقف هذا التيار الجارف لصالح عمر بن الخطاب حول عدله وحزمه.

وإنا هنا سأتناول سيرته بحيادية كاملة دون أن تتحكم الخلفيات الثقافية في حيادي وسوف أذكر الأشياء والمواقف التي تؤكد بشرية عمر بن الخطاب حتى لو كانت هذه البشرية تظهر لنا بعض النقص في أفعاله، وفي شخصيته، وليس هدفي في ذلك التجني على عمر بن الخطاب، وليس هدفي النيل منه، أو من الإسلام فأنا مسلم ولكن هدفي كما وصفته سابقًا هو صالح عمر بن الخطاب ولصالح الإسلام، لأن جعل الصحابة أساطير يضر بالإسلام ضررا بليغًا لأن الأساطير لا تصنع فكرا ولا تصنع منهجا، كما أنها ضد التربية الدينية لشبابنا وأطفالنا الذين يبحثون عن قدوة واقعية لا قدوة ميتافيزيقية لا يمكن الوصول إليها، مما يصيبهم



بالإحباط. كما أن الكثير من الأفكار والأفعال التي قالها أو قام بها أمير المؤمنين قد ساعدت على نمو التيار الإسلامي المتطرف خاصة فيما يتعلق بقبوله للآخر، وطريقة التعامل معه فقد كانت لعمر بن الخطاب مواقف صعبة فيما يتعلق بالأعاجم حتى لو كانوا مسلمين وفيما يتعلق باليهود والنصارى والكفار، ولقد أدت هذه الأفعال والأفكار إلى الاعتقاد أن هذا هو موقف الإسلام الحقيقي في التعامل مع الآخر، وإذا كان عمر بن الخطاب قد فعل أو قال فينبغي على كل مسلم أن يحذو حذوه لأنه عمر، وإذا ذكر الإسلام يذكر عمر، رغم أن التعامل مع الآخر في جوهر الدين كما جاء في القرآن والحديث مخالف تماما لما فعله عمر رضي ا عنه.. ألا يستدعي كل هذا لأن نظهر الحقيقة خاصة أن الصراع قد علا واشتد في هذه الأيام بين الفكر الإسلامي من ناحية والعالم من ناحية، ونحن ندرك تماما أن الخطأ هنا ليس خطأ العالم وإنما هو خطأ الفكر الإسلامي الحالي الذي لا يعتمد على منهج أو، منطق استدعاء للمقولة الإسلامية القديمة التي تقول: " من تمنطق تزندق ".

صفات عمر بن الخطاب:

كان عمر بن الخطاب طويلا تشاهده يمشـي كأنـه راكب ويجلس كأنه واقف، وكان أعسر يسرا يعمـل بكلتـا يديه، وكان أصلع خفيف العارضين [١].

وكان من بني عدي وهم قوم مستضعفون ذاقوا طعم الظلم من أقربائهم بني عبد شمس وكان قومه يسمون لعقـة الدم وقد غلبوا على أمرهم لقلة عددهم فاستقر فـيهم بغـض القوى المظلوم للظلم [٢].

قال عنه رسول ا ﷺ: " لم أرى عبقريـا يفـري فريه... " [٣]. يقصد يأتي بالأعاجيب.

وقال أيضا: " إن الشيطان ليخاف منك يا عمر ".

([1]) العبقريات ـ عباس العقاد.

([2]) نفس الكتاب.

[١] العواصم من القواصم.

وقال : مثلك يا عمر مثل نوح قـال: " رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا " ومثلك مثـل موسـى قال: " ربنا اطمس على أموالهم واشدد علـى قلـوبهم فـلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم "[٤].

وقالت عنه السيدة عائشة: " فما زلت أهـاب عمـر لهيبة رسول ا اياه "[٥].

وقال عنه غلامه: " خير الناس إلا أنـه إذا غضـب فهو أمر عظيم. وكان سريع البكاء وأثر البكاء في صـفحتي وجهه حتى كان يشاهد فيها خطان أسودان "[٦].

وقال عنه عباس العقاد: " فعلى المرأة كانت له غيرة اشتهر بها وعدت من دلائل شدته عليها وفـي هـذا يقـول رسول ا ﷺ: " إن ا غيور يحب الغيـور، وإن عمـر لغيور ".

([4]) العبقريات.

[١] العبقريات.

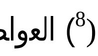
([6]) العبقريات

وكان أبوه من أشد الناس قسوة عليه في صباه ولكنه كان يقسم بأبيه دائما رغم ذلك حتى نهاه النبي [٧].

وروى عن سالم بن عبد ا بن عمر بن الخطاب أن أبته قال: " لقد عتبوا على عثمان أشياء لو فعلها عمر ما عتبوا عليه " [٨] وعبد ا بن عمر كان شاهد عيان لخلافة عثمان من أولها إلى آخرها.

هذه بعض صفات عمر وما قيل عنه وسيأتي شرح واف لكل ما قيل عنه ولكن سوف أبدأ أولاً بما فعله عمر بن الخطاب فقد فتحت مصر في عهده وسنرى ماذا فعل عدل عمر بن الخطاب في مصر هل جعلها من جنات الأرض فزاد جنانها وخيراتها أم جعلها خزائن للعرب يأخذون منها ما يريدون حتى لو أصبحت خرابا.. وأين عدل عمر مع العجم المصريين الذين وثقوا بالعرب ليخلصونهم من حكم الرومان فإذا هم أشد قسوة.

سنرى حال مصر قبل الفتح العربي لها بأقلام الكتاب العرب وحالها بعد الفتح بأقلام الكتاب العرب أيضا وسوف



(7) العبقريات.

(8) العواصم.

نرى الخلاف الشديد الذي دار بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص حول نهب خيرات مصر وإذلال شعبها فهل كان عدل عمر للعرب فقط أم لجميع المسلمين!!

حال مصر عند دخول العرب

قال أبو الحسن بن علي الأسدي قال [٩]: " أخبرني أبي قال وجدت في كتاب قبطي باللغة المصرية مما نقل إلى العربية أن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون من أموال مصر لخراج سنة واحدة من الذهب أربعة وعشرون ألف ألف وأربعمائة دينار، من ذلك ما ينصرف في عمارة البلاد كحفر الخلجان والأنفاق والجسور وسد الترع وتقوية من يحتاج إلى التقوية من غير رجوع عليه بها لإقامة العوامل والتوسعة في البلدان وغير ذلك من الآلات وأجرة من يستعان به لحمل البذور وسائر نفقات تطبيق الأرض والطرق ثمانمائة ألف دينار، ولما ينصرف للأرامل والأيتام وأن كانوا غير محتاجين حتى لا يخلوا أمثالهم من بر فرعون أربعمائة ألف

([9]) العواصم من القواصم ابن العربي.

دينار، ولما ينصرف لكهنتهم وبيوت صـلاتهم مائتـا ألـف دينار، ولما ينصرف في الصدقات مما يصب صبا. وينـادي عليه برأت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة ولـم يحضـر لذلك جمع كثير مائتا ألف دينار، فإذا فرقت الأمـوال علـى أربابها دخل أمناء فرعون إليه وهنأوه بتفرقة الأموال، ودعوا له بطول البقاء، ودوام الغز والبقاء والسلامة وأنهوا إليه حال الفقراء فيأمر بإحضارهم، وتغيير شعثهم ويمد لهم السـماط فيأكلون بين يديه ويشربون ويستفهم من كل واحد منهم عـن سبب فاقته، فإن كان ذلك من آفة الزمان، ذاد عليه مثل الذي كان له، ولما ينصرف في نفقات فرعون الراتبة في كل سنة مائتا ألف دينار، يجعله في بيت المال لنوائب الزمان أربعـة عشر ألف ألف وستمائة دينار ".

وقال أيضا: [١٠] " كانت أرض مصر أرضا مـديرة حتى أن الماء يجري من تحت منازل لها، وكان ملك مصـر عظيما، لم يكن في الأرض أعظم منه ملكا، وكانت الجنـان بحافتي النيل متصلة لا تنقطع منها شيء عن شيء والزروع كذلك من أسوان إلى رشيد، وكانت أرض مصر تروي مـن

([10]) نفس المرجع.

ستة عشر ذراعا دبورا من جسورها وحافاتها والزروع مـا بين الجبلين من أولها إلى آخرها ".

وقال عبد ا بن عمر رضي الله عنه[11] : " استعمل فرعـون هامان على حفر خليج سردوس فأخذ في حفره وتدبيره فجعل أهل القرى يسألونه إن يجري لهم الخليج تحت قراهم فكـان يذهب به من قرية إلى أخرى من المشرق إلى المغرب ومن الشمال إلى القبلة ويسوقه كيف أراد والى حيث قصد فلـيس خليج بمصر أكثر عطوفًا مثله وذهب إلى فرعون وأخبره بما فعل فقال له فرعون إنه ينبغي للسيد أن يعطف على رعيتـه ويفيض عليهم من خزائنه وذخائره ولا يرغب فيما بأيـديهم فرد عليهم الأموال التي أخذتها منهم لانعطافات الخليج فـإذا كانت هذه سيرة من لا يعرف ا ولا يرجو لقائه ولا يخاف عذابه ولا يؤمن بالحساب فكيف تكون سيرة من يقـول: " لا إله إلا ا ".

ومع اعتراضنا على قول بن عمر من أن فرعون لا يعرف ا ولا يخشى حسابه ولا يخاف عذابه فإنه يقدم هنـا

([11]) العواصم من القواصم لابن العربي.

بإيجاز شديد ما كان عليه العدل في الحكم والغنى المتحضر في أخلاق المصريين، وثرواتهم الهائلة.

وصف الإسكندرية عند الفتح:

أرسل عمرو بن العاص كتابا مشهورا يصف فتح الإسكندرية قال [١٢]: " لقد فتح ا علينا مدينة من صفاتها أن بها أربعة آلاف قصر، وأربعة آلاف حمام، وأربعمائة ملهى، واثني عشر ألف بائع للخضر، وأربعين ألف من اليهود أهل الذمة ".

وقال السيوطي (حسن المحاضرة نقلا عن المسعودي، صفحة ٤٢٩): " إن الإسكندرية يكثر المرمر في أرضها بنائها وعمدها ".

وقالوا: إن المدينة تبدوا بيضاء لامعة في النهار والليل وأن أهلها جميعا يلبسون الثياب السود والحمر لأن أرضها وبناءها من المرمر الأبيض وكان تألق الرخام يجعل من المؤلم أن يسير الإنسان في المدينة بالليل فإن ضوء القمر

([12]) فتوح مصر وأخبارها ابن الحكم.

إذا وقع فيها على الرخام الأبيض جعلها تضيء حتـى كـان الحائك يستطيع أن يدخل الخيط في الإبرة بغير أن يستضيء بمصباح، وما كان يستطيع أحد أن يدخل المدينة نهارا إلا إذا اتخذ غطاء لعينيه يقيهما بهر الطلاء والمرمـر وإن النـاس كانوا يتخذون سترا من الحرير الأخضر يتقون بذلك وهـج الضوء على الرخام ".

وما كانت دهشة العرب من رسم المدينة بأعظم مـن دهشتهم مما كان تحت أرضها من المباني فقد رأوا بها عددا عظيما من الصهاريج العجيبة تحت الأرض كـان لبعضـها طبقات يلي بعضها طبقات يلي بعضها بعضا أربعة أو خمسة وكان في كل طبقة منها عدد عظيم من الحجرات والأعمـدة حتى قال السيوطي إن الإسكندرية مدينة قائمة علـى مدينـة وإنه ليس في البلاد مثلها على وجه الأرض وكان بها عـدد عظيم من الأعمدة لم ير مثلها بموضع آخر في علوها وعظم حجمها وكانت هذه الحجرات الدفينة تستخدم لخـزن الميـاه تصل إليها في قنوات تجري من الترعة التي كانـت تشـق المدينة. وكان المتحف تتصل به مكاتبه العجيبة التي كانـت مقر العلوم في العالم أجمع.

وقد روى المقريزي عن المسعودي وصفًا للسرابيوم فقال: " وكان بالإسكندرية قصر عظيم لا يماثله قصر في العالم قائم على تل عظيم تجاه باب المدينة وكان طوله خمسمائة ذراع في عرض مائتين وخمسين، وله باب عظيم كل جانب منه قطعة واحدة من الصخر، وكذلك أعلاه حجر واحد، وكان في ذلك القصر مائة عمود وفي صدره عمود عظيم لم ير مثله في الحجم وله قمة كالتاج ".

وكان الاعتقاد السائد أن هذه الأبنية السرابيوم وعمود السواري والمسلات قد بنتها الجن بأمر من سليمان لاستحالة أن يصنعها بشر من دقة فنها وعظمتها فيقول السيوطي: " إنه قد بني الجان لسليمان في الإسكندرية إيوانًا للاجتماع، به ثلاثمائة عمود علو كل منها ثلاثون ذراعًا، وكانت من المرمر المجزع بلغ من صقله أن صار كالمرآة يرى الإنسان فيها من يسير خلفه، وكان في وسط الإيوان عمود علوه مائة ذراع وأحد عشر ذراعا وكان سقفه قطعة واحدة مربعة من المرمر الأخضر نحته الجن [١٣] (حسن المحاضرة للسيوطي ص ٥٥)، ومن غريب ما حدث أن أحد وزراء صلاح الدين

([13]) حسن المحاضرة للسيوطي ص ٥٥.

أمر بهدم هذه الأعمدة ورماها في البحر حتى تمنـع سـفن الأعداء من الرسو على الشاطئ وكان اسم الوزير " ترجا ".

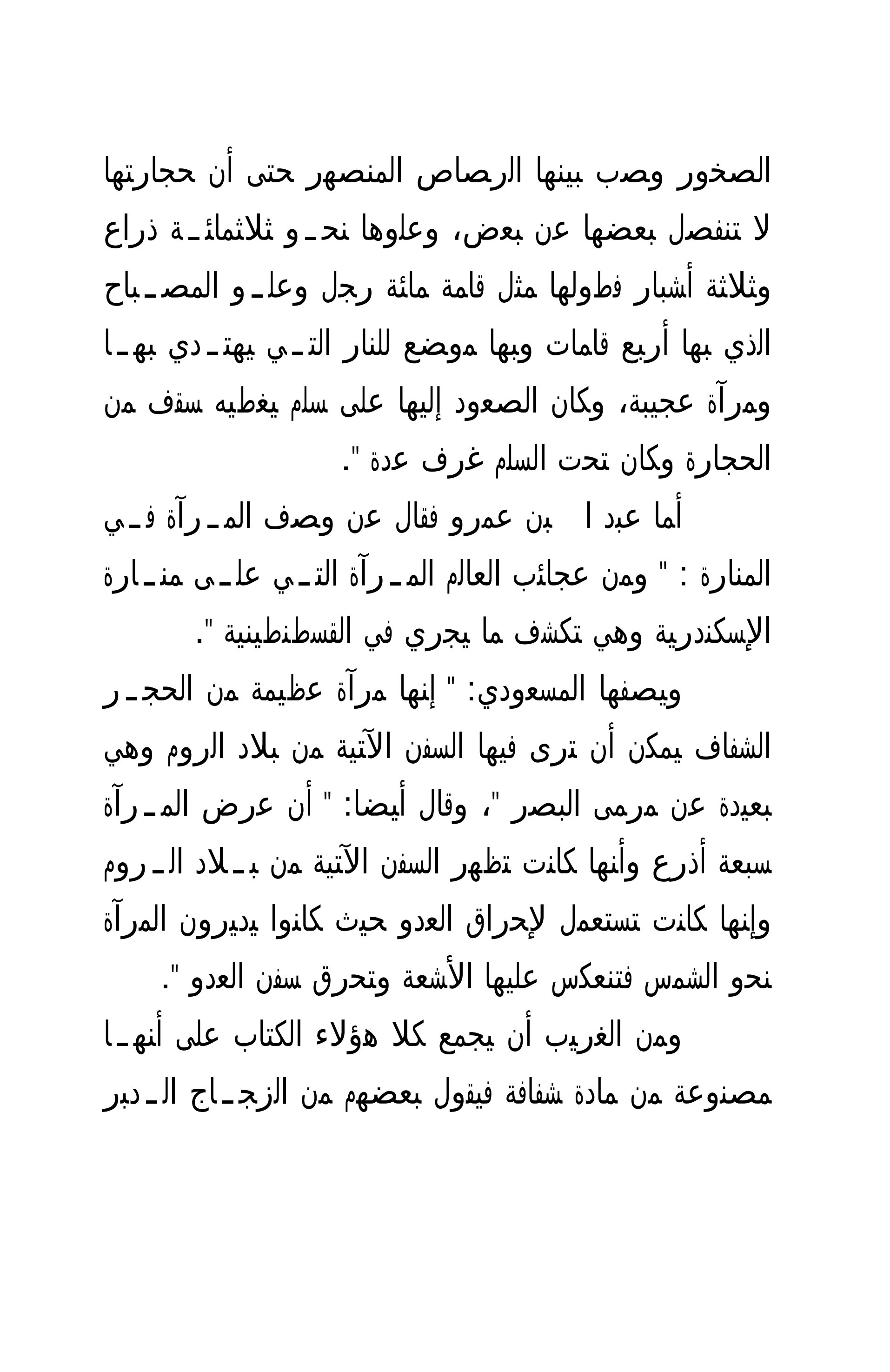
وكان هناك ميدان لسباق الخيل كان يتسع لألف ألف من المشاهدين وكان بناؤه يجعل كل ما فيه يرى ما يجري به سواء في ذلك من كان في أعلاه أو فـي أسـفله. أمـا دار التمثيل (المسرح) فقد كانت في موضع من حي البروكيون وكانت بناء عظيما قائما بنفسه.

ولكن المنارة كانت من أشد المواقع إبهـارا للعـرب وكانت قائمة في الشـمال الشـرقي للمدينـة، وقـد كتـب الاصطخري الجزء الأول ص ٥١٥ [١٤]: " إن المنارة قائمة على صخرة في البحر وبها أكثر من ثلاثمائة غرفة لا يهتدي فيها الزائر إلا إذا أهداه دليل ".

وقال ابن حوقل: " إنها مبنية من صخور منحوتة قد جمع بعضها إلى بعض وشدت بالرصاص ولا يشبهها شيء على وجه الأرض ".

وقد وصفها الإدريسي: إن المنارة لا يماثلها شـيء في بلاد العالم في قوة بنائها ونظامهـا فهـي مـن أصـاب

([14]) الاصطخري ص ٥١٥.



الصخور وصب بينها الرصاص المنصهر حتى أن حجارتها لا تنفصل بعضها عن بعض، وعلوها نحو ثلاثمائة ذراع وثلاثة أشبار فطولها مثل قامة مائة رجل وعلو المصباح الذي بها أربع قامات وبها موضع للنار التي يهتدي بها ومرآة عجيبة، وكان الصعود إليها على سلم يغطيه سقف من الحجارة وكان تحت السلم غرف عدة ".

أما عبد الله بن عمرو فقال عن وصف المرآة في المنارة : " ومن عجائب العالم المرآة التي على منارة الإسكندرية وهي تكشف ما يجري في القسطنطينية ".

ويصفها المسعودي: " إنها مرآة عظيمة من الحجر الشفاف يمكن أن ترى فيها السفن الآتية من بلاد الروم وهي بعيدة عن مرمى البصر "، وقال أيضا: " أن عرض المرآة سبعة أذرع وأنها كانت تظهر السفن الآتية من بلاد الروم وإنها كانت تستعمل لإحراق العدو حيث كانوا يديرون المرآة نحو الشمس فتنعكس عليها الأشعة وتحرق سفن العدو ".

ومن الغريب أن يجمع كلا هؤلاء الكتاب على أنها مصنوعة من مادة شفافة فيقول بعضهم من الزجاج الدبر

(المحكم الصنعة) ويقول البعض من حجر شفاف مما يؤكد أن هذا الوصف ينطبق على عدسة ضوئية وليس لمرآة.

ويقول الفردج بتلر في فتح العرب لمصـر: " لـيس إذن من الممكن أن تكون مدرسة الإسكندرية العظمى التـي فاقت في علوم الرياضة والحيل قـد كشـفت سـر العدسـة الضوئية وصنعتها، ثم نسي هذا الأمر بعد تخريب المنـارة " ويقول الفردج بتلر. لكن المصريين بعد ذلـك بنـوا منـائر المساجد على اسم ورسم منارة الإسكندرية فهي برج قاعدته عند الأرض مربعة الشكل ثم تصير بعد ذلك مثمنة الأضلاع وترق في حجمها ثم ترق بعد ذلك ويستدير شكلها ثم يعلوها عند القمة مصباح ".

أما المكتبة فقد كانت تقع في حي البروكيون واجتمع فيها أهم مؤلفات العالم وكان بناء المكتبة له بهو عظيم فـي وسطه من حوله عمد مصفوفة تحيط به وأبنيتـه ذات ازاج. وكانت هذه الأبنية تتصل بسواها مما كان فيه مدرسة الطـب والتشريح والجراحة، ومدرسة الرياضيات ومدرسـة الفلـك ومدرسة القانون والفلسفة وكان يتصل بالبناء بسـتان كبيـر

وحديقة تستخدم لبحوث النبات ومرصد وهذا التجهيز يشـير إلى جامعة من أكبر الجامعات.

وقصة حريق كتب المكتبة على يد العرب ذكرها أبو الفرج كما يلي: " قد كان في ذلك الوقت رجل اشـتهر بـين المسلمين اسمه حنا الأجرومي وكان من أهـل الإسـكندرية وظاهر من وصفه أنه كان من قسوس القبط. لكنه أخرج من عمله وكان عزله على يد مجمع من الأساقفة انعقد في حصن بابليون وقد أدرك ذلك الرجل فتح العرب للإسكندرية واتصل بعمرو بن العاص فلقي عنده حظوة لما توسم فيه من الـذكاء بصفاء ذهنه وقوة عقله فلما أنس الرجل مـن عمـرو ذلـك الإقبال قال له يوما: " لقد رأيت المدينة كلها وختمت على ما فيها من التحف، ولست أطلب إليك شيئًا مما تنتفع به بل شيئًا لا نفع له عندك وهو عندنا نافع " فقال له عمرو : " ومـاذا تعني بقولك "، فقال له: " أعني بقولي ما في خزائن الـروم من كتب الحكمة "، فقال له عمرو: " إن ذلك أمر ليس لي أن أقطع فيه رأيا دون إذن الخليفة ". ثم أرسل كتابا إلى عمر بن الخطاب يسأله في الأمر فأجابه عمر قائلاً: " وأما ما ذكرت من أمر الكتب فإذا ما جاء بها يوافق ما جاء في كتـاب ا

فلا حاجة لنا به وإذا خلافه فلا إرب لنا فيه وأحرقها ".. فلما جاء هذا الكتاب إلى عمرو أمر بالكتب فوزعت على حمامات الإسكندرية لتوقد بها، فما زالوا يوقدون بها ستة أشهر " ثـم قال المؤلف: " اسمع وأتعجب ".

ومما يؤكد هذا الفعل حريق الكتب ما ذكر عن عمر بن الخطاب بأنه قال نفس القول عن الكتب التي وجدت فـي دولة الفرس.

ويقول عباس محمود العقاد في عبقريـة عمـر ص ١٨٣: " وفي الأخبار التي نقلت بهذا الصدد أن رجلاً أنبـأه أنهم لما فتحوا المدائن أصاب كتابا فيه كلام معجب، فسـأله عمر أمن كتاب ا ؟ فقال: لا، فدعا بالدرة فجعل يضربه بها وهو يقرأ: " الر تلك آيات الكتاب المبين، إنا أنزلناه قرءانًـا عربيا لعلكم تتقون "، ثم قال إنما أهلك من كان قـبلكم إنهـم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفهم وتركوا التوراة والإنجيـل حتى درسا وذهب ما فيها من العلم ".

حتى إن العقاد يبحث عن التبريـر لحـرق الكتـب ويتساءل بطريقة تدعو للعجب: " كيف يرضى الخليفة الـذي يهمه أمر رعاياه أن ينصرفوا عنه ـ يقصد القرآن ـ إلـى

كتب لا يؤمن ما فيها؟ وكيف يكون الحال إذا تفرقـوا شـذر مذر ولهم في كل بلد قراءة غير هذا الكتاب الذي لم يفرغوا منه ولم يستوعبوا كل ما فيه؟ أمن عداوة المعرفة هذا أو من إيثار المعرفة التي تتقدم على غيرها؟ وإذا لـم تتقـدم هـذه المعرفة على غيرها في الفقه والوعي والإقبال؟ وأيـن هـي الغنيمة الروحية التي تعدل في كتاب من الكتب بعـض مـا غنمه المسلمون بوحي القرآن في صدر الإسلام ولا يقال عن عقل يفكر هذا التفكير إنه لم يفكر على هدي مستقيم " انتهى كلام العقاد الذي حول دفاعه عن عمر إلى إدانة له بل إدانـة لفكر العقاد نفسه الذي يلوي الفكر لجهله بـالتنظير الحقيقـي لطبيعته.

أقام الظلم ليشتهر بالعدل!!

اشتهر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بالعدل وتلك الصفة تلازمه ملازمة الثوب للجسد حتى أنه سمي بالفاروق من شدة عدله لأنه يفرق بين الحق والباطل، ويحكي الفقهـاء وكتاب التاريخ الإسلامي مئات الروايات عن عدل عمر حتى أصبح أسطورة في عدله.

ومما ذكى هذه الصفة التي قل أن يشتهر بها حـاكم من الحكام العرب على مر التاريخ، إنه بسبب عدله قتل ابنه عبد الرحمن وهو يجلده، بسبب شربه للخمر، رغم أن عمرو بن العاص قد جلده على نفس الحد في مصر ولا يصـح أن يعاقب المسلم على جرم واحد مرتين ورغم أن ابنـه عبـد الرحمن قال له متوسلاً قبل أن يجلد " إنني دنف (مريض) وإنك لقاتلي " فإنه لم يأبه لتوسلاته وظل يضربه حتى مـات ولم يكتف بذلك بل ظل الجلد مستمرا وهو جثة هامدة حتى تم العدد الصحيح ثم قال قولته المشهورة: " لأن يلقي ا تحـت

السياط أحب إلى من أن ألقاه وهو في عنقي "[15]، وهكـذا حتى قال بعض الفقهاء عنه أنه: " أقام الظلم ليشتهر بالعدل " وهذا ما يسمونه في علم النفس بعملية القلـب أو الانقـلاب العكسي وهو كالتضاد بين الظاهر والباطن من أجل التمسـك بالظاهر، وعملية الانقلاب العكسي هذه يقوم بهـا الإنسـان عندما لا يستطيع تحقيق مآربه وأهدافه بالطريقـة المعتـادة ويلجأ لما يعاكسها لتحقيق مآربه ومثل ذلك مثل الزوجة التي تكره زوجها ولكنها لا تسـتطيع أن تؤذيـه بكراهيتهـا لـه لظروف خارجة عن إرادتها فتلجأ إلى حيلة دفاعيـة وهـي الحب فتحبه ولكنها تستخدم هذا الحب لتخنـق زوجهـا بـه فتضيق عليه وتعذبه بحبها بما لا تستطيع أن تفعله بكراهيتها له وهذا ما فعله أمير المؤمنين عندما أقـام الظلـم ليشـتهر بالعدل ولعل عنف الحياة البدوية في ذلك الوقت قد أدى إلـى هذه الحادثة ذلك أن الموت لا يشـكل أي مشـكلة بالنسـبة للبدوي فقد كانوا يدفنون البنات أحياء خوفًا من العار وخوفـا من الفاقة والفقر أما آباءهم فكانوا يدفنونهم حيـث يموتـون وتنتهي ذكراهم بموتهم ثم تسير حيـاتهم دون تغييـر فـي

---

[1] فتوح مصر وأخبارها، ابن الحكم ص ١٥١.

البرنامج فإذا كان مقدرا ليوم وفاة الأب أن يكون الابن مدعوا إلى عشاء فإنه بعد أن يدفن والده يذهب لتلبية الدعوة وهكذا.

وسوف نرى ما فعله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما غزت جيوشه مصر بقيادة عمرو بن العاص سـنرى كيف انقلب العدل (عدل عمر) إلى ظلم للمصريين وكيـف أن عمرو بن العاص كان يقف معترضا على هذا الظلم الذي أراده أمير المؤمنين مما أدى في النهاية إلى تقليص سـلطانه وسبة وشتمه من قبل أمير المؤمنين وسوف نرى أن عمـرو بن العاص رغم ظلمه للمصريين كان أكثر عدلا من عمر بن الخطاب فيما يتعلق بمصر.

ماذا فعل عمر بن الخطاب في مصر؟

ذهب صاحب إخنا (وهي قريـة مصـرية) إلـى عمرو بن العاص فقال له: " أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فيصبر لها (يجتهد في تدبيرها) فقال له عمرو بن العـاص وهو يشير إلى ركن كنيسة: (لو أعطيتني ملء الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك، إنما أنتم خزانة لنا، أن كثر علينا

كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم)[16] هذا ما قالـه عمرو بن العاص لأحد عمد المصريين عند ما سـأله عـن مقدار الجزية وكان عمرو يردد ما قاله أمير المؤمنين حيـث قال (إن استغنوا زد عليهم بقدر استغنائهم).

ثم أمر عمر بن الخطاب كما حدثنا ابنه عبد ا بـن عمر (أن يختم على رقابهم بالرصاص ويظهروا منـاطقهم ويجزوا ونواصيهم، ويركبوا علـى الأكـف عرضـا، ولا يضربوا الجزية إلا على مـن جـرت عليـه المواسـي ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين في لبوسهم)[17] ولقـد صـنع لذلك عمرو بن العاص ختما من الرصاص يضعه في النـار ويختم به قفا المصريين كعلامة لدافع لجزية وذلـك بعـد أن يحلق شعره بالموسى بين جانبي الوجه لزيادة التمييز، ممـا سبب للمصريين عقدة نفسية حول ضرب القفـا حتـى الآن فالمصري ما زال يستنكر بشدة أن يلمس أحد قفاه ويجد فـي ذلك إهانة بالغة وربما يرتكب حماقة بسببها ضد من لمـس قفاه وذلك بخلاف كل شعوب الأرض وذهب رجل اسلم إلى

([16]) فتوح مصر وأخبارها ابن الحكم ص ١٥٤.

([17]) نفس المصدر.

عمرو بن الخطاب فقال له (ضعوا الجزية عـن أرضـي)

حيث كان من يسلم حسب أمر الرسول ﷺ أن تسقط عنه الجزية، ولكن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قال له (لا إن أرضك فتحت عنوه)[١٨].

وفي هذا يقول الإمام مالك بن أنس (أما أهل العنوه الذين أخذوا عنوه فمن أسلم منهم أحرز إسلامه لنفسـه أمـا أرضه فإنها للمسلمين لأن أهل العنوه غلبوا علـى بلادهـم وصارت فيئا للمسلمين)[١٩].

وظل الأمر كذلك حتى جاء عبد الملك بـن مـروان فأسقط الجزية على من أسلم.

بعد أن استتب الأمر لعمرو بن العاص فـي مصـر وبعد أن قبل المصريون كل شروط العرب في دفع الجزيـة مع حمايتهم من أعداء آخرين، التزم المصريون بشروط العقد الذي وقعوه مع عمرو بن العاص بأوامر من أمير المـؤمنين عمر بن الخطاب وكان المصريون يطبقون نصوص العقـد بتسامح غريب ينسجم مع طبيعتهم حتى أنهم بعد ذلك ظنـوا

([18]) فتوح مصر ابن الحكيم ص ١٥٥.

[١] نفس المرجع ص ١٥٥.

أن هذا من الإسلام وكانت شروط العقد بعيدة عـن الإسـلام وتخالف تعاليم القرآن الكريم فيما يتعلق بالآخر خاصـة مـا يتعلق منها بالمساواة والعدل وحرية ممارسـة أهـل الذمـة لدينهم، كانت الشروط كما ذكرها الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية على النحو التالي [٢٠]:

١- أن يلبسوا لباسا يميزهم ويعقـدوا الزنـانير علـى وسطهم.
٢- إلا يعلو بنائهم على المسلمين.
٣- أن تقام مآتمهم بغير احتفال وتدفن موتاهم كذلك.
٤- ألا يؤذوا المسلمين بقرع نواقيسهم ولا بترتيلهم فـي صلاتهم.
٥- إن يركبوا البرازين والخيول المعتادة وأن يتجنبـوا ركوب الأصائل من الخيل.

وتلك الشروط في معاهدة الصـلح تبـدو مخالفتهـا واضحة لجوهر الدين الإسلامي الذي نص على أنه لا فـرق بين عربي وعجمي، وعلى أن الكل سواسي كأسنان المشـط ونحن إذا علمنا أن العجمة تطلق على البهيمة لأدركنا معنى

([20]) الأحكام السلطانية الماوردي.

أن يسمينا العرب بالعجم الذي لا يصلون في المكانة للعربي الغازي المنتصر وبذلك لا يعقل أن يركب المصريون الخيول الأصيلة وإنما يكفيهم البغال والحمير كما ينبغـي علـيهم أن يربطوا إزارا حول وسطهم ليميزهم عن العرب ناهيك عـن قيود العبادة فلا تسمع أجراسهم ولا تراتيلهم وهنـاك شـرط آخر أكثر إجحافا اشترطه عمر بن الخطاب في رسالة بعـث بها إلى عمرو بن العاص بعد

المعاهدة ومنها ينبغي على المصـريين أن اختـار أعرابي أحدا منهم لينزل عنده أن يستضيفه ثلاثة أيام كاملـة في المأكل والمسكن والمشرب وإذا منعته ظروف الجـو أو أي ظروف أخرى تمنع ذهابه بعد الثلاث أيـام فـإن علـى العربي أن ينفق على نفسه من جيبه الخاص.. ولم نرى فـي تاريخ الأمم هذا الشرط من الغزاة والمحتلين أن يستضـيف صاحب بيت عنده زوجة وأولاد وبنات ضيفا بدون إرادة منه يقول بن الحكيم [٢١] (ومن كان من أهل مصر فإردب كـل شهر لكل إنسان ولا أدري كم من الودك والعسل عليهم مـن البز والكسوة التي يكسوها أمير المؤمنين الناس ويضـيفون

---

[١] فتوح مصر ابن الحكم ص ١٥٢.

من نزل بهم من أهل الإسلام ثلاث ليالي، وكان لا يضـرب الجزية على النساء والصبيان وكان يختم في أعناق رجـال أهل الجزية).

هذا ما أقر به أمير المؤمنين في جزيـة المصـريين وهي إردب قمحا على كل فرد كل شهر هذا غيـر الـودك والعسل والملابس ولا أدري ماذا سيبقى لرب البيت إذا دفـع ١٢ إردب قمحا كل سنة بالإضافة على العسـل والملابـس والزيت واستضافة العرب هل هذا عدل عمر بن الخطاب!!

وقد نقل السيوطي عن عبد ا بن صالح أن عمر في سنة ٢٢ للهجرة جبي اثنى عشر ألف ألف دينار، وقد ذكـر بن حوقل المقدار نفسه بعد عام الفتح وذلك نقلا عـن أبـي حازم القاضي صفحة ٨٧ وهو يذكر صـراحة أن المقـدار المذكور هو الجزية وحدها من دون الخراج وأما الـبلاذري فإنه عندما ذكر خراج مصر الذي جمعه عبد ا بـن سـعد كان أربعة عشر ألف ألف دينار في السنة الأولى من ولايته وقد ذكر المقريزي في الخطط صفحة ٧٦ من الجـزء الأول أن أهل مصر الذين فرضت عليهم الجزية بلغ عددهم ثمانية ألف ألف.

أين ذهب المصريون:

كما قال المقريزي وابن الحكم والسيوطي وغيـرهم فإن عدد المصريين أيام فتح مصر كان يتراوح بين ثمانيـة ملايين واثني عشر مليونًا.. والمفترض أن يسير حال التكاثر للشعوب إلى أعلى فيزيد العدد أضعافًا مضاعفة. ولكننا نفاجأ بنقص شديد للمصريين في التعداد الذي قام به رجال الحملـة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت وهـذا التعـداد يعتبر أول تعداد حقيقي للمصريين منذ دخول العرب مصـر وكان عددهم كما جاء في وصف مصر على النحو التـالي: عدد المسلمين اثنين مليون ونصف وعدد المسـيحيين مائـة وستون ألفًا وعدد العرب عشرة آلاف فقط.

فأين ذهب المصريون..!! أن عوامل الطغيان والقهر والظلم والقتل وإهمـال المشـروعات الزراعيـة قـد أودى بالمصريين إلى الهلاك ويذكر لنا التاريخ أن الخليفة المأمون قتل بجيشه للقضاء على ثـورة المصـريين ٧٥٠ سـبعمائة وخمسون ألف مصري دفعة واحدة بخلاف الأسرى الـذين

أخذهم معه وذلك للقضاء على ثورتهم ضده وللأسف الشديد فإننا نجد أكبر شارع في مصر الجديدة يسمى باسمه.

حوار الظلم بين أمير المؤمنين وعمرو بن العاص

من أشد الرسائل غرابة تلك الرسائل المتبادلـة بـين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وواليه على مصر عمرو بن العاص، فهذا أمير المؤمنين يتعجل عمرو بن العاص لإرسال الخراج في أسرع وقت ولكن عمرو يتباطـأ وسـر تبـاطؤ عمرو هو أن الخراج يجمع من المصـريين عنـد حصـاد المحصول ورغم إدراك أمير المؤمنين لذلك النظام المصري القديم إلا أنه يلح عليه في التعجيل بسرعة إرسال الخـراج.. ويتضح من هذه الرسائل إدراك عمرو بن العاص وتقـديره لظروف المصريين ومواسم حصائدهم ولكن الأمر مختلـف تماما في المدينة عند أمير المؤمنين الـذي لا يـرى إلا أن

مصر خزائن لهم ينهلون منها ما يشاءون وفـي أي وقـت أرادوا.

يقول ابن الحكيم [٢٢] فلما استبطأ عمر بن الخطـاب الخراج من قبل عمرو بن العاصي كما حدثنا عبـد ا بـن صالح بن الليث بن سعد كتب إليه (بسم ا الرحمن الرحيم من عبد ا عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاصي سلام عليك، فأني أحمد إليك ا الذي لا إله إلا هو أما بعد فـإني فكرت في أمرك والذي أنت عليه فذا أرضك أرض واسـعة عريضة رفيعة وقد أعطى ا أهلها عددا وجلادا وقوة في بر وبحر وإنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم فعجيب من ذلك على غيـر قحـوط ولا جدب، ولقد أكثرت في مكاتبتك في الذي على أرضـك مـن الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا من غير تأخير، ورجوت أن تفيق فترفع إلى ذلك، فإذا أنت تأتيني بمعاريض تغتالهـا ولا توافق الذي في نفسي، ولا أدري مع ذلك ما الذي أنفرك من كتابي وقضبك فإن كنت منجزا فإن البراءة لنافعه وإن كنـت مضيقًا نطعا أن الأمر لعلي غير ما تحدث به نفسـك، وقـد

([22]) فتوح مصر ابن الحكيم ص ١٥٨.

تركت أن أبتلي ذلك منك رجاء أن تفيق فترفع إلى ذلك وقـد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا عمالك عمال السـوء ومـا توالى عليك وتلفف اتخذوك كهفا وعندي بإذن الله دواء فيـه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخـذ منـك الحق وتعطاه فإن النهر يخرج الدر والحق أبلج ودعني ومـا عنه تلجلج فإنه قد برح الخفاء والسلام).

تلك كانت رسالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى واليه على مصر عمرو بن العاص يهدده فيها ويتوعده بعدم تأخير خراج مصر.. وهذه الرسالة كان قد تبعها عدة رسائل شفهية أو مكتوبة، لكن عمرو بن العاص لا يأنس لتهديد أمير المؤمنين ويرد عليه برسالة لا تقل جرأة فهو يعتقد أن الحق معه وهذا نص الرسالة [٢٣] (بسم الله الرحمن الرحيم لعبـد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص سلام عليـك، فإني أحمد عليك الله الذي لا اله إلا هو أما بعد. فقد بلغنـي كتاب أمير المؤمنين في الذي استبطأني فيـه مـن الخـراج والذي ذكر فيما ذكر فيها من عمل الفراعنة قبلي وإعجابـه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منها منذ كان الإسـلام

---

[١] فتوح مصر ص ١٥٩ ـ فتح العرب لمصر القردبتار ص ٤٧٣.

ولعمري للخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض أعمـر لأنهـم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب في عمارة أرضهم منا منذ كان الإسلام وذكرت أن النهر يخرج الدر فحلبتها حلبا قطـع ذلك درها، وأكثرت في كتابك وأنبـت وعرضـت وثربـت وعلمت أن ذلك عن شيء تخفيه على غيـر خيـر فجئـت لعمري بالمفنعات المقنعات ولقد كان اك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق. ولقد عملنـا ارسـول ا ﷺ ولمن بعده فكنا بحمد ا مؤدين لأماناتنا حافظين لمـا أعظم ا من حق أئمتنا نرى غير ذلك قبيحا والعمل به سيئًا فيعرف ذلك لنا ويصدق فيه قولنا معاذ ا من حـق أئمتنـا نرى غير ذلك قبيحا والعمل به سيئًا فيعرف ذلك لنا ويصدق فيه قولنا معاذ ا من تلك الطعم ومن شر الشيم والاجتـراء على كل مأثم، فاقبض عملك فإن ا قد نزهنـي عـن تلـك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذي لـم تسـتبق فيـه عرضا ولم تكرم فيه أخا وا بابن الخطاب لأنا حين يـراد ذلك مني أشد لنفسى غضبا ولها إنزاها وإكراما وما عملـت بين عمل أرى على فيه متعلقًا، ولكني حفظت ما لم تحفـظ، ولو كنت من يهود يثرب ما زدت يغفر ا اك ولنا وسـكت

عن أشياء كنت بها عالما وكان اللسان بها مني ذلولا ولكـن
ا   عظم من حقك ما لا يجهل. والسلام).

ولكن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين يكتب له مرة أخرى يطالبه بسرعة إرسال الخراج فيقول فـي كتابـه [٢٤] (من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص سـلام عليـك فأني أحمد إليك ا   الذي لا إله إلا هو أما بعد فقد عجبت من كثرة كتبي إليك في إبطائك بالخراج وكتابـك إلـى بثنيـات الطرق وقد علمت أني لست أرضي منك إلا بالحق البين ولم أقدمك إلى مصر أجعلها لك طعمة لك ولا لقومـك، ولكنـي وجهتك لمارجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فـإذا أتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فإنما هو فئ المسلمين وعندي من قد تعلم قوم محصورون والسلام).

وتتوالى الرسائل فيرد عمرو بن العـاص برسـالة أخرى شارحا فيها أسباب تأخره يقـول عمـرو (بسـم ا   ارحمن الرحيم لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص سلام عليك فأني أحمد إليك ا   الذي لا إله إلا هو أما بعد فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يستبطئني في الخراج ويزعم أني أعنـد

---

(24) فتوح مصر ابن الحكيم ص ١٦٠.

عن الحق وأنكب عن الطريق وأني وا ما أرغب عن صالح ما يعلم ولكن أهل الأرض استنظروني إلى أن تدرك غلتهم فنظرت فكان الرفق بهم خيرا من أن يخرق بهم فيصيروا إلى بيع ما لا غنى بهم عنه والسلام).

وهكذا يقف عمرو بن العاص بالند لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ولا يخاطبه بأمير المؤمنين في رسائله ولا ندري لماذا خاصة بعد أن هدد عمرو بن العاص من قبل عندما سكت عن أشياء كان بها عالما وكان لسانه بها ذلـولا تخص عمر بن الخطاب ولا ندري ما هي ولكن عمرو يخبره بأنه تأخر في الخراج لأن المحصول لم يتم حصاده وإنه يخشي أن يجبر أهل مصر على بيع أشياء لا غنى عنها لسداد الخراج قبل الميعاد ولكن عدل أمير المؤمنين لا يعجبه رحمه عمرو فيحاول أن يستميله برسالة استغاثة يدعي فيها أن أهل مكة والمدينة محصورون ويستغيث بعمر بن العاص صعب المراس فيرسل له هذه الرسالة العاطفية التي يهز بها نخوته [٢٥] (من عبد ا عمر أمير المؤمنين إلى العاص بن

---

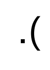
[١] فتوح مصر ابن المكة ص ١٦٥.

العاص سلام أما بعد فلعلمي ما تبالي إذا شبعت أنـت ومـن معك أن أهلك أنا ومن معي فياغوثاه ثم يا غوثاه).

فيكتب إليه عمرو بن العاص (لعبد ا عمر أميـر المؤمنين من عمرو بن العاص أما بعد فيا لبيك ثم يا لبيك قد بعثت إليك بعير أولها عندك وآخرها عندي والسـلام عليـك ورحمة ا).

يقول ابن الحكم (فبعث اليه بعيرا عظيمـة فكـان أولها بالمدينة وآخرها بمصر يتبع بعضها بعض فلما قـدمت على عمر وسع بها على الناس ودفع على كـل أهـل بيـت بالمدينة ولما حولها بعيرا بما عليه من الطعام وينحروا البعير فيألكوا لحمه ويأتدموا شحمه ويحتزوا جلده وينتفعوا بالوعاء الذي كان فيه الطعام فوسع بذلك على الناس فلما راي ذلـك عمر حمد ا وكتب إلى عمرو بن العاص يقدم عليـه هـو وجماعة من أهل مصر معه فقدموا عليه فقال عمـر : يـا عمرو أن ا قد فتح على المسلمين مصر وهي كثيرة الخير والطعام وقد ألقي في روعي لما أحببت مـن الرفـق بأهـل الحرمين والتوسعة عليهم حين فتح ا عليهم مصر وجعلهـا قوة لهم ولجميع المسلمين أن أحفر خليجا من نيلها حتى يسيل

في البحر فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلـى المدينـة ومكة فإن حمله على الظهر يبعد ولا تبلغ منه ما نريد فانطلق أنت وأصحابك فتشاوروا في ذلك حتى يقول فيه رأيكم فانطلق عمرو بن العاص وأخبر بذلك من كان معه من أهل مصـر فثقل ذلك عليهم وقالوا نتخوف أن يدخل في هذا ضرر على مصر فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين وتقول لـه أن هذا أمر لا يعتدل ولا يكون ولا نجد إليه سبيلا فرجع عمرو إلى عمر فضحك عمر حين رآه وأخبره بما ينوي أن يقـول من رفض أهل مصر فقال له عمرو صدقت يا أمير المؤمنين فقال له عمر أنطلق يا عمرو بعزيمة مني حتى تجد في ذلك ولا يأتي عليك الحول حتى تفرغ منه أن شاء ا فانصـرف عمر وجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه مـا أرد ثـم احتفـر الخليج الذي في حاشية الفسطاط الذي يقال له خلـيج أميـر المؤمنين فساقه من النيل إلى القلزم فلم يأت الحـول حتـى جرت فيه السفن تحمل فيه ما أراد من الطعام إلـى المدينـة ومكة فنفع ا بذلك أهل الحرمين وقد ندم عمرو بن العاص على حفر الخليج وقال اني مكنت عمر من هذا فخرب مصر ونقلها إلى المدنية).

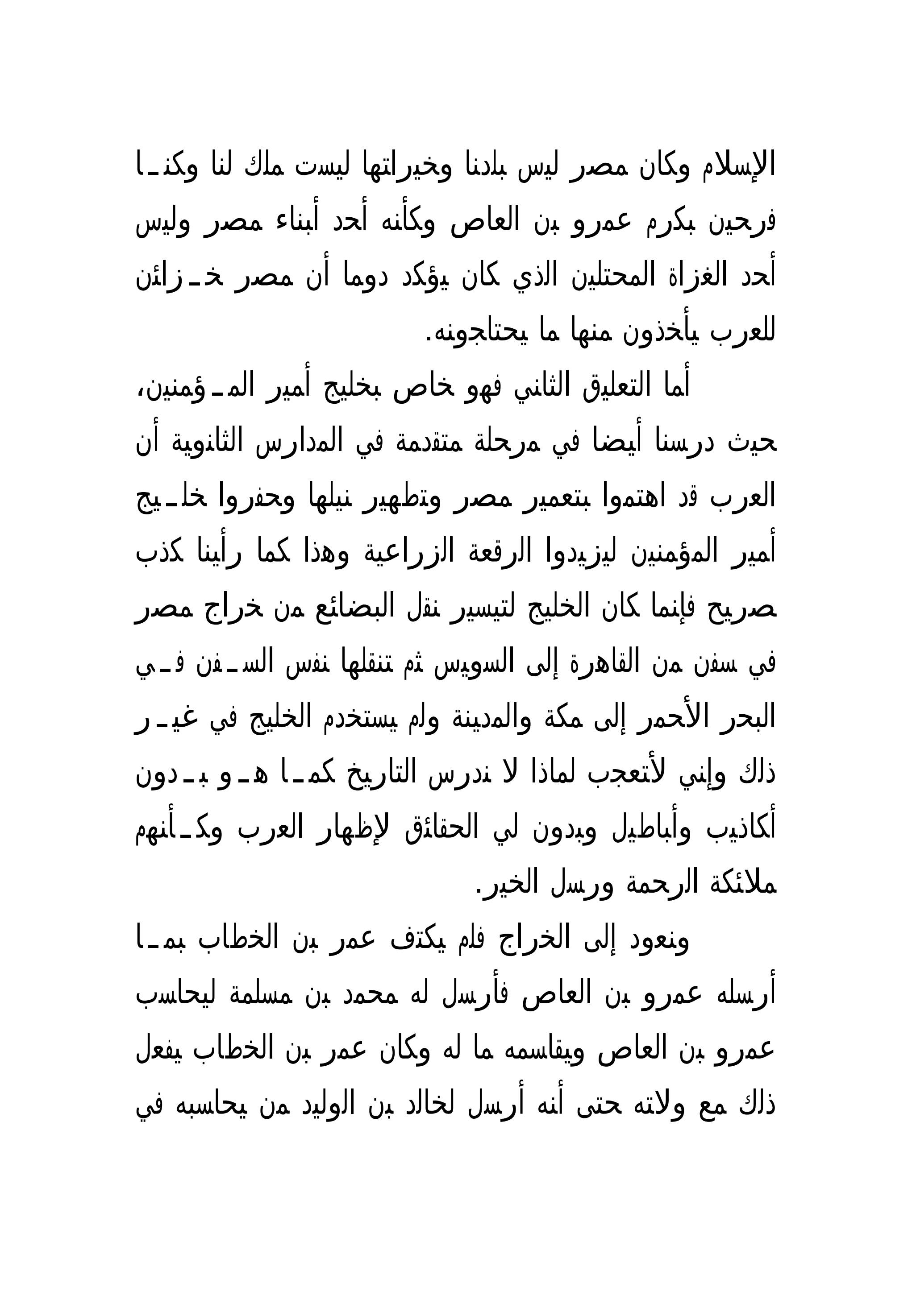


هذا ولنا تعليق على هذه الأحداث التعليق الأول فهو خاص بعام الرماده ولم نجد لهذا العام أثرا يذكر في التـاريخ ولكنه ألف في العصور المتأخرة حتى يبينـوا السـبب فـي استغاثة عمر بن الخطاب بعمرو بن العاص وكـان القصـد منها استنفار نخوته بأسرع ما يمكن خاصة إذا علمنـا بـأن عمرو بن العاص لم يكن بالحاكم الهين الجنـاح أو السـهل قبولا للذل ولم يكن يخشى أمير المؤمنين فهو يعمل حسـب النظام القبلي أنه من عليه القوم حسبا ونسبا وإن عمـر بـن الخطاب أقل منه منزله في الجاهليه من الناحية القبلية وإنـي لأتعجب أن يؤلف المؤرخون المحدثون قصة عـام الرمـادة ليفسروا نهب خيرات مصر بهذه الطريقة، إبل أولها عنـدك وآخرها عندي فالرمادة كلمة تطلق على رياح الهبوب التـي تهب كل سنة على الجزيرة العربية ولم تكن جديدة علـيهم، كما أنني أتساءل أين خراج فارس والعراق والشام ألم يكـن يكفي لملئ بطون عدة آلاف في المدينة ومكة حتى يلجـأون لنهب خيرات مصر بهذه الطريقة والأغرب من ذلـك أننـا درسنا هذه القصة في المدارس المصرية وكانت تحكي لنـا بطريقة رائعة تدل على التكافل الاجتماعي وتأكيد لاشتراكية

الإسلام وكان مصر ليس بلادنا وخيراتها ليست ملك لنا وكنـا فرحين بكرم عمرو بن العاص وكأنه أحد أبناء مصر وليس أحد الغزاة المحتلين الذي كان يؤكد دوما أن مصر خـزائن للعرب يأخذون منها ما يحتاجونه.

أما التعليق الثاني فهو خاص بخليج أمير المـؤمنين، حيث درسنا أيضا في مرحلة متقدمة في المدارس الثانوية أن العرب قد اهتموا بتعمير مصر وتطهير نيلها وحفروا خلـيج أمير المؤمنين ليزيدوا الرقعة الزراعية وهذا كما رأينا كذب صريح فإنما كان الخليج لتيسير نقل البضائع من خراج مصر في سفن من القاهرة إلى السويس ثم تنقلها نفس السـفن فـي البحر الأحمر إلى مكة والمدينة ولم يستخدم الخليج في غيـر ذلك وإني لأتعجب لماذا لا ندرس التاريخ كمـا هـو بـدون أكاذيب وأباطيل وبدون لي الحقائق لإظهار العرب وكـأنهم ملائكة الرحمة ورسل الخير.

ونعود إلى الخراج فلم يكتف عمر بن الخطاب بمـا أرسله عمرو بن العاص فأرسل له محمد بن مسلمة ليحاسب عمرو بن العاص ويقاسمه ما له وكان عمر بن الخطاب يفعل ذلك مع ولاته حتى أنه أرسل لخالد بن الوليد من يحاسبه في



الشام وأمره أن ينزل عن نصف ما له حتى لقد قيل أنه أخـذ منه إحدى نعليه وقد أشار عليه بعضهم برد ما أخذ منه فقال عمر لهم (وا ما أرد شيئًا فإنما أنا تاجر للمسلمين) [٢٦].

وهكذا فقد حدد عمر بن الخطاب وظيفته الأساسـية فلم يهتم بإعلاء شأن الدين وإقامة المساجد والمدارس العلمية إنما كانت أهدافه واضحة لأمراء فيـه ولـم يكتـف أميـر المؤمنين بذلك أيضا فقد أرسل عبد ا بن سعد حاكما علـى صعيد مصر مع عمرو بن العاص وتذكر الكتب أنه جمع من الصعيد وحدة أربعة عشر ألف ألف دينار أي أكثر من خراج مصر كله الذي كان يرسله عمرو بن العاص وهو اثني عشر ألف ألف حتى قال في ذلك عمرو بن العاص قولته المشهور عنه (إنني أمسك بقرون البقرة ويحلبها عبد ا بن سـعد) وهكذا أصبحت مصر بقره حلوب لغزاتها من العرب حتـى أنه عندما عزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عين مكانه عبد ا بن سعد الذي سبق وعينة عمر بن الخطـاب علـى صعيد مصر فقد اجتهد عبد ا بن سعد ليثبت لعثمـان بـن عفان أنه وفق في اختياره فقسي على المصريين قسوة شديدة

---

[١] فتح العرب لمصر ص ٤٧٤.

وضاعف الخراج منها وعندها قال عثمان بن عفان لعمـرو بن العاص عندما وصله الخراج الزائد من عبد ا بن سـعد (إن اللقاح بمصر بعدك قد درت ألبانها).

فقال عمرو (ولكنها أعجفت فصيلها) وقـد روى عروة بن الزبير (ان الناس كان يفرض عليهم مالا طاقة لهم به فأذاهم ذلك مع أن عمرو بن العاص كان قد عقد لهم عقدا جعله لهم فيه شروط معلومة) [٢٧] ويقول المقريزي (كيف نزيد عليهم وفي عهدهم أن لا يزاد عليهم شيء).

وقد استمر الأمر على ذلك حتى أن الخليفة عمر بن عبد العزيز الملقب بالخليفة الخامس قد كتب عنه المقريـزي بالنص (كتب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن شـريح أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم وهذا يدل على أن عمر كان يرى إن أرض مصر فتحت عنوه وإن الجزية إنما هـي على القرى فمن مات من أهل القرى كانت تلك الجزية ثابتة عليهم وإن موت من مات منهم لا يصنع عنهم الجزية شيئًا)

([27]) البلازدي ص ٢١٧.

فالجزية تؤخذ حتى على من مـات وعلـى ورثتـه إن يدفعوها وهم صاغرين.[٢٨]

أما ما فعلة عبد ا بن سعد مع أهل النوبـة فحـدث ولا حرج فقد قامت حرب بينهم وبين عمـرو بـن العـاص فتركهم عمرو لعلمه إن أرضهم ضيقة ولن يأتي منها الخراج المرجو ولم يحاربهم بعدها ولكن عندما تولى عبـد ا بـن سعد حارب أهل النوبة حربا طويلة وتم عمل معاهدة معهـم كان أهم شرط فيها أن، يعطي النوبيون ثلاثمائة فتاة بكر كل سنة هدية للعرب بدل الخراج على أن يتوفر لهم حرية دخول مصر والخروج منها وهكذا يضـرب العـرب أروع أمثلـة الجهاد في فتوحاتهم الإسلامية في مصر وأنني أزعم أن كلمة الغزو أو الاحتلال أفضل في المعنى من كلمة الفتح لأن كلمة الفتح معناها في اللغة المتعارف في سياقها الصحيح في ذلك الوقت تعني فتح الخزائن والكنوز نقلاً عن الحديث الشـريف للرسول ﷺ فإن عبد ا عمرو قال (خرج رسـول ا ﷺ إلى الخندق وهم يحفرون حول المدينة فتناول رسول

---

(28) ابن الحكم.

ا الفأس فضرب ضربة فقال هذه الضربة يفتح ا بها كنوز الروم ثم ضرب الثانية فقال بهذه يفتح بها كنوز فـارس ثـم ضرب الثالثة فقال هذه الضربة يأتي ا بأهل اليمن أعوانًـا وأنصارا).

غلظة عمر بن الخطاب:

عرف عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب غلظتـه الشديدة وخشونته في التعامل مع الآخرين حتى أن صـحابة رسول ا حذروا أبو بكر عندما اختاره خليفة له وقالوا لـه [٢٩] (أنك كنت تأخذ على يديه ولا نطيق غلاظته فكيف وهو خليفة؟) لكن أبو بكر خليفة رسول ا كان لـه رأي آخـر وكأنه قصد أن من يأتي بعده يكون بشدة وغلاظة عمـر بـن الخطاب حتى أنه قال له بعد اختيـاره وهـو ينصـحه [٣٠] (هؤلاء النفر من أصحاب رسول ا الـذين قـد انتفخـت أجوافهم، وطمحت أبصارهم، وأحب كل امرئ منهم لنفسـه،

([29]) العبقريات العقاد ص ١٤٨.

([30]) نفس المرجع.

أن لهم لحيرة عند ذلة وأحد منهم، فإياك أن تكونـه، وأعلـم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت ا ولك مسـتقيمين مـا استقامت طريقتك).

وكان عمر بن الخطاب قليل الفكاهة ولكنه إذا تفكـه فإن فكاهته تنسجم مع غلظته ويحكـي الـرواة أن الشـاعر الحطيئة كان كثير الهجاء للعرب فيعطونه حتى لا يهجـوهم في شعره فأحضره عمر بن الخطاب وأجلسه علـى كرسـي أمامه وطلب سكين وموسى ليقطع بها لسـانه علـى سـبيل التهديد فخاف الحطيئة وارتعب وتشفع له الحاضرون، ولـم يتركه حتى أخذ عليه عهدا بألا يهجو أحدا بعدها فما هجا أحد وعمر حي ومر يوما بابنه عاصم وخادمه أسلم وكانا يغنيان غناء يشبه الحداء فوقف يستمع وشجعهما إصغاؤه فسـألاه: أينا أحسن صنعة؟ فقال مثلكما كمثل حماري.

ومن غلظته أنه عزل خالد بن الوليد رغم ما قدمـه من فتوحات ورغم علو همته في الحرب والقتال وكان سبب عزله حسب ما قاله عمر: حتى لا يفتن الناس فيه رغـم أن هذا ظلم لخالد فهو يؤدي عمله وواجبه كجندي ونفس الشيء فعله مع نصر بن حجاج مع اختلاف الصفة فإن النساء كانت

تفتن بنصر بن حجاج لجماله وحسن طلعته فأرسل يسـتدعيه وأمره بحلق شعره فظهر جبينه ووجنتاه فازداد حسنا، ثم أمر أن يلبس عمامة فزادته العمامة زينة وغواية فقال: لا سـكن معي رجل تهتف به العواتق في خدورها وأرسله إلى البصرة ليعمل في تجارة تشغله عن النساء، وتشغل النساء عنه [٣١].

ورغم ذلك فإنه عندما عارض أبو بكر الصديق فـي حروب الردة قال له أبو بكر: رجـوت نَصـرتك وجئتنـي بخذلانك؟ إجبار في الجاهلية وخوار في الإسلام؟

ولكن عباس العقاد في عبقرية عمـر يجـد تفسـيرا غريبا لخشونته وغلاظته، تفسيرا لا يخضع لقياس عقلـي ولا نفسي ولا سلوكي ولكنه يسير كالآخرين في قلب السيئات إلى حسنات وتحويل الحسنات إلى فضائل دون منطـق فيقـول العقاد وهو يبرر قتله لابنه عبد الرحمن عندما حـده علـى الخمر: (لا يعنى ذلك أنه كان خشن الملبس صعب الشكيمة جافيا في القول إذا استغضب واستثير، فليست الخشونة نقيضا للرحمة، وليست النعومة نقيضـا للقسـوة ولـيس الـذين لا يستثارون ولا يستغضبون بأرحم الناس. فقد يكون الرجـل

---

[١] العقاد ـ العبقريات ص ٥٤.

ناعما وهو منطو على العنف والبغضاء ويكون الرجل خشنا وهو أعطف خلق ا على الضعفاء بل كثيـرا مـا تكـون الخشونة الظاهرة نقابا يستنير به الرجل القوي فـرار مـن مظنه الضعف الذي يساوره من قبل الرحمـة، فـلا تكـون مداراة الرقة إلا علامة على وجودها وحذرا من ظهرهـا) [٣٢].

إن ما قاله العقاد يناقض كل جملة فيـه مـا قبلهـا بالإضافة إلى أن كل تركيب منها هي أعراض من المـرض نفسي وما كنا نحب أن يسقط العقاد هذه السقطة ولكنه رغـم ذلك يرد على المستشرقين الذين وصفوا عمر بن الخطـاب بأنه محدود التفكير فيقول [٣٣]: (فبعض المستشرقين الـذين أثنوا عليه قد عرضوا لأمر تفكيره فوصـفوه بأنـه محـدود التفكير، ـ أو أنه يأخذ الأمور بمقياس واحد لكن عمر كـان رجلاً قويا جياش الطباع، شديد الشـكيمة، مـؤمن بـالحق وحرماته قادر على تقويم من يحيد عنها ويجترئ عليها. فإن لم يكن هذا غيورا فمن يكون الغيور؟).

---

[١] العقاد العبقريات ص ٢٨.

[١] العقاد العبقريات.

لقد كانت غيره عمر معروفة فخشيه جميع النـاس خاصة من النساء فقد دخل عمر بن الخطـاب يومـا علـى رسول ا ﷺ وكانت معه نسوة يضحكن ويعلو صـوتهن وعندما رأين عمر لبسن الحجاب فضحك رسـول ا ﷺ فقال عمر: أضحك ا سنك يا رسول ا فقال عليه السـلام عجبت من هؤلاء النسوة لما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب. فقال عمر: فأنت يا رسول ا كنت أحق أن يهبن ثم التفـت إليهم يقول: أي عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول ا ؟ فقلن نعم أنت أغلظ وأفظ من رسول ا .

وكان عمر بن الخطاب هو الذي اشار علـى النبـي ﷺ بحجاب امهات المسلمين وكان يـرى إحـداهن فـي الظلام ذاهبة لبعض شأنه فيقول لها [٣٤]: عرفتك يا فلانـة: ليرها أنها في حاجة إلى مزيد من التحجب فضجرت إحداهن منه لهذا فقالت له: وإنك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل في بيوتنا؟ وكان عمر بن الخطاب يتدخل فيما لا يعنيه حتى إنه كان يتدخل بين الرسول وزوجاته وقد روى أنس بن مالك

---

[١] العواصم من القواصم.

عن عمر بن الخطاب أنه قال للرسول ﷺ [٣٥] (يا رسول ا لو ضربت على نسائك فإنه يدخل عليهم البر والفاجر فأنزل ا وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب) ودخل على أزواج النبي فقال لتنتهين أو ليبدله ا بأزواج خيرا منكن فنزلت الآية (عسى أن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن). ونفس القول في تفسير ابن كثير [٣٦] (عن أنس قال عمر بن الخطاب بلغني شيء كان بين أمهات المؤمنين وبين النبي فاستقريتهن أقول لتكفن عن رسول ا أو ليبدله ا أزواجا خيرا منكن حتى أتيت على آخر أمهات المسلمين فقالت يا عمر أما في رسول ا ما يعظ نساءه حتى تعظهن؟ فأمسكت فأنزل ا عز وجل آية (عسى ربه إن طلقكن..).

ولأن أم سلمة زوجة رسول ا ﷺ عريقة النسب والحسب ولسمو شرفها ولحظوتها عند رسول ا ﷺ لحسنها وجمالها استطاعت أن تواجه عمر بن الخطاب وتنتقد

([35]) النص المؤسس خليل عبد الكريم ص ٢٢٤.

([36]) تفسير ابن كثير.

مسلكه حتى كسرته كما قال فقد قال عمر [٣٧] (حتى دخلت على أم سلمة فكلمتها فقالت أم سلمة عجبـا لـك يـا ابـن الخطاب، دخلت في كل شيء حتى تبتغـي أن تـدخل بـين رسول ا وأزواجه فأخذتني وا أخذا كسرتني عن بعض ما كنت أجد فخرجت من عندها).

ورغم هذا لم ينتهي عمر بن الخطاب عن التدخل بين الرسول وزوجاته فتحكي السيدة عائشة [٣٨]: (كنت آكل مع النبي في قعب " طبق " فمر عمر فدعاه فأصـابت إصـبعه إصبعي فقال (حس أو.. أوه) لو أطاع فيكن ما رأتكن عين فنزلت آية الحجاب) وهذا الحديث أخرجه الطبرانـي بسـند صحيح.

ومن عنف عمر وغلاظته أنه أشار علـى الرسـول ﷺ بقتل أسرى قريش في غزوة بدر بينما أشار أبو بكـر بالرفق بهم وأخذ الفداء منهم فوافق الرسول أبا بكر ولم يأخذ بمشوروة عمر بن الخطاب الذي أشار بضـرورة ضـرب

([37]) أم سلمة لأمينة أفريان ص ١٥٣.

([38]) تفسير القرطبي المجلد الثاني ص ٢١٨.

أعناقهم لأن صفحتهم معه سوداء حالكة يقول ابن عمـر [٣٩] (استشار رسول ا في الأسرى أبـا بكـر فقـال: قومـك وعشيرتك خل سبيلهم واستشار عمر فقال اقـتلهم ففـاداهم رسول ا فأنزل ا تعالى: (ما كان لنبـي أن يكـون لـه أسرى حتى يسخن في الأرض) فقال الرسول لعمر: لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه أحد إلا ابن الخطاب وذلك بعد أن غضب عمر بن الخطاب لأن الرسول ﷺ لـم يأخـذ برأيه.

ونفس القصة جاءت على لسان أنس ابن مالك فـي لباب القول للسيوطي الذي نقل عن أحمد بن حنبل.

ويتساءل الشيخ العلامة خليل عبد الكريم في كتابـة (النص المؤسس ومجتمعة) فيقول ص ٢٣٤ (أن الرسول دأب على استشارة أبا بكر وعمر ومن ثـم فهمـا وزيـراه والأمر بالنسبة لأبي بكر طبيعي أو بديهي إنما بالنسبة إلـى عمر فهو مثار تساؤل : ولماذا خصه الرسول ﷺ بهـذه الرتبة من دون الصحابة مع أن بينهم من هو أسبق منه فـي

([39]) أسباب النزول ص ١٦٠.

اعتناق الديانة التي بشر بها ومنهم من ولد قبله ومـنهم مـن ينتسب لفرع أطول قامة من رهطة بني عدي في قبيلة بنـي سخينة ومنهم من هو أعلم منه وأحفظ للقرآن العظـيم؟ هـل بسبب قوة شخصيته التي أطبق الجميع عليها. أم لأن الإسلام تعزر واستعلن المسلمون بعد تواريهم عن الأنظار فـي دار الأرقم بن أبي الأرقم؟ أم أنه من الجائز إنه يتمتـع شخصـه بقوة الأسر ومتانة البنيان وفتل الزراعيين وشدة العضل ثـم تبلوه فتلقاه فطير الرأي أفين العقل ركيـك الفكـر، هزيـل القريحة، ضيق الأفق، أعشى البصيرة! وعلى كل فإن تقريب عمر بن الخطاب دون غيره من الصحابة رغم ما تمتعوا به من شمائل أحجية من أحاجي التاريخ الإسلامي)

وإني لا تساءل بدوري أين كانت شـدة عمـر بـن الخطاب عندما ترك رسول ا ﷺ في غزوة احد واختبـأ في حفرة في قمة الجبل هو وأبو بكر وكثير مـن الصـحابة وتركوا رسول ا ﷺ لا يحميه إلا طلحة وحده من المشركين بعد قتل حمزة بن عبد المطلب وظل طلحة يدافع عنه ويحميه حتى سخنت كل جراحه وكلما فر أحد المسلمين هاربا إلـى الصخرة مارا برسول ا يطلب منه الرسول أن يرمي نباله

لطلحة وأين كانت شدة عمر بن الخطاب عندما طلب أبو بكر محاربة المرتدين عن دفع الزكاة حيث قال له عمـر يطلـب منه عدم قتالهم [٤٠] (إن رسول ا كان يقاتل العرب بالوحي والملائكة يمده ا بهم وقد انقطع ذلك اليـوم فـالزم بيتـك ومسجدك فإنه لا طاقة لك بقتال العرب) فقال له أبو بكر أن كثر أعداؤكم وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركـب؟ وا لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه واستعنت علـيهم بـا وهو خير معين ثم قال قولته المشهورة لعمر (إجبـار فـي الجاهلية خوار في الإسلام).

هذا عن شدته فأين كان لينه وهو يقيم الحد على ابنه عبد الرحمن على شربه الخمر هو وأبا سـروعة رغـم أن عمرو بن العاص قد أقام عليهما الحد في مصر ولكن لرغبة لا نعلمها عنده طلب ابنه ليأتيه من مصر وأقام عليـه الحـد مرة ثانية وهو يعلم أن ابنه مريض وقد قال له " إني مريض وأنك لقاتلي " ورغم ذلك استمر الحد حتى مات ولم يتوقـف بعد موته. هل هذا هو اللين أم الغلظة؟ وكيف يخالف شـرع ا ويقيم الحد مرتين على عقوبة واحدة؟ ولماذا جاء بابنـه

([40]) العبقريات العقاد ص ٩.

عبد الرحمن ولم يأت بأبي سروعة الذي شرب الخمر معـه؟ وكيف يطبق الحد على واحد دون آخر رغم أنهما اشتركا في نفس الفعل وحدهما عمرو بن العاص معا أمام ابنـه الآخـر عبد ا بن عمر الذي كان موجودا في مصر.

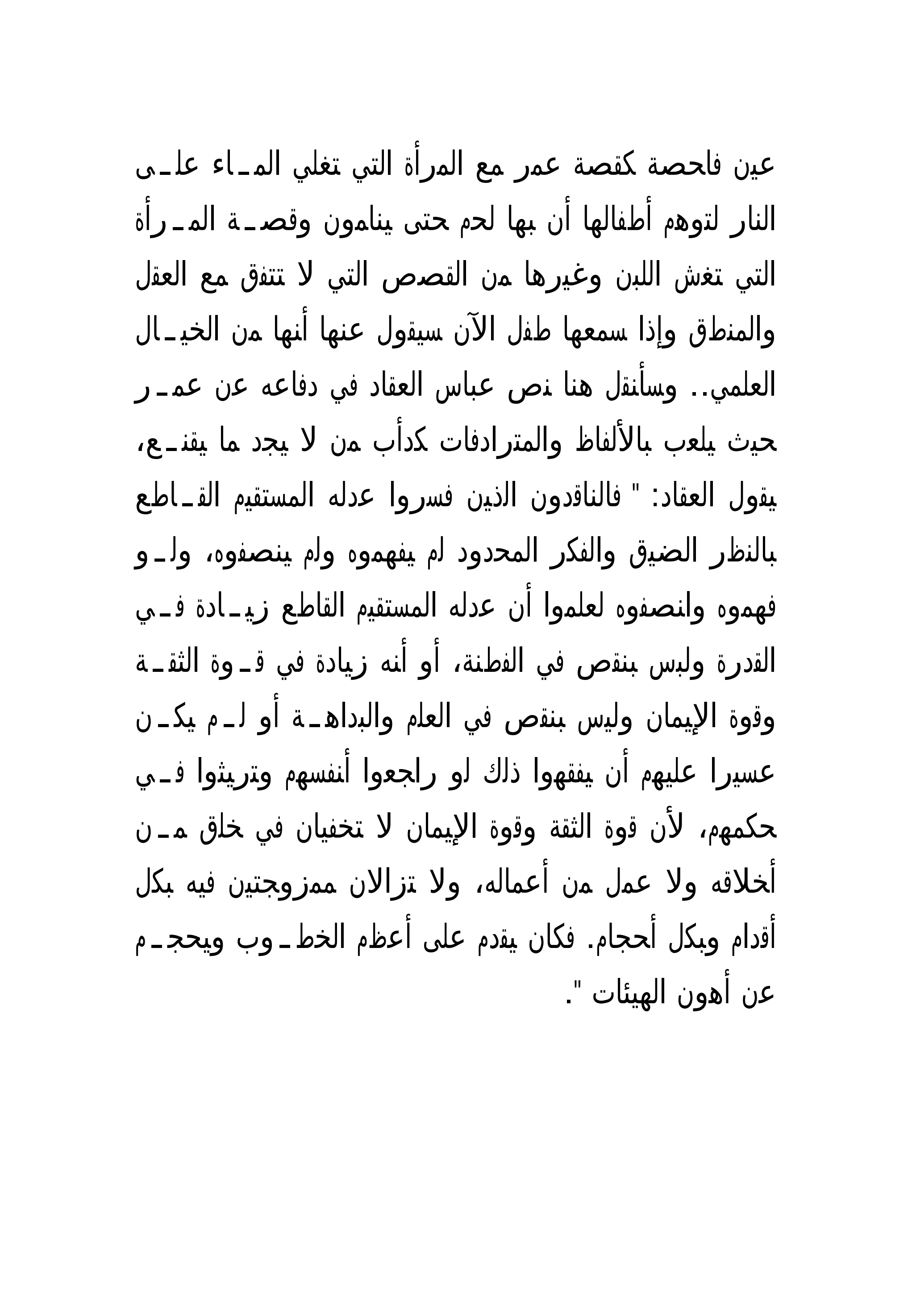
إن الظلم لا يستقيم مع العدل والخشونة لا تستقيم مع اللين فكلاهما ضدان والعدل والرحمة لا يستقيمان مع الظلـم ولكن أقامه الظلم ليشتهر بالعدل هذا هو التفسير الحقيقي لهذه الحالة. خاصة إذا علمنا أن عمر كان لا يهـتم بإقامـة حـد الخمر بهذا العنف، فقد حضر عمر إقامة الحد على شـارب سكران وكان الذي يضربه مطيع الأسود العبـدي وبعـد أن ضربة ستين ضربة [٤١] وغضب على أبي موسى الأشعري حين جلد شاربا وحلق شعره وسود وجهه وكان أبو موسـى وإليا فذهب الرجل يشكو إلى عمر بـن الخطـاب فـأعطى الشاكي مائتي درهم وكتب إلى أبي موسـى " لـئن عـدت لأسودن وجهك ولأطوفن بك في الناس ".

وفي قصة أخرى أنه تفقد رجلا يعرفه فقيل له إنـه يتابع الشراب فكتب للرجل " إنني أحمد إليك ا الذي لا إلـه

([41]) العبقريات صـ ٢٦.

إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطـول لا إله إلا هو إليه المصير " فلم يزل الرجل يرددها ويبكي حتى صحت توبته، وبلغت توبته عمر فقال لمن حضروا مجلسة: " هكذا فاصنعوا. إذ رأيتم أخا لكم زل زلة فسـددوه ووفقـوا وأدعو ا يتوب عليه، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه " [42] فلماذا إذن أقام الحد بهذه القسوة على ابنه وترك زميله ولماذا تساهل مع الآخرين وقبل توبتهم هذه أسئلة لا تخفي أجابتهـا على كل مدقق " وأنني لأتعجب من التناقض فـي شخصـية عمر بن الخطاب كما أعجب بدفاع عباس محمود العقاد عن هذا التناقض الذي لا ينسجم مع أي رأي سديد ونسـتطيع أن نعزر عمر بن الخطاب على التناقض لأنها شخصيته وهكـذا هو كان، أما العقاد فلا مبرر لتناقضه ولي الحقائق لصـالح فكره يحاول فيها جاهدا أن يقنعنا بها رغم ما فيها من عـور ونقض لقد سقط العقاد فيما سقط فيـه كثيـر مـن الكتـاب المحدثين الذين استسهلوا النقل دون أعمال الفكر فيه وأخذوا عن الناقلين من العصور المتأخرة ولم ينقلوا مـن الأوائـل واهتموا كالعامة بالقصص المؤلفة التي لا تخفـي علـى أي

([42]) العبقريات صـ ٢٧.



عين فاحصة كقصة عمر مع المرأة التي تغلي الماء على النار لتوهم أطفالها أن بها لحم حتى ينامون وقصة المرأة التي تغش اللبن وغيرها من القصص التي لا تتفق مع العقل والمنطق وإذا سمعها طفل الآن سيقول عنها أنها من الخيال العلمي.. وسأنقل هنا نص عباس العقاد في دفاعه عن عمر حيث يلعب بالألفاظ والمترادفات كدأب من لا يجد ما يقنع، يقول العقاد: " فالناقدون الذين فسروا عدله المستقيم القاطع بالنظر الضيق والفكر المحدود لم يفهموه ولم ينصفوه، ولو فهموه وانصفوه لعلموا أن عدله المستقيم القاطع زيادة في القدرة ولبس بنقص في الفطنة، أو أنه زيادة في قوة الثقة وقوة الإيمان وليس بنقص في العلم والبداهة أو لم يكن عسيرا عليهم أن يفقهوا ذلك لو راجعوا أنفسهم وتريثوا في حكمهم، لأن قوة الثقة وقوة الإيمان لا تخفيان في خلق من أخلاقه ولا عمل من أعماله، ولا تزالان ممزوجتين فيه بكل أقدام وبكل أحجام. فكان يقدم على أعظم الخطوب ويحجم عن أهون الهيئات ".

إيمان عمر بن الخطاب بالخرافات:

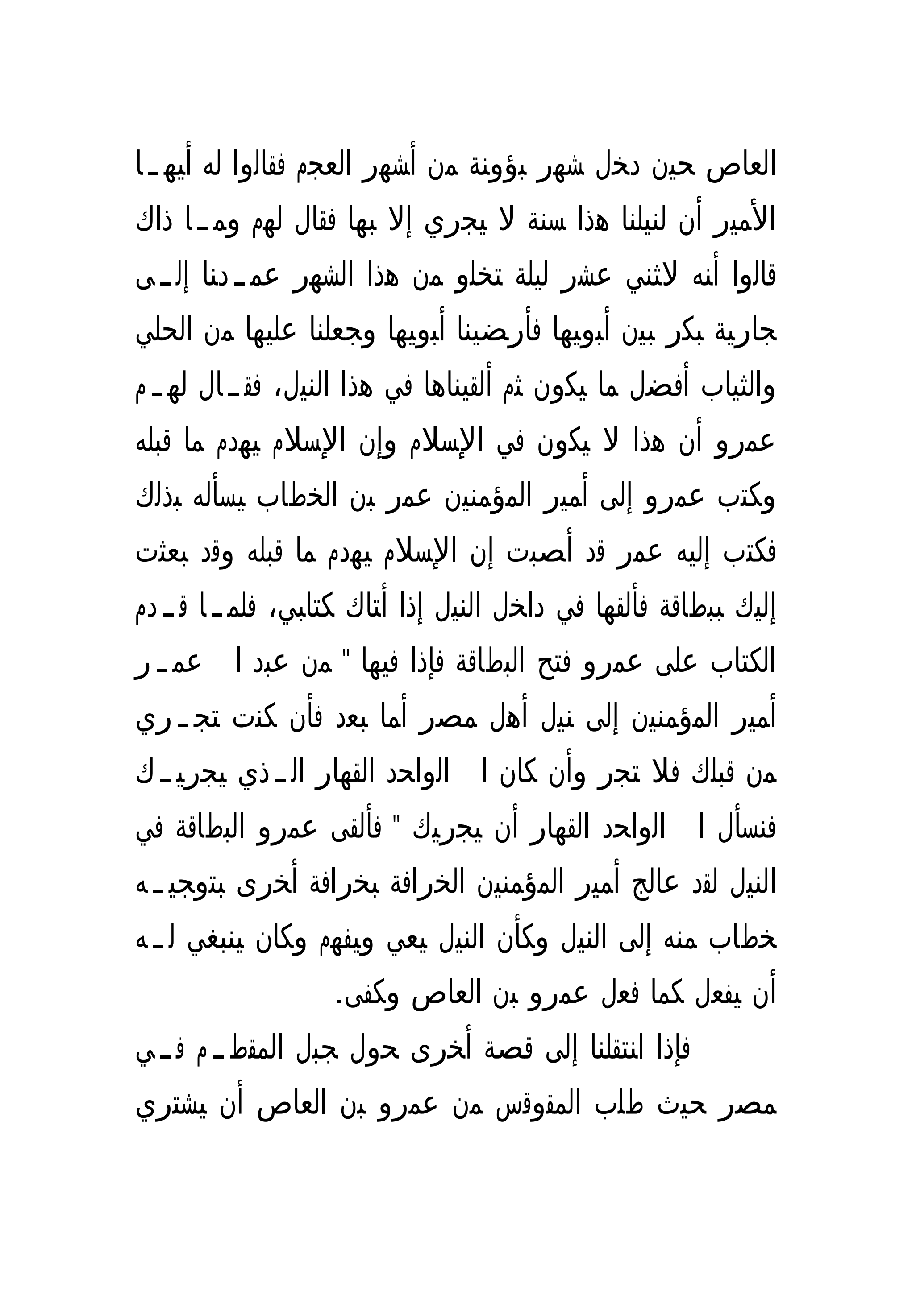
لقد جاء الإسلام ليقضي على الخرافات التي كانـت سائدة في الجزيرة العربية فلقد جاء الحق وزهق الباطل، وما جاء القرآن إلا ليمحو الجهل والحمق وكان القـرآن الكـريم حريصا على إبراز أهمية العلم، والعلم الذي كـان يقصـده القرآن هو العلم الذي يصنع الحضارة وينتج أدوات الإنتـاج مثل الكيمياء والفيزياء والرياضة والفلسفة والفلـك والطـب، لذلك أكدت الرسالة المحمدية على أهمية العلم فجعله فريضة عامة على كل مسلم ومسلمة، فريضة لا تسقط كغيرها مـن الفرائض التي قد تسقط للمضطر مثل المـريض والمسـافر والفقير وغيرهم من أصحاب الحاجة والاضطرار، كما تشهد الآيات الاهتمام البالغ بأهمية العقل والتفكير الذي هو صـفة من صفاته في معظم نهايات الآيات القرآنية بقولـه " لقـوم يعقلون " و " لقوم يعلمون ".

فإذا جاء أمير المؤمنين عمر بـن الخطـاب وهـو الخليفة الثاني والوزير الثاني لرسوله الكريم بعد أبـي بكـر

حيث يتفق جمهور الفقهاء على أن أبا بكر وعمر رضي ا
عنهما هما وزيرا النبي ﷺ إذا جاء عمر بن الخطـاب بمـا
يخالف كتاب ا وأحاديث نبيه في إغفال دور العلم والاهتمام
بالخرافات التي جاء الدين من أجل القضاء عليها فتاك مشكلة
لا ينبغي السكوت عنها بل ينبغي توضيحها وإلقـاء الضـوء
عليها لأنها مخالفة لما يعتقده الكثير، ومخالفة للحقيقة ونحـن
نذكر الحقيقة ولا شيء أكثر من الحقيقة لأنهـا أم المعرفـة
وكما قلنا من قبل أن هذا لا يعد طعنا في أمير المؤمنين ولا
تقليلا من شأنه فهو في الأول والآخر بشر يخطئ ويصـيب
وليس معصوما كما بينا من قبل.

يحكي لنا التاريخ أن بعض المصريين فـي جنـوب
الوادي كانوا يحتفلون بفيضان النيل بإلقاء إحدى الفتيات فيـه
حتى يفيض بمياهه وكانت هذه العادة قد انمحت من شـمال
الدلتا حتى نصف الصعيد وكانوا يلقون بدلا منها تمثال على
هيئة فتاة لكن بقى جنوب الصعيد يفعل ذلـك حتـى دخـول
العرب مصر ويحدثنا أبن الحكم حول هذه القصة فيقول [٤٣]
" لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إلى عمرو بـن

([43]) فتوح مصر وأخبارها صـ ١٥٠.



العاص حين دخل شهر بؤونة من أشهر العجم فقالوا له أيها الأمير أن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها فقال لهم وما ذاك قالوا أنه لاثني عشر ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في هذا النيل، فقال لهم عمرو أن هذا لا يكون في الإسلام وإن الإسلام يهدم ما قبله وكتب عمرو إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يسأله بذلك فكتب إليه عمر قد أصبت إن الإسلام يهدم ما قبله وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها في داخل النيل إذا أتاك كتابي، فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فإذا فيها " من عبد ا عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر أما بعد فأن كنت تجري من قبلك فلا تجر وأن كان ا الواحد القهار الذي يجريك فنسأل ا الواحد القهار أن يجريك " فألقى عمرو البطاقة في النيل لقد عالج أمير المؤمنين الخرافة بخرافة أخرى بتوجيه خطاب منه إلى النيل وكأن النيل يعي ويفهم وكان ينبغي له أن يفعل كما فعل عمرو بن العاص وكفى.

فإذا انتقلنا إلى قصة أخرى حول جبل المقطم في مصر حيث طلب المقوقس من عمرو بن العاص أن يشتري

منه سطح جبل المقطم بسبعين ألف دينار فعجب عمرو مـن ذلك وقال له اكتب في ذلك لأمير المؤمنين، فكتب إليه عمـر سله لم أعطاك ما أعطاك، وهي لا تزرع ولا يسـتنبط بهـا ماء، ولا ينتفع بها، فسأله فقال: إنا لنجد صفتها في الكتب إن فيها غراس الجنة، فكتب بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر إنـا لا نعلم غراس الجنة إلا للمؤمنين فأجر فيها من مات قبلـك من المسلمين، أن أمير المؤمنين صدق أن بها غراس الجنـة ثم أنه أراد أن يكون هذا المكان للمسلمين فقط دون غيـرهم وهذا رغم أنه خرافة، فيه أيضا اسـتعلاء علـى أصـحاب الأرض، هذا ومن ناحية أخرى فقد كان يتفـاءل ويتشـاءم وينظر في الروي والمنامات، ويروي عنـه فـي روايـات متواترة أنه أنبئ بموته في منام، وأنه رأي كان ديكا ينقـره نقرتين، وفسروا له الديك برجل من العجم يطعنه طعنتـين، وروى محارب [٤٤] من دثار عنه أنه سأل رجلا من أنـت؟ فقال قاضي دمشق، قال: كيف تقضي؟ قال: أقضي بكتاب ا فأسأله: وإذا جاءك ما ليس في كتاب ا ؟ فأجابـه: أقضـي بسنة رسول ا ، فأسأله: وإذا جاءك ما ليس في سنة رسول

([44]) العبقريات صـ ٦٢.

ا ؟ قال: أجتهد برأي فأستحسن قوله ثم رجع القاضي بعـد فترة فسأله عمر: ما أرجعك! قال: رأيت الشـمس والقمـر يقتتلان، مع كل واحد منهما جنود من الكواكب فسأله عمـر: مع أيهما كنت؟

فقال: مع القمر!!

فتأمل قليلا ثم ذكر قوله تعالى:

" وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار "

ثم قال: لا تلي لي عملا وقد تشاءم من الرجل.

الجندي المطيع

كان رسول ا ﷺ رجل دولة من الطراز الأول فكان يجيد توزيع الأدوار على صحابته فهذا أبو بكر الحليم المسن يؤم الناس في الصلاة إذا مرض وهذا عمر صـاحب القـوة الغاشمة يستخدمه في حث المسلمين على الاستعداد للجهـاد والغزوات وينظم صفوفهم أما رسم خطة الغزوة فكان يضعها رسول ا مع أهل المدينة لأنهم كانوا أهل حرب وقتال وهذا علي بن أبي طالب الرائحة الذكية بين صـحابته وصـاحب الفتوة في القتال يقدمه في الصفوف لنزال الأعداء وهكذا لكل واحد دوره الذي يجيده.

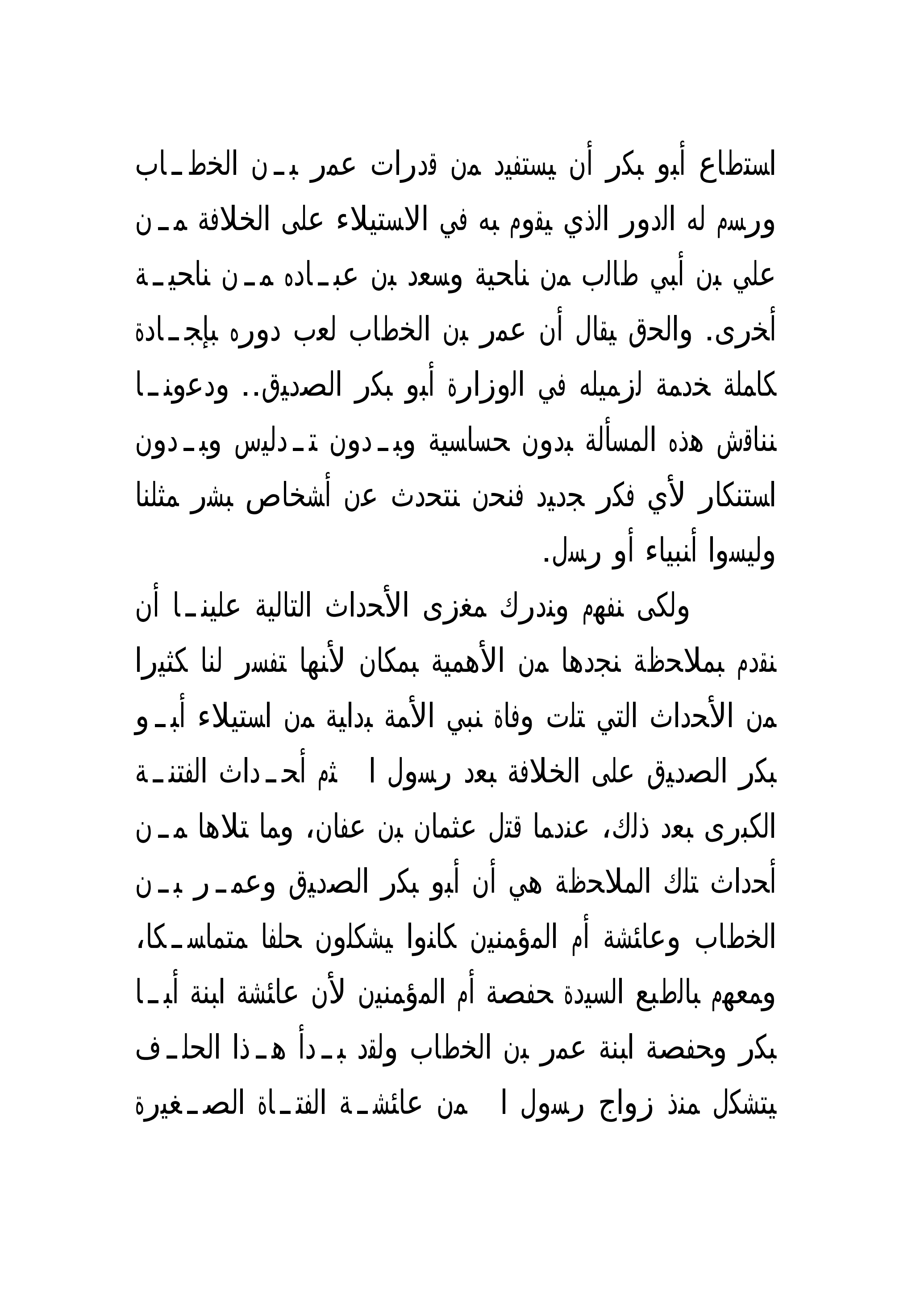
وكان عمر بن الخطاب يملك كل صـفات الجنـدي المطيع لرسول ا ومن بعده أبو بكر فكـان مطيعـا منفـذا للأوامر بدون تردد وكانا يحتملان خشونته لما يتحلى به من ميزات تحقق الهدف منه.

وكانت طبيعة الجندي غالبة عليه حتى أنهـا كانـت متأصلة فيه فكان مهتما بالنظام والترتيب فكان يصلي بالناس

لكنه لا تقيم الصلاة حتى يطمئن إلى وقوفهم صفوفا متساوية ولم يكتف بذلك بل خصص رجلا ليساوي صفوفهم، بطريقة تدل على الاهتمام بالتفاصيل أكثر من اهتمامه بالهدف منها، وكان إذا دخل المسجد في رمضان وجد الناس يلتفون حلقات حول بعض قارئي القرآن، فكان يجمعهم على قارئ واحـد، وكان إذا وقف على المنبر ليخطب فأنه يترك الدرجة العلوية لأن أبا بكر كان يقف عليها فيقف على السفلى منهـا وكـان يحمل الدرة لينبه المخالفين في الطريـق ويـذكرهم بهيبـة القانون وينهي الولاة إذا اتكئوا وهم جلوس وكان يقول مـن كثر ضحكه قلت هيبته وكان يمشي شديد الوطء على الأرض جهوري الصوت كما يمشي الجنود وكما يتكلمون.

تلك الصفات كانت صفاته وهي تأخذنا إلى أنه كـان يهتم بالتفاصيل الصغيرة وهذه سمة مـن سـمات الرجـال التابعين وليس القادة لأن القائد يكون مشغولا بالعموميات أو التوازنات ويترك الأمور الصغيرة للتابعين له أما القدرة على التفكير الشامل فهي من سمات المبدعين والعباقرة.

ومن طبيعة الجندي أن يقوم بالأدوار التي يكلفه بهـا القادة دون تفكير وهذا ما حدث بعد وفاة الرسـول ﷺ فقـد


استطاع أبو بكر أن يستفيد من قدرات عمر بـن الخطـاب ورسم له الدور الذي يقوم به في الاستيلاء على الخلافة مـن علي بن أبي طالب من ناحية وسعد بن عبـاده مـن ناحيـة أخرى. والحق يقال أن عمر بن الخطاب لعب دوره بإجـادة كاملة خدمة لزميله في الوزارة أبو بكر الصديق.. ودعونـا نناقش هذه المسألة بدون حساسية وبـدون تـدليس وبـدون استنكار لأي فكر جديد فنحن نتحدث عن أشخاص بشر مثلنا وليسوا أنبياء أو رسل.

ولكى نفهم وندرك مغزى الأحداث التالية علينـا أن نقدم بملاحظة نجدها من الأهمية بمكان لأنها تفسر لنا كثيرا من الأحداث التي تلت وفاة نبي الأمة بداية من استيلاء أبـو بكر الصديق على الخلافة بعد رسول ا ثم أحـداث الفتنـة الكبرى بعد ذلك، عندما قتل عثمان بن عفان، وما تلاها مـن أحداث تلك الملاحظة هي أن أبو بكر الصديق وعمـر بـن الخطاب وعائشة أم المؤمنين كانوا يشكلون حلفا متماسـكا، ومعهم بالطبع السيدة حفصة أم المؤمنين لأن عائشة ابنة أبـا بكر وحفصة ابنة عمر بن الخطاب ولقد بـدأ هـذا الحلـف يتشكل منذ زواج رسول ا من عائشـة الفتـاة الصـغيرة

الجميلة البكر، فاقترب أبو بكر أكثر وأكثر من رسول ا ﷺ بهذا الزواج وأصبح وزيره الأول، فنحى بذلك على بن أبـي طالب قليلا عن مكانته العالية عند رسول ا ﷺ فعلى كـان مقاتلا لا تلين له قناة وكان شجاعا في كـل الميـادين التـي خاضها مع رسول ا ﷺ وكـان رجـل مواقـف لأرجـل شعارات، بالإضافة لفقهه وعلمه وقرابته من رسـول ا ﷺ فهو ابن عمه ومن بني هاشم أما أبو بكر وعمر فليسوا مـن بني هاشم أصحاب المكانة العالية في قريش وأنماهمـا مـن فرعين صغيرين لا يتمتعان بالعصبية القبليـة التـي كانـت أساس الحكم على الأشخاص، ولعل اجتماع أبو بكر وعمـر وقربهما من بعض كان من ضمن أسباب ضعف عصـبيتهما وقبليتهما فأخذا من بعضهما البعض سندا للآخر.

وبعد حادثة الأفك التي اتهمت فيها عائشة بدأ الحاف يأخذ شكلا آخر لأن علي بن أبي طالب أشار على رسول ا ﷺ عندما رآه حزينا بأن يطلق عائشة ويقول في هذا الإمـام القاضي أبي بكر العربي (٤٥) " زعم بعض المفتـرين بـأن خروج عائشة رضي ا عنها يوم الجمل كان انتقامـا مـن

---

(45) العواصم من القواسم ابن العربي صـ ١٦٤.

على رضي ا عنه من أنه حض الرسول ﷺ على طلاقهـا في حادثة الأفك لما رأى من حزنه من كلام بعض النـاس " ويؤكد هذا الموقف موقف عائشة من علي بن أبي طالب في أحاديثها فكانت تشير له ولا تذكر اسمه زيادة فـي التجاهـل وتكرر نفس الموقف من أبي بكر وعمر.

فتحكي عائشة تقول: " أن الرسول ﷺ استأذن نساءه في أن يمرض في بيتي فأذن له ".. فخـرج رسـول ا ﷺ يمشي بين رجلين من أهله أحدهما العبـاس ورجـل آخـر (تؤكد الروايات أن الرجل الآخر الذي أغفلت اسمه كان عليا بن أبي طالب) عاصبا رأسه تخط قدماه حتى دخل بيتـي " [٤٦].

ونفس التجاهل ذكره أبو بكر عندما ذهـب العبـاس وعلي بن أبي طالب يطالبان بميراثهما من الرسول ﷺ فقـال أبو بكر [٤٧] " ثم جئتاني تكلماني وكلمتكما واحدة وأمر كمـا واحد، جئتنى يا عباس تسألني نصيبك من ابن أخيك وجاءني هذا يريد عليا يريد نصيب امرأته من أبيها فقلـت لكمـا أن

([46]) حروب دولة الرسول د. سيد الغمني صـ ٥٥٠.

([47]) العواصم من القواصم ص ٦٧.

رسول ا ﷺ قال: " لا نورث ما تركنـا صـدقة " أن هـذا التجاهل بعدم ذكر اسم علي بن أبي طالب يفهم منه شيء من الضغينة أن لم يكن كثير منها ونفس التجاهل قد تم من عمر بن الخطاب في مواقف مشابهة.. إذن فقد كان هنـاك حلفـا صامتا من الثلاثة الكبار.

من صحابة رسول ا أبو بكر وعمرو عائشة ضـد علي بن أبي طالب الذي كان يشكل خطرا داهما عليهم جميعا لمواقفه الشجاعة وعلمه وفضله وفقهه ولقد نقلت بعض هـذه النصوص من كتاب العواصم من القواصم وهو لكاتب سـني بل من أشد كتاب السنة كراهية للشيعة. فلم أنقل عن شـيعي واحد ذلك التجاهل وذلك الحاف، ويمكن إدراك هذا الحلـف واضحا في حديث السيدة عائشة حول رضاعة الكبير الـذي ذكرته بعد وفاة النبي ﷺ، ورغم ما في هـذا الحـديث مـن مجافاة للعقل والفطرة والدين ورغم أنه إذا عمل به فإنه يتيح ترهلا سيئا في قيم الدين تجاه المرأة إلا أن أبو بكر وعمر قد أيدا الحديث وهما من الثقـات الأوائـل بالإضـافة إلـى أم المؤمنين فإنه يكون حديثا صحيحا، لذلك جاء في البخـاري ومسلم وكتب الحديث الستة الثقات ولم يكذبه أحد.. حتـى أن

وكيل الأزهر ذكر صحته في برنامج تلفزيوني قريب ، هـذا الحاف قد أدى إلى الأحداث التي حدثت أثناء وفاة الرسول ﷺ وبعد وفاته ﷺ وسوف نختصرها على قدر الإمكان.

مرض الرسول ﷺ:

يقول الدكتور سيد القمني في كتابه حـروب دولـة الرسول [٤٨] " كان الشعور بدنو الأجـل يتصـاعد ويعلـو، والرسول الكريم تزيد به أوجاعه، لكن سـيد الخلـق يقـاوم الأوجاع، ويستمر في سياسة الدولة، ويـؤمر علـى النـاس أسامة بن زيد بن حارثة. ويأمر جميع المهاجرين الأوائل بأن يذهبوا مع أسامة باتجاه فلسطين، بما فيهم وزيريه أبو بكـر وعمر، ويتجهز الناس صدعا بأمر رسولهم ونبيهم وقائدهم. ورغم اشتداد الوجع، فقد لحظ سـيد الخلـق ﷺ أن النـاس يتلكئون في طاعة أوامره، في بعثه أسامة على رأس الجيش إلى الروم، فخرج من بيت عائشة إلى المسجد عاصبا رأسه، وصعد حتى جلس على المنبر ثم قال " أن عبدا من عباد ا

([48]) حروب دولة الرسول صـ ٥٥٣.

خيره ا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند ا " وفهم أبو بكر المقصود فنشج بالبكاء يقول: بل نحن نفديك بأنفسـنا وأبنائنا، فيسكته الرسول، ثم يقول مناديا: " أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمري أن قلتم في إمارته، لقد قلتم في إمـارة أبيه من قبل، وإنه لخليق بالإمارة، كما كان أبوه خليقا بهـا " وعاد إلى بيت عائشة وخرج إسامة بـالجيش حتـى نـزل بالجرف على بعد فرسخ واحد من المدينة، فضـرب هنـاك عسكرة، ليبلغهم أن الوجع قد اشتد بنبـيهم، فتوقفـوا هنـاك ينتظرون، ما يسفر عنه الأمر " [٤٩].

وهنا يظهر الحاف أنيابه ويظهر أكبر أدواره وتقسـم الأدوار بين أبو بكر وعمر وعائشة والثلاثة كانوا على علـم كامل بما ينوي رسول ا ﷺ وما يهدف إليه من بعثه أسامة وما كان يهدف إليه الرسول الكريم كان واضحا للعيـان ولا يخفي على أحد فبعثة أسامة لم تكن لها أهمية ملحة في هـذا الوقت، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنه أراد أن يبعد أبو بكر وعمر عن المدينة حتى يخاف من بعده علي بن أبي طالب صاحب الفضل وصاحب السبق وصاحب وشيجة الدم

([49]) حروب دولة الرسول د. سيد الفمني ـ نقلا عن ابن هشام.

والقريب الحبيب، لكن أبو بكر وعمر أدركا الخطـة فجعـلا أسامة يعود بالجيش إلى المدينة حتى يكونا بجوار رسول ا ،

ونعود إلى الدكتور سيد القمني نقلا عن الشيخ شرف الـدين يقول: " وقد تعلم أنهم إنما تثاقلوا عن السير أولا، وتخلفـوا عن الجيش أخيرا، ليحكموا قواعد ساستهم، ويقيموا عمـدها ترجيحا على التعبد بالنص، حيـث رأوه أولـى بالمحافظـة وأحق بالرعاية، إذا لا يفوق البعث بتثاقلهم عن السـير، ولا تخاف من تخاف منهم عن الجيش، أما الخلافة فإنها تنصرف عنهم لا محالة إذا انصرفوا إلى الغزوة قبل وفاته ﷺ وكـان بأبي وأمي ـ أراد أن تخلو منهم العاصمة، فيصفوا الأمـر من بعده لأمير المؤمنين علي بن أبي طالـب علـى سـكن وطمأنينة، فإذا رجعوا وقد أبرم عهد الخلافة وأحكـم لعلـي عقدها، كانوا عن المنازعة والخلاف أبعد.

يكرر الرسول قوله لمن حوله أنفذوا بعـث أسـامة لكنهم لا يتحركون. وقد كرر ذلك عدة مرات بين كل صحوة وأختها.. ولكنه عندما يئس منهم قال النبي: " هلم أكتب لكـم كتابا لا تضلوا بعده " (٥٠).

---

(50) د. سيد القمني حروب دولة الرسول صـ ٥٥٧.

وهنا يبدأ الدور الذي ينبغي على عمر أن يقـوم بـه كجندي مخاص في كتيبة الحاف الصغيرة حيث قال عمر: " لقد غاب الوجع على رسول ا وإن النبي يهجـر وعنـدكم القرآن وحسبنا كتاب ا " وبدأ اللغظ وبدأت الضوضاء فمنهم من يطلب دواه وقلم ليكتب الرسول ما يريد ولكن عمر يقف لهم بالمرصاد ويمنع ذلك خشية أن يكتـب لعلـي بالخلافـة وتزيد الضوضاء فيقول لهم الرسول ﷺ قوموا:

وهنا يقول عبد ا بن مسعود: " فكان ابـن عبـاس يقول: أن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول ا وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم " [٥١] وقوله عمر بن الخطاب " أن النبي يهجر " تدل علـى خشـونة اللفـظ وقسوته وفظاعته في حق رسول ا ﷺ.

وعن صباح اليوم الذي صعدت روح رسـول ا ﷺ إلى بارئها يقول الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية [٥٢] كان الصديق قد صلى بالمسلمين صلاة الصبح، وكان إذ ذاك قـد أفاق رسول ا ﷺ إفاقة من غمرة ما كان فيه مـن الوجـع،

([51]) النصر والاجتهاد صـ ٩٠، ص ٩٣.

([52]) البداية والنهاية الحافظ بن كثير جزء ٥ ص ٢٤٤.

وكشف ستر الحجرة ونظر إلى المسلمين وهم صفوف في الصلاة خاف أبي بكر، فأعجبه ذلك وتبسم ﷺ حتى هم المسلمون أن يتركوا ما هم فيه من صلاة لفرحهم به، وحتى أراد أبو بكر أن يتأخر ليصف الصف فأشار إليهم ﷺ أن يمكثوا كما هم. وارخى الستارة وكان آخر العهد به ﷺ، فما انصرف أبو بكر من الصلاة دخل عليه وقال لعائشة ما أرى رسول الله إلا قد أقلع عنه الوجع. وهذا يوم بنت خارجة ـ يعني إحدى زوجاته، وكانت ساكنة بالسنح شرقي المدينة ـ فركب على فرس وذهب إلى منزله، وتوفي صلى الله عليه وسلم حين اشتد الضحى.. فذهب سالم بن عبيد وراء الصديق فاعلمه بموت النبي ﷺ فجاء الصديق حين بلغه الخبر، والسنح منازل بني الحارث بينها وبين مسجد رسول الله ميل واحد ".

أولا: كان جيش أسامة بن زيد سبعمائة وكان قد ندبهم رسول الله ﷺ للمسير على تخوم البلقاء شرق الأردن لتأديب من قتلوا زيد بن حارثة وجعفر بن أبي رواحه.. وجيش بهذه القلة العددية هو في مهمة غير ذات أثر بالنسبة للفتوحات مما يؤكد ما قاله كثير من رجال

التفسير أنه كان يهدف أبعاد أبا بكـر وعمـر عـن الخلافة حتى يستقيم الأمر لعلي بن أبي طالب.

ثانيا: فإن منع عمر بن الخطاب لرسول ا ﷺ من إن يكتب كتابا بهذا الأمر كان مقصودا ومعروفا سـببه ممـا جعل عمر يتفوه بلفظ لا يليق أن يقال لرسول ا ﷺ.

ثالثا: أن يترك أبو بكر الرسول ﷺ وهو في مرض المـوت ليذهب لزوجته بنت خارجه لأن هـذا يومهـا أمـر يحتاج إلى تفسير وتعليل رغم أنه ترك الوزير الآخر يراقب ويرتب إنما كان لا ينبغي لا ينبغـي لـه أن يترك رسول ا في مرض الموت بأي حـال مـن الأحوال.

ورغم ذلك تبدأ الأحداث تأخذ طابع آخر عند وفـاة رسول ا ﷺ فبعد أن صعدت روحه إلى السماء ﷺ ينظـر عمر بن الخطاب حوله فلا يجد أبا بكر العقل المفكـر فيبـدأ بالاعتماد على نفسه في تأخير إعلان وفاته حتى يصل أبـو بكر ليرى ما يفعلان في هذا الأمر. واعتماده على نفسه جعله في حيرة شديدة فهو أصبح كالجندي الذي تركه قائـدة فـي المعركة فلا يدري ماذا يفعـل وأي عـدو يهـاجم فيصـيبه

الارتباك ويفقد تفكيره التوازن فيتحرك في مسرح المعركـة تحرك من لا يحفظ دوره. يقول أنس بن مالك (٥٣) عن يـوم وفاة الرسول ﷺ ثم أرخى الستر، فقبض في يومه ذاك. فقـام عمر فقال: إن رسول ا ﷺ لم يمت، ولكن ربه أرسل إليـه كما أرسل إلى موسى، فمكث في قومه أربعين ليلـه. وأنـي لأرجو أن يعيش رسول ا ﷺ حتى يقطـع أيـدي رجـال المنافقين وألسنتهم يزعمون أن ﷺ قد مات ".

وتقول أم المؤمنين عائشة (٥٤) " فقام عمـر يقـول: وا ما مات رسول ا ﷺ.. وا ما كان يقع في نفسـي الا ذاك، وليبعثنه ا فليقطعن أيدي رجـال وأرجلهـم " ونقـل الحافظ بن كثير في البداية والنهاية مـا رواه البيهقـي مـن طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة ابن الزبير قـال (٥٥): " قام عمر بن الخطاب يخطب الناس ويتوعد من قال " مات " بالقتل والقطع، ويقول: إن رسول ﷺ في غشية لو قـد قام قتل وقطع".

([53]) مسند أحمد جزء ٣ ص ١٩٦.

([54]) فضائل الصحابة من صحيح البخاري.

([55]) البداية والنهاية ص ٥ ص ٢٤٢٠.

وفي البداية والنهاية من حديث عائشة [٥٦]: " فجـاء عمر والمغيرة بن شعبة فاستأذنا، فأذنت لهما.. ثم قاما، فلما دنوا من الباب قال المغيرة: يا عمر، مات رسول ا ، فقـال عمر: كذبت، بل أنت رجل تحوسـك (تخاطـك فتنـة، أن رسول ا ﷺ لا يموت حتى يفنى المنافقين ".

يقول الإمام القاضي أبي بكر العربي [٥٧]: " جاء أبو بكر وكان غائبا في ما له بالسنح فجاء إلى منزل ابنته عائشة رضي ا عنها وفيه مات النبي ﷺ وسلم فكشف عن وجهه، وأكب عليه يقبله وقال بأبي أنت وأمي يا رسول ا ، طبـت حيا وميتا، ثم خرج إلى المسجد والناس فيـه وعمـر يـأتي بهجر من القول ثم رقي المنبر فحمد ا واثني عليه ثم قال: " أما بعد أيها الناس، من كان يعبد محمدا فإن محمد قد مات، ومن كان يعبد ا فإن ا حي لا يموت " ولم يتحدث عمـر ببنت شفة فها قد جاء قائدة وانتهى دوره في هـذه المرحلـة لينتقل إلى مرحلة أخرى حيث ذهب أبو بكر وعمـر وأبـو عبيدة وتركوا عليا مع رسول ا ﷺ يجهزه للدفن ذهبوا إلى

([56]) نفس المرجع.

([57]) العواصم من القواصم ص ٦٠.

سقيفة بني ساعده فوجدوا الأنصار مجتمعين يريدون توليـة سعد بن عبادة كبير الأنصار في المدينة فهم كثرة وهم أهـل المدينة وهم كتيبة الإسلام المحاربة فقالوا للمهاجرين منا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر نحن الأمراء وأنتم الـوزراء وزاد اللغط وهنا قال عمر لأبي بكر أعطني يدك أبا بكر وأخذه يده يبايعه ".

وباقي الأحداث معروفة ومعلومة لا داعي للإطالـة فيها ولكن علي بن أبي طالب بعد دفن الرسول ﷺ في مثواه الأخير ذهب إلى بيته مع فاطمة عندما علم بمبايعتهم لأبـي بكر لكن أبو بكر وعمر لم يتركاه ينعم بالهدوء بعيـدا عـن حرب السياسة والدولة فأرسل له عمر وقـال لـه: " هـات مبايعته ولو قسرا " فذهب عمر ووضع الحطب حول بيـت على وفاطمة ونادى عليه يا علي يا علي: فخرجت له فاطمة غاضبة وقالت له: " اذهب يا عمر وإلا اكشف رأسي وأعجن إلى ا " [٥٨] فذهب عمر ولم يبايع علي بن أبي طالب أبـا بكر إلا بعد ستة شهور من ولايته وبعد ما توفـت زوجتـه فاطمة رضي ا عنها.

([58]) مسند أحمد جزء ٣ ص ١٩٦.

لقد أدى عمر بن الخطاب دورا بالغ الأهميـة، كمـا كان بالغ الصعوبة، وما كان يستطيع أحد غيـر عمـر بـن الخطاب أن يقوم بهذا الدور، كما قام به عمر لذلك كافأه أبو بكر بأن جعل الخلافة من بعده لعمر بن الخطاب، وضـرب بالشورى عرض الحائط تلك الشورى التي كـان العـرب يمارسونها قبل الإسلام بإتقان شديد ولم تمارس بعد الإسـلام سوى مرة واحدة عندما لم يعين عمر بن الخطاب خليفة مـن بعده وإنما بين لهم ستة أفراد يختارون منهم واحدا ولعله فعل ذلك بالاتفاق مع عبد الرحمن بن عوف صديقة الـذي طلـع نفسه من الستة ورشح عثمان بن عفان وفي هذا يقول ابـن العربي في التفسير الكبير [٥٩] " أما قولهم بحيل ابن عـوف حتى ردها لعثمان، فلئن كانت حيله ولم يكن سـواها، فـلأن الحول ليس إليه. وإذا كان عمل العباد حيله أو كان القضـاء بالحول فالحول والقوة وقد علم كل واحد أنه لا يليهـا إلا واحد، فاستبد عبد الرحمن بن عوف بالأمر بعـد أن أخـرج نفسه على أن يجتهد للمسلمين في الأسد والأشد، فكان كمـا فعل، وولاها من استحقها ولم يكن غيره أولى بها ".

([59]) العواصم من القواصم ص ٢٠١.

وهكذا يعترف أخيرا أحد أكبر كتاب السنة بما فعلـه عبد الرحمن بن عوف بالاتفاق مع عمر بن الخطـاب فـي تولية عثمان بدلا من علي لأن ما في القلب يظل في القلـب حتى لو كان أمير المؤمنين ومن المبشرين بالجنـة ووزيـر رسول ا ﷺ فهو بشر في الأول والآخر ورغم ذلـك فـإن عمر بن الخطاب كان يعرف فضل علي بن أبي طالب وفقهه وعلمه ويعرف أنه أفضل من يتولى الإمارة لكن ما في القلب في القلب فعن عمر بن ميمـون قـال [٦٠] " شـهدت عمـر رضوان ا عليه يوم طعن فقال: ادعوا لي عليـا وعثمـان وطلحه والزبير وابن عوف وسعد بن أبي وقاص فلم يكلـم أحدا منهم غير علي وعثمان فقال: " يا علي لعل هؤلاء القوم يعفون لك حقك وقرابتك من رسول ا ﷺ وصـهرك ومـا آتاك ا من الفقه والعلم فإن وليت هذا الأمر فاتق ا فيه ثم دعا عثمان فقال: " يا عثمان لعل هؤلاء القوم أن يعرفوا لك صهرك من رسول ا ﷺ وسنك وشرفك فإن وليـت هـذا الأمر فاتق ا فيه " ثم قال ادعوا لي صهيبا فدعى له فقـال: صل بالناس ثلاثا وليخل هؤلاء القوم في بيت فإذا اجتمعـوا

([60]) مناقب أمير المؤمنين لأبي الفرج عبد الرحمن ص ١٧٠.

على حال فمن خالف فاضربوا رقبته فلما خرجوا من عنـده قال: إن تولوها الأجلح ـ يقصد علي ـ يسلك بهم الطريـق فقال له ابنه ما يمنعك يا أمير المؤمنين فسكت ولم يرد ".

الهروب في أحد

رغم أن عمر بن الخطاب قد طبع على الجنديـة أو أخذ صفاتها من حيث الطاعة العمياء والتنفيذ إلا أنه كان في الحرب شيئا آخر. فرغم قوته وبأسه وخشونته وضخامته لم يختاره الرسول في النزال يوم بدر بين المسـلمين وكفـار قريش فعندما وقفوا للنزال خرج من جيش قريش ثلاثة رجال هم عتبة بن ربيعة وأخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن شيبة وكانوا من صناديد قريش فأخرج الرسول ثلاثة رجال هـم عوف ومعوذ ابنا الحارث وعبد ا بن رواحة لكن قـريش رفضت نزالهم لأنهم كانوا من أهل المدينـة وقـالوا: " يـا محمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا ".

فأخرج الرسول لهم عبيدة بن الحارث وحمزة وعلي ولم يختر عمر بن الخطاب وقتل الثلاثـة الـذين أخـرجهم الرسول الثلاثة من قريش.. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فما حدث في غزوة أحد يستحق الوقوف عنده يقول الشـيخ

خليل عبد الكريم [٦١] " عندما خاصمهم الفوز وباينهم الظفـر بينونة كبرى وأسرعت إليهم الخيبة وأرقل إلـيهم الخـزلان وعجل إليهم الخور.. في كل هذه المواقع وقف رسـول ا مثلا للشجاعة الفائقة ونموذجا للثبات المتين وقدوة في الصبر الجميل واسوه في الاحتمال البالغ ومعه نفر من المخلصـين يأتي في مقدمتهم رهطة آل هاشم وعلى ذورتهم على كـرم ا وجهه، في حين أن العدوى عمر بن الخطاب يتربع على رأس قائمة الفارين الهاربين الذين ولوا الأدبار وركبهم الذعر الشديد وسيطر عليهم الهلع وهيمن عليهم الخوف البالغ فـي غزوة أحد فما أن وقف لملاقاة الأعداء، ولم يلبث إلا قلـيلا حتى منحهم ظهره ونفحهم دبره وأعطاهم قفاه وظـل يقـدر حتى وجد ملجأ في إحدى مغارات الجبل فاختبأ فيها " ويقول أيضا: " والعدوى عمر ذاته هو الذي اعترف بـالتولي يـوم الزحف والفرار والهرب من الجهاد بل إنه وصف نفسه بقوله (فررت حتى صعدت الجبل فلقد رأيتني أنزو كأنني أروي " والأروى هو الوعل.

([61]) النص المؤسس ومجتمع ص ٢٩.

أخرج ابن جرير قـال [٦٢]: " خطبنـا عمـر يـوم الجمعة، فقرأ آل عمران فلما انتهى إلى قولـه: " إن الـذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان " قال: لما كـان يـوم أحـد، هزمنا، ففررت حتى صعدت الجبل فلقد رأيتني انزوى كأنني اروي والناس يقولون: قتل محمد " ويقول الشيخ خليل عبـد الكريم [٦٣] " وأن الذي أورد هذا الخبر هو أبو جعفـر بـن جرير الطبري وفي تفسيره مقدم التفاسير وعمدتهم فيغـدوا عريا من المطاعن. ويؤيد القمي النيساروري حقيقـة فـرار العدوي عمر بن الخطاب من الميدان في معركة أحد ولم يبق مع الرسول الا على والعباس وطلحة وسعد وأبو بكر كـان خاف الصخرة.

وأنا لا أعيب على أحد بالهروب من المعركـة لأن هذه المواقف السلبية قد يكون لها أسبابها النفسية والسـلوكية وتخضع لظروف لا إراية حيث يختلف البشر عن بعضـهم البعض في الشجاعة والجبن وإذا قلنا أن طلحة وعلـي قـد وقفا يحميان رسول ا ويدا فعان عنه وهو يصـعد الجبـل

([62]) تفسير الطبري الجزء السابع ص ٣٢٧.

([63]) النص المؤسسي ومجتمعه ص ٣٠.

ليلحق بالصخرة المنيعة حيث يختبئ فيها باقي الصحابة فهذا سلوكهما وشخصيتهما وما جبلا عليه فقد كانا يـدافعان عـن رسول ا الذي ثبت في المعركة وجرح عدة جروح وكـان ثباته مدعاة لثباتهم فهذه جبلتهما الذي جبلا عليها وانهما مـن الشجاعة بمكان لكن البشر يختلفون في مقدار ثباتهم لكنهم في النهاية بشر وليسوا أكثر من ذلك فكان على وطلحـة لهمـا أسبابهما وشخصيتهما ساعدت على ذلك فهما يـدافعان عـن دين ونبي ويدركان خطورة أن يموت رسول ا لأن الدين بعدها لن تقوم له قائمة.. ونفس الشيء نستطيع أن نذكره عن رجل أسمه قزمان وهو من الأنصار فقد قتل وحـده عشـرة رجال في غزوة أحد من مجموع ما قتلوا من قريش وكـان اثنان وعشرون رجلا فقط [٦٤] " وكلاب بن طلحة والحارث بن طلحة قتلهما قزمان وصواب غلام حبشي قتله قزمـان.. وهشام بن أبي بن أمية قتله قزمان والقاسط بن شريح قتلـه قزمان.. والوليد بن العاصي بن هشـام بـن الغيـرة قتلـه قزمان.. وعبيدة بن جابر وشيبة بن مالك قتلهما قزمان قـال بن إسحاق: فجميع من قتل ا تبارك وتعالى من المشـركين

([64]) الإسلاميات د. سيد القمني ص ٢٧٥.

يوم أحد اثنان وعشرون رجلا [٦٥] ويسطرد الـدكتور سـيد القمني: " ومع ذلك تصر كتبنا التراثية على وصم قزمان بأنه كان منافقا، وأنه من أهل النار، وأن ا قد ينصر دينه علـى الكافر بالفاجر (!!؟) حتى أن تلك الكتب قـدمت روايـات تستجهل قزمان وتتجاهل معرفته من بين صحبه وآلـه مـن الأنصار ".

وتروى كتب السيرة عن قزمان وهو جريح في دار بني ظفر: " فجعل رجال من المسلمين يقولون له: وا لقـد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر، قال بماذا أبشر؟ فوا ما قاتلت إلا عن أحساب قومي ولولا ذلك ما قاتلت [٦٦].

ومن هنا يظهر لنا لماذا تجاهلته كتب السيرة رغم أنه قتل عشر من مجموع المشركين الذين قتلـوا وهـم اثنـان وعشرون فقط. تجاهلته لأنه كان يدافع عن قومه ولم يكـن هدفه الدفاع عن الدين فهو قاتل لأسباب تختلف عما قاتل من أجله الآخرون دون أن يفر إلى شـعب، ولا أن يلجـأ إلـى صخرة، ولا أن يهرب إلى المدينة ولا أن يوغل ثلاثين ميلا

([65]) السهيلي ص ١٩٣.

([66]) إسلاميات د. سيد القمني ص ٢٧٦.

هربا بعيدا عن الميدان، لينتظر هناك أيا ما يستخبر على من كانت الكرة، ليحدد موقفه كما فعل عثمان وهذا وذاك يفسر أو يرد على ما كتبه عباس العقاد من قبل عندما كان يدافع عـن خشونة وفظاظة عمر بقوله إن الخشونة والفظاظة لا تعنـي أن صاحبها لين القلب حليم وليس شرطا يكون الظاهر مثـل الباطن ونحن نوافقه الآن بعد ما رأينا هروبه في غزوة أحد.

أحادي التفكير

لم تذكر لنا كتاب التراث شيئا عن ثقافة عمـر بـن الخطاب ولا عن اهتمامه بالعلم والعلماء وإنمـا معظـم مـا حدثونا به عنه هو بجانب خشونته كان هناك عدله الذي تجلي فيجلد ابنه وإحضار المصري مع ابن عمرو بـن العـاص ليضرب ابن الأكرمين فهاتان الحادثتان قد امتلأت بها كتـب التراث وحكيت لنا بأكثر من طريقه هذا بالإضافة إلى قسوته على الولاة واقتسام أموالهم معهم مثل عمرو بـن العـاص وخالد بن الوليد وهما ما هما من علو النشأة والمكانة في ذلك الوقت.

إما كل ما ذكر عن ثقافته فلم تتعدى معرفته بالقرآن الكريم حتى أنه لم يكن حافظا له لأن آفة الحفـظ لـم تكـن منتشرة إلا ما يتعلق منها بالشعر لأنه ديوان العـرب وكـان للشعر حفاظ متخصصون أما القرآن الكريم فقد كان يكتـب ولم يكن مطلوبا حفظه إنما العمل به هو الهدف لذلك فلم يكن

لعمر أي ثقافة تذكر غير ثقافته البدوية التـي ورثهـا مـن مجتمعه.

ولقد تجلى احتقاره للعلم عندما أمـر بإلقـاء كتـب الفرس في نهر دجلة لأنها كما قال لا حاجة لنا بهـا سـواء اتفقت أو اختلفت مع القرآن الكريم لأن عندنا كتاب ا ونفس الشيء فعله في مكتبة الإسكندرية وسبق الحديث عـن ذلـك عندما قال لعمرو بن العاص لا حاجة لنا بها فعندنا كتاب ا فأحرقها وحرقها عمرو بن العاص ووزعها على حمامـات الإسكندرية ليحرقوا بها.

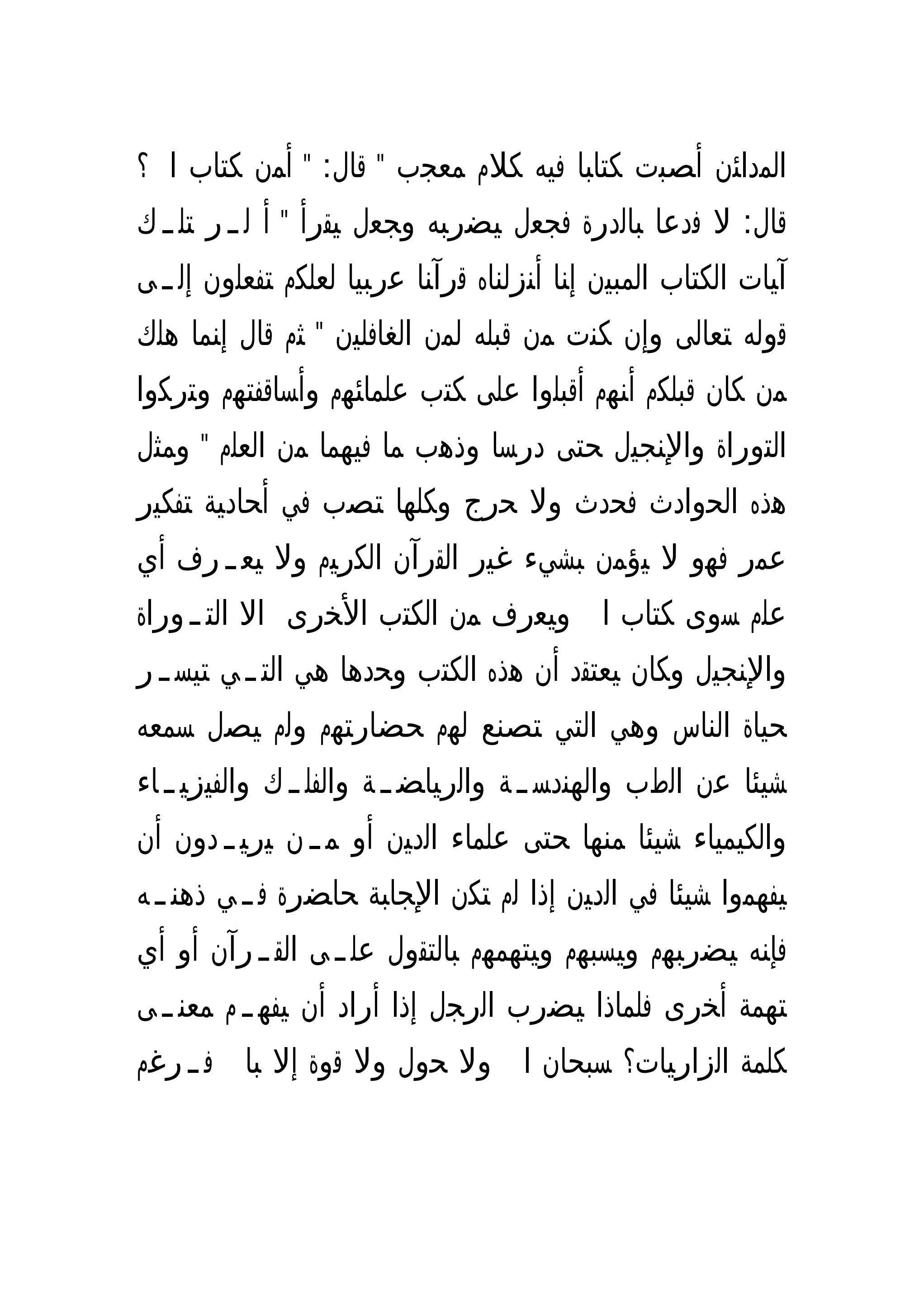
حتى ما يتعلق بالقرآن فإنه لم يكن يجيد تفسيره وكان يلجأ إلى علي بن أبي طالب ليفهم منه ما خفـي عليـه مـن تفسير خاصة إذا سأله أحدهم في المواريـث أو اللعـان أو الحدود أو الطلاق، لذلك قال " لولا على لهاك عمر " وهـذا رغم ابتعاده النفسي عن علي بن أبي طالب لكنه كان يلجـأ إليه، وكان يكره العلماء حتى أنه ضربهم أحيانا فمن السائب بن زيد أنه قال: [٦٧] " أتى رجل عمر بن الخطاب رضـوان ا عليه فقال: يا أمير المؤمنين إن لقينا رجل يسـأل عـن

([67]) مناقب أمير المؤمنين ـ عبد الرحمن ابن الجوزي ص ٩٤.

تأويل القرآن فقال اللهم أمكني منه، قال فبينما عمر ذات يوم جالسا إذ جاءه رجل وعليه ثياب وعمامة حتـى " إذا فـرغ قال: يا أمير المؤمنين " والذاريات ذروا فالحاملات وقـرا " فقال عمر: أنت هو؟ فقام إليه وحسر عن ذراعيه فلـم يـزل يضربه حتى سقطت عمامته فقال: والذي نفس عمر بيده لـو وجدتك محلوقا لضربت رأسك، ألبسوه ثيابه واحملوه علـى قتب ثم أخرجوه حتى تقدموا عليه بلاده ثم ليقم خطيبـا ثـم ليقال أن صبيعا ابتغى العلم فأخطئه فلم يـزل وضـيعا فـي عمره حتى هلك وكان سيد قومه ".

وعن إبراهيم التيمي قال: " جاء رجل إلى عمر يقال له صبيع فسأل عن النازعات والمرسلات وأشباههما وعليـه برنس فقام عمر بقضيبه فإذا له شعر فقال لـه: لـو كنـت محلوقا لضربت عنقك ثم كتب إلى أهل البصرة لا تجالسـوه ولا تبايعوه " هذا وعندما كان يسعفه علي بن أبي طالب فـي الرد على من يريد الفتوى فكان يقول لعلـي " لا أبقـاني ا بأرض لست بها يا أبا الحسن ".

وعن عمر بن ميمون عن أبيـه قـال: أتـى عمـر رضوان ا عليه رجال فقال: " يا أمير المؤمنين أنا لما فتحنا



المدائن أصبت كتابا فيه كلام معجب " قال: " أمن كتاب ا ؟
قال: لا فدعا بالدرة فجعل يضربه وجعل يقرأ " أ لـ ر تلـك
آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تفعلون إلـى
قوله تعالى وإن كنت من قبله لمن الغافلين " ثم قال إنما هلك
من كان قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا
التوراة والإنجيل حتى درسا وذهب ما فيهما من العلم " ومثل
هذه الحوادث فحدث ولا حرج وكلها تصب في أحادية تفكير
عمر فهو لا يؤمن بشيء غير القرآن الكريم ولا يعـرف أي
علم سوى كتاب ا ويعرف من الكتب الأخرى الا التـوراة
والإنجيل وكان يعتقد أن هذه الكتب وحدها هي التـي تيسـر
حياة الناس وهي التي تصنع لهم حضارتهم ولم يصل سمعه
شيئا عن الطب والهندسـة والرياضـة والفلـك والفيزيـاء
والكيمياء شيئا منها حتى علماء الدين أو مـن يريـدون أن
يفهموا شيئا في الدين إذا لم تكن الإجابة حاضرة فـي ذهنـه
فإنه يضربهم ويسبهم ويتهمهم بالتقول علـى القـرآن أو أي
تهمة أخرى فلماذا يضرب الرجل إذا أراد أن يفهـم معنـى
كلمة الزاريات؟ سبحان ا ولا حول ولا قوة إلا با فـرغم

أن الرجل قال له لقد جئت أطلب العلم لكن عمر رد عليه: بل جئت تبتغي الضلالة.

وعن مسروق بن الأجدع قال [٦٨] ركب عمـر بـن الخطاب رضوان ا عليه منبر رسول ا ﷺ فخطب بالناس فقال: أيها الناس ما إكثاركم في صدقات النسـاء فقـد كـان رسول ا ﷺ وأصحابه يقللون وإنمـا الصـدقات مـا مـن أربعمائة درهم فما دون، ولو كان في الإكثار في ذلك تقوى لم يسبقوهم إليها، ثم نزل فاعترضته امرأة فقالت: يـا أميـر المؤمنين أنهيت الناس أن يزيدوا النسـاء صـدقاتهن علـى أربعمائة درهم؟ قال: وما ذاك قالت: أم ما سمعت ما أنـزل ا في القرآن الكريم قال: وأي ذاك قالت: أو ما سـمعت ا يقول " وأتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونـه بهتانا وإثما مبينا " فقال عمر: اللهم اغفر كل إنسان أفقه من عمر، ثم رجع فركب المنبر ثم قال. أيها الناس أنـي كنـت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهـم فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحـب وطابـت بـه نفسـه فليفعل".

---

(68) ابن الجوزي مناقب أمير المؤمنين ص ١١٠.

لقد كانت كل ثقافة عمر هي أفعل ولا تفعل والنـاس تطيع خوفا من غضبه وتصرفاته غير المتوقعة والغريب في الأمر أن كتاب التراث يردن في كل هذا ميزة مـن ميـزات عمر فيسرفون في نقل هذه القصص عنه وإن لم يجدوا الفوا هم القصص فعمر وأبو بكر هما السند القوي لكتـاب السـنة ضد كتاب الشيعة، فنرى الحكايات المثالية تروي عـن أبـو بكر وعمر وتقل عند الحديث عن علي بن أبي طالب حيـث أنه كما يعتقدون رجل الشيعة وبذلك ظلموا الرجل ظلما بينـا عندما لم يذكروا إنجازاته العالية الهمة في الإسلام بل حاولوا أن يهيلوا عليها التراب وفي نفس الوقت يزيدون من أفعـال أبو بكر وعمر نكاية في الشيعة ولم يكتفوا بذلك بل انطقـوا علي بن أبي طالب أحاديث عن الرسول على لسـانه عـن فضل أبو بكر وعمر ونلحظ في هـذه الأحاديـث المغـالاة الشديدة في فضلهما مثل هذا الحديث فعن عمار بـن ياسـر قال: قال رسول ا ﷺ سألت جبريل عليه السـلام فقلـت: أخبرني عن فضائل عمر فقال: لو كنت معك ما لبث نوح في قومه ألف سنة الا خمسين عاما ما نفدت فضائل عمر وإنمـا

عمر حسنة من حسنات أبي بكر [٦٩] ومثل هذا الحديث مـا ألفوه عن علي رضوان ا عليه قال: كنت إلى جانب رسول ا ﷺ قال: فمر أبو بكر وعمر فقال: ادن يا علي فدنوت منه فقال: أترى هذين هذان سيدا كهول أهل الجنة من مضي من الأولين والآخرين ما خلا النبيين والمرسلين لا تخبرهما يـا على إشفاقا عليهما من القيام بأعباء الشكر [٧٠] وعن سـعيد الخدري قال: قال رسول ا ﷺ أن لي وزيرين مـن أهـل السماء ووزيرين من أهل الأرض فأما وزيراي مـن أهـل السماء فجبريل وميكائيل، أما وزيراي من أهل الأرض فأبو بكر وعمر "

ولن نطيل ولكن نقول إن كتابه سير الخلفاء وصحابة رسول ا تحتاج إلى مراجعة جديدة صادقة حياديـة تبعـد بالباحث عن النزعات القبلية والمدارس الدينية واضعين فـي اعتبارنا أنهم بشر وليسوا أساطير تروي وأنهـم يصـيبون ويخطئون بل كانت أخطاءهم أكثر من صوابهم لأنهم كـانوا

([69]) ابن الجوزي مناقب أمير المؤمنين ص ٢٦.

([70]) نفس المرجع ص ٢٧.



أهل جاهلية وأهل بداوه ونتاج بيئة قاسية من جوها الحار إلى فقرها الاقتصادي المدقع.

سلطان غشوم خير من فتنة تروم

إن ما فعله عمر بن الخطاب رضي ا عنـه ومـن قبله أبو بكر الصديق ثم عثمان وعلي رضي ا عنهما لـم يكن مستغربا في ذلك الوقت وفي هذا المجتمـع فـرغم أن المجتمع تحول بعد الإسلام من مجتمع القبيلة في مكـة إلـى مجتمع الدولة في المدينة، الا أن القوانين التي سـادت فـي عصر الدولة الإسلامية ومن بدايتها كانـت قـوانين قبليـة خالصة كان الأمر الناهي فيها هو شيخ القبيلة الذي اسـتبدل بأمير المؤمنين أو الحاكم فكان أمير المـؤمنين يمثـل عنـد العرب شيخ القبيلة، فمهما وصلت فتوحات أبو بكر وعمـر وعثمان وعلي، ومهما تعـددت الجيـوش والسـرايا إلا أن القوانين ظلت كما هي قوانين تخضع للعـرف السـائد فـي المجتمع القبلي. ولو أراد عمر بن الخطاب رضي ا عنه أن يسن القوانين التي تلزم الحاكم وتقيد حريته لفعـل بـدل أن يرسل له من يقسم ماله عنوة مثلما فعل مع خالد بن الوليـد وعمرو بن العاص ولكنه كما كان غيره يعتقد أن الحاكم هو

شيخ القبيلة، لا ينازعه أحد، وكلمته هي العليا، فكان عمـرو بن العاص حاكما بمواصفات شيخ القبيلة، فكـان عمـر إذن متسقا مع نفسه ومع مجتمعه وبيئته وما الأشـياء الصـغيرة والمواقف الغريبة التي كان يحرص عليها كالضرب بالـدرة ولبس الخشن من الثياب وغيره إلا تقليدا لما يفعله شيخ القبيلة مع عشيرته فشيخ القبيلة هو الحريص على أمـوال رعيتـه ويوفر لهم إلأ من والحماية والمأكل والمشرب، كما كان في السابق قبل الإسلام لذلك وكما قلنا سابق فـإن ولاء العربـي يكون دائما لشيخ القبيلة ولا يكون للأرض ثم يكون بعد ذلك للقبيلة نفسها دون غيرها وهذا ما رأيناه عندما اختلفـوا فـي توليه خليفة رسول ا فكل منهم حاول أن يكون الخليفة مـن عصبيته، ولم يفكروا في من هو أصلح للحكم واستمر ذلـك الأمر في خلافة عثمان، فقد بدأ سلطان بني أمية يعلو كمـا كان في السابق وعندما جاء علي كرم ا وجهه انقلبوا عليه وأخذها بني أمية بعد ذلك، أن القوة الغاشـمة هـي أسـاس اختيار الحاكم في ذلك الوقت لأنها الوحيدة القادرة على فـك الاشتباك بين رغبات القبائل الطامعة " [٧١].

([71]) الجزور التاريخية للشريعة الإسلامية ـ خليل عبد الكريم.

وكانت هذه القوة الغاشمة تستخدم الدين درعا يحميها ضد انفلات رغبات الطامعين وتأديبهم بل لم تكن تقبل حتـى النصح والإرشاد، وكيف ينصح رئيس القوم؟ ومثال هذا مـا حدث من عثمان بن عفان رضي ا عنه عندما ذهب إليـه أبو ذر الغفاري رابع من أمن بالإسـلام وأقـوى الصـحابة جميعا تقوى وإيمان ذهب ينصح عثمان بن عفان فلـم يقبـل منه ذلك ونفاه إلى الربذة وهي مكان في طريق العراق هـو وزوجته ولم يجد هناك ما يأكله رغم قول الرسول ﷺ فيه: " ما تقل الغبراء ولا تظل الخضراء، من ذي لهجة أصدق ولا أوفى من أبي ذر شبيه عيسـى بـن مـريم " (٧٢) وعنـدما حضرته الوفاة جزعت زوجته لأنه لم يكن يملك ما يكفن بـه فمرت به جماعة فنادتهم الزوجة وأطلعتهم على حالها فدفنوه. فأمير المؤمنين عثمان لم يرض أن يسمع من أبي ذر كلمـة الحق فلم تكن لها معنى عند الحاكم حتى لـو كـان أميـر المؤمنين لأن التقاليد العشائرية لا تقبل التقليل من شأن الحاكم أو شيخ القبيلة ونستطيع أن نشبه هذا الوضع بفتوى أصدرها الشيخ ابن عثيمين حديثا هو سعودي حيـث أصـدر فتـوى

([72]) مختار الصحاح.

بتحريم لبس المرأة للبنطلون وحتى لزوجها في بيتها. وهـذه الفتوى تدل على جذورها العميقة في المجتمـع القبلـي لأن هناك حديثا يلعن المتشبهات بالرجال حيـث تحـدثنا كتـب التراث أن إحدى بنات أبي جهل بعد فتح مكة، خرجت متقلدة أقواسا وسهاما وتمشي مشية الرجال ذاهبة إلى الصيد، فكان ذلك موضع استهجان من عدد من الصحابة وكانت تلك الفتاة الجريئة موضع حديث مكة فى سمرهم وما يـراه الصـحابة مستهجنا فهو كذلك بلا نقاش لأنهم النجوم ورأيهـم مقدسـا. فالشيخ العثيمين أخذ الفتوى الخاصة بالبنطلون مـن ناحيـة التشبه بالرجال وهذا ظلم للنص لأنه يحمله فوق طاقته وهكذا ينبغي تدارك هذه المسائل بما يتفق مع ظروف كل مجتمـع ومع بيئته.

ونفهم من هذا أو ذاك ما نود أن نؤكد عليه أننا عندما نتعرض للدراسات التاريخية ينبغي أن ننظر للسـياق الـذي حدثت فيه ونراقب حركة المجتمع وطبيعته أمـا أن نطبـق الأحداث القديمة على العصر الحاضر فتلك مصـيبة كبـرى أدت في النهاية بنا إلى تخلفنا وانحطاطنا.

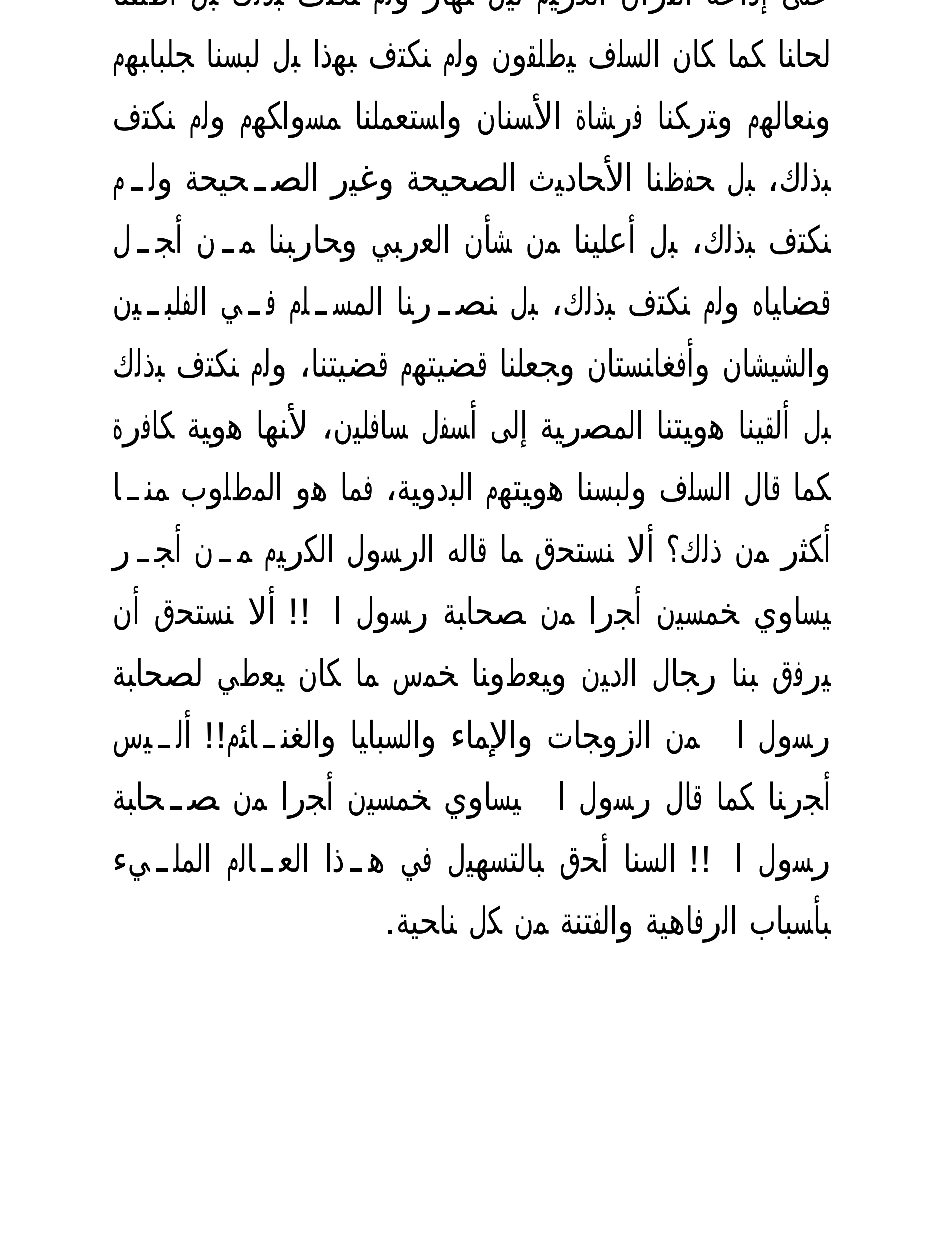
عندما كان الرسول ﷺ والخلفاء من بعده يقولون ويؤكدون أن المال هو مال المسلمين ويجب أن يحسن العمل فيه كان الفقهاء والأحاديث تتجه هذا الاتجاه وهو أن المال مال المسلمين أو في النهاية مال الشخص أو الإنسان، ولكن معاوية بن أبي سفيان كان يوزع الأموال على أقاربه وأعلن أكثر من مرة أن المال مال ا لتبرير ما يفعله لعثمان بن عفان بعد أن حذره أبا ذر الغفاري رحمه ا عليه، بدأ هذا المعنى عند كتاب الفقه يجد تبريرا له عظيم وتطور هذا التبرير من كون المال مال ا إلى درجة أعلى وهي أن الرزق كله بيد ا ثم تطور هذا المعنى عند الفقهاء ليصبح أن السعي إلى الرزق هو سعى خبيث لأن ا يرزق من يشاء واستطاع الفقهاء أن يولدوا النصوص القرآنية والأحاديث الشريفة هذا المعنى ولم يكتفوا بذلك بل ألغوا الأحاديث التي تؤكد هذا المفهوم الذي يؤكد أحادية النظرة إلى الأمور.

يقول الإمام القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في كتابه العواصم من القواصم: " تذاكرت بالمسجد الأقصى مع شيخنا أبي بكر الفهري حديث أبي ثعلبة عن النبي ﷺ " أن

من ورائكم أياما للعامل فيها أجر خمسين منكم. فقالوا: منهم؟ فقال بل منكم، لأنكم تجدون على الخير أعوانا، وهم لا يجدون عليه أعوانا ".

وتفاوضنا كيف يكون أجر من يأتي من أمة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم قد أسسوا الإسلام، وعضدوا الدين، وأقامو المنار، وافتتحوا الأمصار، وحموا البيضة، ومهدوا الملة وتذكرت قوله ﷺ في الحديث الصحيح في البخاري: " لو أنفق أحدكم كل يوم مثل جبل أحد ذهبا ما بلغ أحدهم ولا نصيفة " فتراجعنا القول ونحصل ما أوضحناه في شرح الحديث الصحيح ".

وهذا القول يدحض قول رجال دين هذه الأيام من أن السلف صالح والخلف طالح فنحن من الخلف ولا نرتكب ما كان يرتكبه السلف من صغائر أو كبائر رغم كثرة ما يغري ورغم أننا لا نملك ولا نستطيع أربع زوجات ولا عشرات الإماء ولا توزع علينا الغنائم ولا السبايا ولا يعطينا بيت المال صدقاته وكل يوم ترتفع مئذنة جديدة حتى صارت المساجد تقترب منابرها من الأخرى ونقرأ القرآن ليل نهار ولم نكتف بذلك بل حفظناه ولم نكتف بحفظة بل ندير الراديو



على إذاعة القرآن الكريم ليل نهار ولم نكتف بذلك بل أطلقنا لحانا كما كان السلف يطلقون ولم نكتف بهذا بل لبسنا جلبابهم ونعالهم وتركنا فرشاة الأسنان واستعملنا مسواكهم ولم نكتف بذلك، بل حفظنا الأحاديث الصحيحة وغير الصـحيحة ولـم نكتف بذلك، بل أعلينا من شأن العربي وحاربنا مـن أجـل قضاياه ولم نكتف بذلك، بل نصـرنا المسـلم فـي الفلبـين والشيشان وأفغانستان وجعلنا قضيتهم قضيتنا، ولم نكتف بذلك بل ألقينا هويتنا المصرية إلى أسفل سافلين، لأنها هوية كافرة كما قال السلف ولبسنا هويتهم البدوية، فما هو المطلوب منـا أكثر من ذلك؟ ألا نستحق ما قاله الرسول الكريم مـن أجـر يساوي خمسين أجرا من صحابة رسول ا !! ألا نستحق أن يرفق بنا رجال الدين ويعطونا خمس ما كان يعطي لصحابة رسول ا من الزوجات والإماء والسبايا والغنـائم!! ألـيس أجرنا كما قال رسول ا يساوي خمسين أجرا من صـحابة رسول ا !! السنا أحق بالتسهيل في هـذا العـالم الملـيء بأسباب الرفاهية والفتنة من كل ناحية.

زوجات عمر بن الخطاب

أن الهوية العربية السابقة على الإسلام لم تنتهي من حياة صحابة رسول ا وعلى رأسـهم الخلفـاء الراشـدين رضي ا عنهم، ويتجلى ذلك واضحا في تعـدد الزوجـات للخلفاء أنفسهم، هذا التعدد الذي كان سـاريا قبـل الإسـلام واستمر بعده وإذا كان الإسلام قد قصر تعدد الزوجات على أربع فقط، فإن هذا لم يمنع صحابته من التعدد عـن طريـق الطلاق والإبقاء على أربع فقط، أما الوحيد الذي تزوج أربع زوجات فقط فهو أبو بكر الصديق رضي ا عنـه، وهـذه الزوجات المتعددات بخلاف الإماء الذي امتلأت بهم بيـوت صحابة رسول ا ﷺ:

زوجات عمر بن الخطاب [٧٣]:

(١) عائكة بنت زيد بن عمر بن نفيـل (وهـي ابنـة عمه).

([73]) الإمام أبو الفرج الجوزي (تاريخ عمر بن الخطاب).

(٢) زينب بنت مظعون بن حبيب.
(٣) أم كلثوم بنت علي ابن أبي طالب.
(٤) أم كلثوم بنت جرول بن مالك.
(٥) جميلة بنت ثابت بن أبي الأفلح.
(٦) أم ولد.
(٧) أم ولد سرية تسمى لهيه.
(٨) أم حكيم بنت الحارث بن هشام.
(٩) أم ولد تسمى فكيهة

هذا التعدد قابله من ناحية أخرى عند النسـاء فـإن بعضهن تزوجن أكثر من مرة.. ويبدو أن الزواج والطـلاق كان آمرا شائعا في صدر الإسلام رغـم كراهيـة الطـلاق وأهمية العدل بين الأزواج كمـا أمرنـا الإسـلام. ومثـال الزوجات اللائي تزوجن أكثر من مرة نجد الآتي:

<u>(١) عائكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل تزوجت خمسة:</u>

١- عبد ا بن أبي بكر.
٢- عمرو بن الخطاب.

٣- طلحة بن عبيد ا (أحد المبشرين بالجنة).

٤- محمد بن أبي بكر.

٥- عمرو بن العاص.

(٢) أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط تزوجت أربعة:

١- زيد بن حارثة.

٢- الزبير بن العوام (مبشر بالجنة).

٣- عبد الرحمن بن عوف (مبشر بالجنة).

٤- عمرو بن العاص.

(٣) أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب تزوجت ثلاثة:

١- عمر بن الخطاب.

٢- عون بن جعفر الطيار بن أبي طالب.

٣- أخاه محمدا.

(٤) أسماء بنت طلحة بن عبيد الله تزوجت ثلاثة:

١- الحسن بن علي بن أبي طالب.
٢- الحسين بن علي بن أبي طالب.
٣- محمد بن عبيد ا بن عبد الرحمن بن أبو بكر.

(٥) عائشة بنت طلحة بن عبيد الله تزوجن ثلاثة:

١- عبد الرحمن بن أبي بكر.
٢- مصعب بن الزبير بن العوام.
٣- عمر بن عبيد ا .

وهؤلاء الأزواج كلهـم مـن صـحابة رسـول ا وبعضهم من الخلفاء الراشدين وبعضهم من المبشرين بالجنة أو أبناء صحابة رسول ا ﷺ، وكثير منهم تـزوج أختـين: وإني لأتعجب ممن يخلقون الأساطير حول صحابة رسـول ا وعن زهدهم وبعدهم عن الشهوات.

فكيف ينسجم ذلك مع هـذا التعـدد الخطيـر فـي الزوجات فكل من الخلفاء الراشدين قد تزوج تسع زوجـات عدا أبو بكر الذي تزوج أربعة فقط هذا غير الإماء. وإذا كان

ا أباح لرسوله ﷺ تعدد الزوجات لأسباب خاصة بالنبوة فما سبب تعدد زوجات الخلفاء من بعده وكيف ينسجم هـذا مـع العدل والزهد!!

وكيف نصدق الأساطير التي تروي عن زهد خلفـاء رسول ا ﷺ في النساء والطعام؟ لقد سمعنا الروايات التي تروي عن قلة طعامهم وأنهم كانوا يخرجون في المساء مـن شدة الجوع يبحثون عما يقتاتون به فيتقابلون ويذهبون إلـى أعرابية عجوز تحلب لهم الشاه التي تملكها فيدعون لها.. فإذا كانوا هم يكتفون بلبن الشاه فمـاذا كانـت تأكـل زوجـاتهم وأولادهم وإمائهم ومواليهم فهل من مجيب!!

فعن عتبة بن فرقد السلمي قال [٧٤]: (قدمت علـي عمر رضوان ا عليه وكان ينحر جزورا (جمل) كل يوم يعطى أطيبها للمسلمين وأمهات المـؤمنين ويـأمر بـالعنق والعلباء فيأكلها هو وأهله).

فها هو ينحر كل يوم جزورا كما يقول ابن الجوزي يأكل هو وأهله العنق والعلباء وهما ربع الجمـل إذا كانـت باقي الرواية صحيحة لأن أمهات المؤمنين كن أيسـر أهـل

([74]) عمر بن الخطاب لأبي الفرج الجوزي ص ١٠٩.

المدينة معاشا فكانت أنصبتهن أكبر وأول من يوزع علـيهم من خراج وجزية بلاد العجم.

يقول الإمام القاضي أبو بكر بن العربي المالكي فـي كتابه العواصم من القواصم: (تذاكرت بالمساجد الأقصى مع شيخنا أبي بكر الفهري حديث أبي تعلبة عن النبـي ﷺ: (إن من ورائكم أياما للعامل فيها أجر خمسين منكم. فقالوا: منهم؟ فقال بل منكم، لأنكم تجدون على الخيـر أعوانـا، وهـم لا يجدون عليه أعوانا).

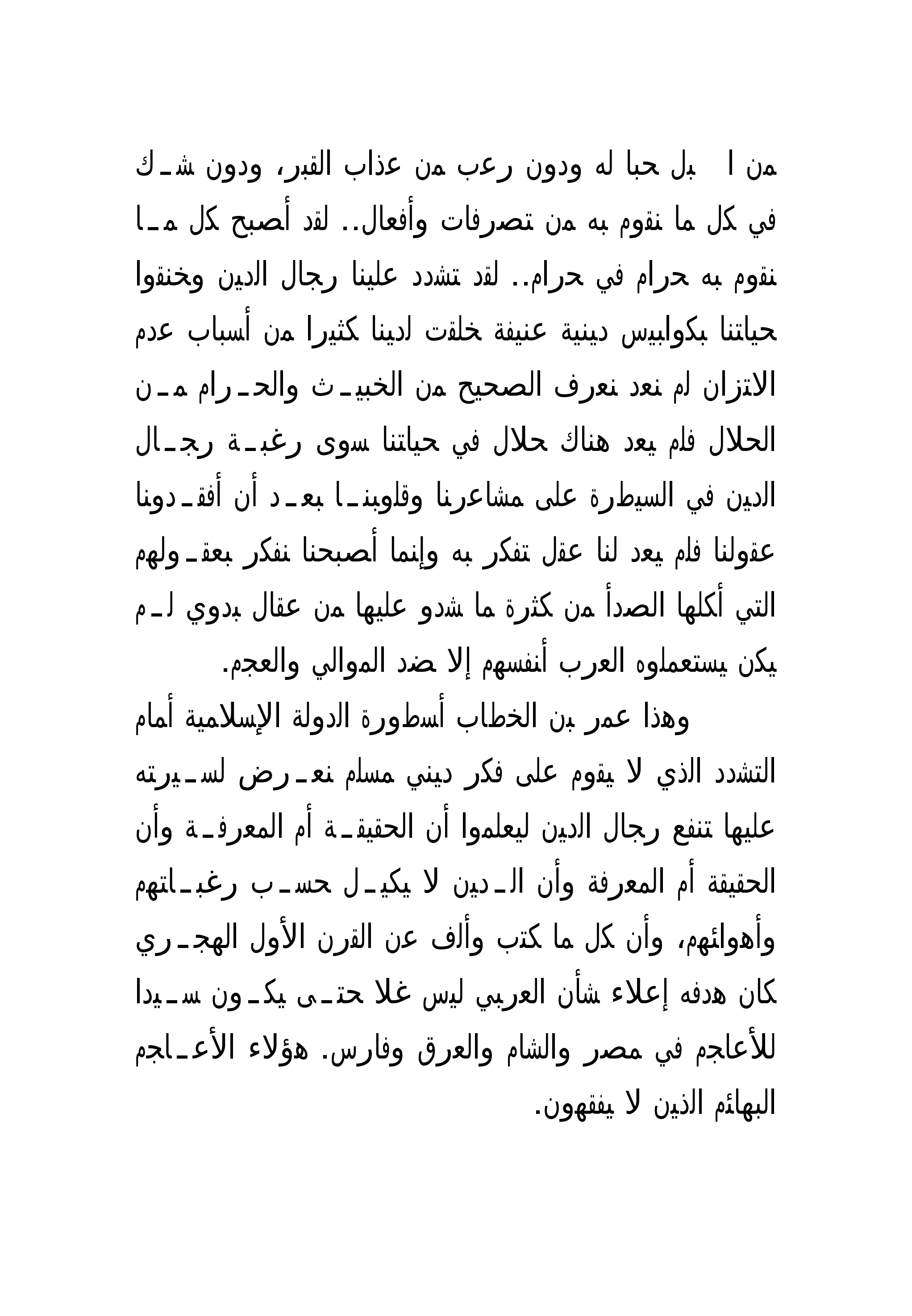
وتفاوضنا كيف يكون أجر مـن يـأتي مـن الأمـة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم قد أسسوا الإسلام، وعضدوا الدين، وأقاموا المنار، وافتتحوا الأمصار، وحمـوا البيعـة، ومهدوا الملة.

وتذكرت قوله ﷺ في الحديث الصحيح في البخاري: (لو أنفق أحدكم كل يوم مثل جبل أحد ذهبا ما بلغ أحدهم ولا نصيفه) فتراجعنا القول وتحصل ما أوضحناه فـي شـرح الحديث الصحيح.

وهذا القول يدحض قول رجال الدين هذه الأيام مـن أن السلف الصالح والخلف طالح فنحن من الخلف ولا نرتكب

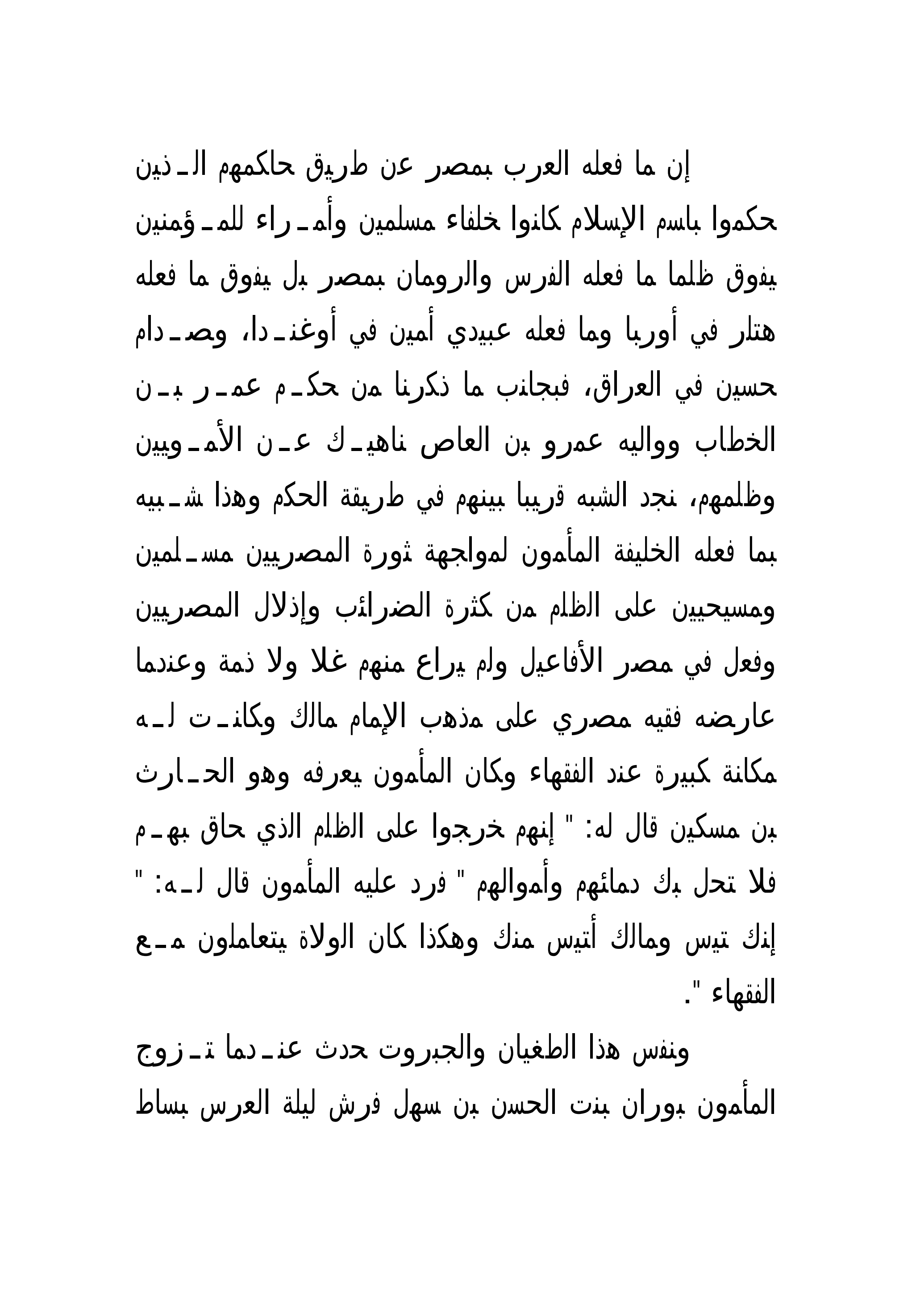
ما كان يرتكبه السلف من صغائر أو كبائر رغم كثرة ما يغري ورغم إننا لا نملك ولا نستطيع أربع زوجات ولا عشرات الإماء ولا توزع علينا الغنائم ولا السبايا ولا يعطينا بيت المال صدقاته وكل يوم ترتفع مئذنة جديدة حتى صارت المساجد تقترب منابرها من الأخرى ونقرأ القرآن ليل نهار ولم نكتف بذلك بل حفظناه ولم نكتف بحفظة بل ندير الراديو على إذاعة القرآن الكريم ليل نهار ولم نكتنف بذلك بل أطلقنا لحانا كما كان السلف يطلقون ولم نكتف بهذا بل لبسنا جلبابهم وتنعالهم وتركنا فرشاة الأسنان واستعملنا مسواكهم ولم نكتف بذلك بل حفظنا الأحاديث الصحيحة وغير الصحيحة ولم نكتف بذلك بل أعلينا من شأن العربي وحاربنا من أجل قضاياه ولم نكتف بذلك بل نصرنا المسلم في الفلبين والشيشان وأفغانستان وجعلنا قضيتهم قضيتنا ولم نكتف بذلك بل ألقينا هويتنا المصرية على أسفل سافلين لأنها هوية كافرة كما قال السلف ولبسنا هويتهم البدوية فما هو المطلوب منا أكثر من ذلك ألا نستحق ما قاله الرسول الكريم .

نحن لا نريد امتياز على صحابة رسول ا ولا نريد زيادة عنهم ولكننا نريد فقط أن نعيش حياتنا دون خوف



من ا   بل حبا له ودون رعب من عذاب القبر، ودون شـك في كل ما نقوم به من تصرفات وأفعال.. لقد أصبح كل مـا نقوم به حرام في حرام.. لقد تشدد علينا رجال الدين وخنقوا حياتنا بكوابيس دينية عنيفة خلقت لدينا كثيرا من أسباب عدم الاتزان لم نعد نعرف الصحيح من الخبيـث والحـرام مـن الحلال فلم يعد هناك حلال في حياتنا سوى رغبـة رجـال الدين في السيطرة على مشاعرنا وقلوبنـا بعـد أن أفقـدونا عقولنا فلم يعد لنا عقل تفكر به وإنما أصبحنا نفكر بعقـولهم التي أكلها الصدأ من كثرة ما شدو عليها من عقال بدوي لـم يكن يستعملوه العرب أنفسهم إلا ضد الموالي والعجم.

وهذا عمر بن الخطاب أسطورة الدولة الإسلامية أمام التشدد الذي لا يقوم على فكر ديني مسلم نعـرض لسـيرته عليها تنفع رجال الدين ليعلموا أن الحقيقـة أم المعرفـة وأن الحقيقة أم المعرفة وأن الـدين لا يكيـل حسـب رغبـاتهم وأهوائهم، وأن كل ما كتب وألف عن القرن الأول الهجـري كان هدفه إعلاء شأن العربي ليس غلا حتـى يكـون سـيدا للأعاجم في مصر والشام والعرق وفارس. هؤلاء الأعـاجم البهائم الذين لا يفقهون.



إن ما فعله العرب بمصر عن طريق حاكمهم الـذين حكموا باسم الإسلام كانوا خلفاء مسلمين وأمـراء للمـؤمنين يفوق ظلما ما فعله الفرس والرومان بمصر بل يفوق ما فعله هتلر في أوربا وما فعله عبيدي أمين في أوغنـدا، وصـدام حسين في العراق، فبجانب ما ذكرنا من حكـم عمـر بـن الخطاب وواليه عمرو بن العاص ناهيـك عـن الأمـويين وظلمهم، نجد الشبه قريبا بينهم في طريقة الحكم وهذا شـبيه بما فعله الخليفة المأمون لمواجهة ثورة المصريين مسـلمين ومسيحيين على الظلم من كثرة الضرائب وإذلال المصريين وفعل في مصر الأفاعيل ولم يراع منهم غلا ولا ذمة وعندما عارضه فقيه مصري على مذهب الإمام مالك وكانـت لـه مكانة كبيرة عند الفقهاء وكان المأمون يعرفه وهو الحـارث بن مسكين قال له: " إنهم خرجوا على الظلم الذي حاق بهـم فلا تحل بك دمائهم وأموالهم " فرد عليه المأمون قال لـه: " إنك تيس ومالك أتيس منك وهكذا كان الولاة يتعاملون مـع الفقهاء ".

ونفس هذا الطغيان والجبروت حدث عنـدما تـزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل فرش ليلة العرس بساط

من ذهب مسفوف ونثر عليه جوهر كثير فجعل بياض الـدر يشرق على صفرة الذهب، ووضع في حجرهـا أي حجـر العروس ألف درة فوق صينية من ذهب وقال لها العـريس المأمون: " هذه نحلتك أي مهرك "، وهذه الأموال كانت تؤخذ من عرق المصريين الفلاحين .

وإذا نحن تقدمنا إلى أحمد بن طولون الـذي أسـس الدولة الطولونية نجده " قد خلف بعد مماته عشرة آلاف ألف دينار ذهبا ومن المماليك سبعة آلاف فرس، ومـن البغـال والحمير ستة آلاف رأس، ومن الجمال عشرة آلاف جمـل، ومن اللؤلؤ والجواهر واليواقيت مائة صندوق، ومن التحـف ما لا يحصى عدده، وهذا خارج الضياع والأملاك والبساتين وغير ذلك " (٧٥).

أما ابنه خمارويه " فقد كان مثلا فريدا فـي البـذخ والإسراف مثل إنشائه بحيرة الزئبق، وإلباسه قوائم الأشجار في بستانه بالنحاس المطلي بالذهب، ونثر المسك والكـافور على الرياض وإثبات أنساب الخيـول التـي كـان يحبهـا،

([75]) المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور، لمحمد بن أياس.

واستكثر منها إلى أن ضاقت بها الإسطبلات " (٧٦) وقد زوج ابنته المسماة أسماء وشهرتها قطر الندى إلى الخليفة المعتضد وجهزها بجهاز أسطوري، قل أن تجد له في التاريخ نظيـرا حتى قيل إنه لم يبق تحفة من كل لون إلا حملها بها وبلغـت نفقات الجهاز مليون دينار، ولم يكتف بذلك بل أعطاها مائـة ألف دينار لتشتري بها من العراق ما قد تحتـاج إليـه ممـا يتعذر وجوده في مصر، وبني بين مصر وبغداد قصرا على رأس كل مرحلة تنزل فيها، أمده بكل وسائل الراحة كأنها في بيت أبيها، ومن الطبيعي أن يظهر لهذا السفه أثـره السـيئ على بيت المال.

أما ما تركه كافور الأخشيدي أحد سلاطين أو خلفاء الأخشيد فإن المقريزي وصل بالثروة التي تركها كافور إلـى ستمائة مليون دينار (٧٧) ومن الطبيعي أن يؤدي هذا السـفه إلى إفقار الشعب المصري.

وبعد الحكم الأخشيدي استولى الفاطميون على مصر وحكموها من ٢٥٨ هـ إلى ٥٦٥ هـ حوالي ثلاثة قـرون

([76]) نفس المرجع.

([77]) مصر في عهد الأخشيديين، د، سيدة إسماعيل.

كاملة.. وكان الخليفة المعز لدين ا   الفاطمي ادعـى لنفسـه صفات التقديس حتى رفعه شاعرة ابن هانئ إلـى مصـاف الألوهية الذي قال فيها: " احكم فأنت الواحد القهار " (٧٨).

وتروي عن الخلفاء الفاطميين الأساطير فيما عاشـوا فيه من ترف وقصور ومواكب حافلة، قال المسـجي (٧٩): " كان للمعز أخت تسمى سيدة الملك، قيل إنها توفت في خلافة أخيها المعز فوجد لها من الذهب ثلاثمائة صـندوق، ومـن الفصوص الياقوت الملونة واللؤلؤ خمس ويبات، ووجد لهـا مدهن من الياقوت الأحمر وزنه سبعة وعشرون مثقالا، لـم يعرف له ثمنا ووجد لها من الشفق الحرير الأحمر ثلاثـون ألف قطعة "، ويضيف لها الدكتور حسن إبراهيم في كتابـة تاريخ الدولة الفاطمية ثمانمائـة جاريـة وأن مخصصـاتها السنوية كانت خمسين ألف دينار. وكانت هذه أخت الخليفـة فما بالك بالخليفة وأخوة الخليفة وباقي الخلفاء.

ولم يقتصر العبث بالمال واكتنازه وحبسه عن المنفعة العامة على الخليفة وأمراء وأميرات البيت المالك بـل امتـد

([78]) تاريخ الدولة الفاطمية، د. حسين إبراهيم ـ مكتبة النهضة.

([79]) المختار من بدائع الزهر في وقائع الدهور، لمحمد أياس.

إلى الوزراء فعندما توفى جوهر القائد ووزير المعز وجد له من الأموال ما لا يحصي فمن جملة ذلك من الذهب ألفين ستمائة ألف ألف دينار، ومن الدراهم أربعة آلاف ألف درهم، ومن اللؤلؤ الكبار واليواقيت أربعة صناديق مجلدة، ومن القصب الزمرد ألف قصبة، ومن الثياب والديباج خمسة وسبعون ألف قطعة، وسبعمائة خاتم فصي من لياقوت والزمرد، وأربعة قدور من الذهب وزن كل قدر مائة رطل، بخلاف الجواري والعبيد والثروة الحيوانية والأملاك والضياع [80].

أما برجوان وزير الحاكم بأمر ا يقول ابن إياس عن ثروته التي خلفها عند قتله: " فوجد له أكثر مما وجد لجوهر القائد "، وفي المقابل كانت أحوال الشعب المصري تعاني من المجاعات الرهيبة والطاعون، والقحط واختفاء الموارد الغذائية وغلاء الأسعار، يقول خليل عبد الكريم [81]: " ويكفي أن نشير على المجاعة التي حدثت في عهد الخليفة المستنصر با الفاطمي الذي ظل جاثما على صدر البلاد

---

(80) المختار من بدائع الزهور.

(81) المختار من بدائع الزهور.

أكثر من ستين عاما، وقد حدثت فيها من البلايا والمصـائب والقطائع ما تشيب له الولدان، ويكفي أن تعـرف أن النـاس اضطرت إلى أكل الكلاب والقطط ثم إلى أكـل جثـث مـن يموت من الموتى، واصطلح المؤرخون على تسميتها بالشدة العظمى حتى أن ابن إياس يقول: " أن طائفة من الناس كانوا يجلسون على السقائف فإذا مر بهم أحد من الناس ألقوا عليه تلك الحبال ونشلوه بتلك الكلاليب في أسرع وقت فإذا صـار عندهم ذبحوه في الحال وأكلوه " [٨٢] ويقول المسجي: " كان بمدينة الفسطاط حارة تسمى حارة الطبق وكان فيهـا نحـو عشرين دارا، كل دار تساوي في الثمن ألف دينـار فبيعـت بيوت هذه الحارة كلها بطبق من الخبز كـل دار رغيـف أو عدة أرغفة من الخبز فسميت يومئذ بحارة الطبـق "، وفـي المختار من بدائع الأزهار: " خرجـت امـرأة مـن مدينـة الفسطاط ومعها ربع من اللؤلؤ الكبار وقالت من يأخذ منـي هذا اللؤلؤ ويعطيني عوضا قمحا تجد ".

([82]) الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية.

يقول الشيخ خليل عبد الكريم [٨٣]: " واستمر الغـلاء سبع سنين وكلها نتيجة محتومة للعبـث بـالأموال العامـة والسرف الذي ليس له مثيل والذي مارسه أسلاف المستنصر با دون وازع من ضمير ".

والمضحك المبكي ـ شر البلية ما يضحك ـ أن ما جاء بعده من الخلفاء لم يتعظ من الشدة العظمى وما حـدث فيها من بلاء فإذا بالخليفة الظافر با : " وهو من أحفاده بعد أن تولى الخلافة انكب على اللهو والطرب وشرب الـراح، والأنكى من ذلك إنه كان يهوي ابن وزيره عباس وينزل إليه ويبيت عنده في غالب الأوقات وأهداه صينية من ذهب فيهـا ألف حبة لؤلؤ كبار وفصوص من الياقوت الأحمر والأصفر والزمرد وألف نافجة وعشرة آلاف دينار ".

ورغم ما فعله هؤلاء الخلفاء الذين حكموا مصر باسم الإسلام وباسم الخلافة الإسلامية. ورغم ما اسـتنزفوه مـن أقوات الشعب المصري ورغم أنهم ورثوا مصر وورثوهـا لأولادهم واستنزفوا خيراتها فأنهم لم يقيموا مشروعا واحـدا لتحسين أحوال المصريين فلم يشقوا ترعة أو خليج ولم يقيموا

([83]) نفس المرجع السابق.

طرقا وكل ما أقاموه قصورهم وبســاتينهم بالإضــافة إلــى تنكيلهم بالشعب المصري بما لم يأتي في شريعة أو في ديــن أو حتى في أخلاق فاخترعوا أنواع من العقوبات لا تخطــر على بال طاغية منها سلخ الوجه والتشهير والتجريس وهــو أن يطاف بالشخص على حمار أو ثور ويضــرب الجــرس على رأسه والمشاعلية تنادي عليه وأحيانــا تزفــه المغــاني ويوضع ما يشبه الهون ثم يضرب بعد كل هذا بالسياط أمــام الناس.

كان كل هؤلاء الخلفاء من العرب ولم أذكــر دولــة المماليك ودولة الأيوبيين حتى لا يقال أنهــم ليســوا بعــرب ولكنهم هم العرب الذين استقدموهم لذلك لم يكــن غريبــا أن ينقص عدد المصريين عند الفتح العربي من ثمانية أو اثنــي عشر مليونا عند الفتح إلى اثنين ونص مليون عنــد مجــيء الحملة الفرنسية على مصر.. فهذا يخالف كل التوقعات وكل التطورات الاجتماعية ولم يحدث في التاريخ بطوله وعرضه أن نقص شعب بنسبة ٨٠ % بعد مرور ألــف ســنة عليــه فالمفروض لهذا الشعب أن يتضاعف عشرات المرات ودليل

ذلك أن المصريين تضاعفوا أكثر من ٣٥ مرة فـي مـدة لا تزيد على مائتين سنة من الحملة الفرنسية إلى الآن.

إذن لم يأت العرب لمصر بالخير كما قيل أو يقـال. ولم يأت العرب لمصر بالشريعة كما قيل أو يقال فما حـدث في مصر يخالف كل الشرائع السماوية، والظلم والهوان الذي عاشته مصر تحت حكم العرب لم يأت في قـرآن ولا فـي سنة، فأين كان رجال الدين الإسلامي عنـدما كـان هـؤلاء الحكام يعيثون في مصر فسادا ويحكمون باسم الدين، لقد شيد كل هؤلاء الحكام والخلفاء الظـالمون المسـاجد بأسـمائهم وزينوها وزخرفوها وخلعوا الأعمدة من المعابد الفرعونيـة وصنعوا بها مساجدهم وجامع السلطان حسن يشهد على ذلك فأعمدته عليها كتابات هيروغليفية، فماذا فعلوا بمسـاجدهم؟ وماذا فعل المعز لدين ا الفاطمي بالأزهر الذي بناه؟ هـل منعه الأزهر من الظلم؟ هل منعـه الأزهـر مـن اسـتعباد المصريين؟ لم يحدث ذلك لأن العرب دائما في واد والـدين في واد آخر لأنهم استبدلوا الدين بثقافتهم البدوية التي تحمـل مخزونهم الثقافي المريض.

إن يرى أحد كلامي مرا فهو يتعامى عن الحقيقة أما أنا فأشعر أن كلامي كالماء الزلال وإنما أفواههم هي التـي أصبحت مرة لما يتفوهون به من كلمـات لا يؤمنـون بهـا مسترشدا بقول المتنبي:

ومن يك ذا فم مر مريض

يجد مرا به الماء الزلال.

ابراهيم الزينى